صـــرخـة

سمفونية على مقام الصمت





اسم الكتاب: صرخة

تأليف: يونس الشرقي

عدد الصفحات: 320 صفحة

عدد الملازم: 20 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 27310 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 602 - 3

1438 هـ

2017م

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 01152806533 - 01012355714



صرخة

سمفونية على مقام الصمت

يونس الشرقي

دار البشير
للثقافة والعلوم

تخاطر:

إليك أيها الصَّارخُ في صَمْتٍ، وسط الصَّامتين بِضجِيجهم العالي.

كلمة لابد منها :

تحية إجلال لكل رجل شرطة، خاط يومه بليله يرعى أمن قومه.
قال رسول الله ﷺ:

(عينان لا تمسهما النار: عين بكت خشية من الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)

ستلجون بعد هذه الصفحة إلى صَرْحٍ من الحرف تُعزَف

به سمفونية صامتة تَتَرَنَّم على مقامات عذبة خيالية،

لكن نوتاتها المنبعثة تَرْسُم إسقاطات حقيقية لم

تخالطها الأقلام وأهملتها الصحف .

الأسطورة

كانت تخوض غابة الأشجار الكثيفة وحيدة، تعانق أنفاسها المنتشية أغصان العوالي... كان الضياء الخَجِل يتحسس مكانه بين تلك الأشجار المتعانقة كمن وجد أهله بعد غياب عقود... كل شيء كان ساحرا أخاذا، الأخضر القاني الذي خالط بهاؤه بهاء الحمرة الشفقية فأنتجت سحرا غامضا، زاد المكان غموضا ممزوجا برومانسية رقراقة... ثم ذاك السكون الذي وقَّع عقد قرانه مع الصمت ليزيد الجو إبهاما وطلاسم لا تُحَل.

هي ورفيقها... لا ثالث لهما... تترنم على سمفونية وقع خطاه وسط الأشجار السامقة...انعدم كل حس آدمي بالمكان... توقف الزمن حولها وسكنت حركة الرياح، كما تضاءل همس الأشجار وانجلى ليفسح سعة لصوت قرع سنابك الحصان الأسود... كانت مشيته تتثاقل شيئا فشيئا، يكاد يقف بعد حين، فالجهد والكد قد برز بينا على قسمات حركاته... سواد آخر قد سرى بين الظلال المتناثرة هناك، اختلطا معا لتتحد الخليقة بجوهر واحد حالك.

كانت مشيته تتحرك وفق إيقاع منضبط كأنه يناغم سمفونية الحياة ويتداخل مع مقاماتها... أما شعره المتراخي على رقبته الممشوقة فتلك حكاية أخرى احتار فيها الولدان، أسحر هذا؟... ولا يفلح الساحرون، إلا هذا الساحر الفتان الذي يلهب القلوب ويبدع ترانيم الجمال.

لم يخف ذاك اللون البهيم لمعان جلده الآسر للعيون... فتوهجات

الأشعة القليلة التي تنعكس على جلده الأدهم، تأخذك إلى عالم من الخيال الساحر... فتختلط هنا مقومات الجمال وتُخْتَزَل في أبهى تجلياتها فتتشكل كقطعة فنية لا تدركها ريشات رسامي عصر النهضة الأوروبي.

غطت حواف أرجله سبائك فضية مزركشة بماء الذهب الأحمر، يكاد عبق أريج اللجين المميز أن يبلغ شعيرات أنفك من بهاء منظره وروعته، كما تزين مثيلاتها جوانب فكيه زاحفة لتغطي أذنيه المنتصبتين في يقظة وتأهب، أظهرت بينها غرة بيضاء كانفلاق أشعة الصبح من سواد سحيم، تمتد ملامسة شعرا أسود كَلَيْلٍ بهيم، يمتد في دقة على رقبته الطويلة المميزة للخيول العربية الأصيلة، في تناغم مع مشيته الأرستقراطية... خيلاء وتكبر!

كانت تمتطيه وقد أرخت رأسها للخلف ملامسة بأمه أعلى ظهرها النحيل، مرخية يديها الدقيقتين على جانبي جذعها، تهتزان مع وقعات حوافره المتناغمة ذهابا وإيابا... كانت تغمض عينيها السوداوين، فهي تعرف أن حصانها يعي جيدا وجهته وهدفه... غطى شعرها الكثيف والسميك جل ظهرها حتى لامس السرج المزركش بألوان خضراء وحمراء تمازجت في خليط متجانس بهي...

قطعت زهاء نصف ميل وما حركت ساكنا... كانت ترتاح في فراغ خيالها الذي نُكست ذكرياته المؤلمة قبل هذا بقليل، رفعت يديها في تكلف واضح، واضعة إياها أمام عينيها اللتين ما فتئتا تتفتحان رويدا رويدا... ثم نظرت إلى كفيها المتلطختين بالدماء... نجيع مثقل بذكرياتها التي كانت تهجر خيالها مع كل قطرة نجيع ساخن تسقط!... لكن رغم هذه الملحمة لن تنساهم ما حَيِيَت!

مازال اللون الأحمر فاتحا والدم مائعا... مازال ذاك الابن البار لانتقامها حيا طريا تتلاعب به أناملها... حرَّكَتْها في تثاقل وتلاعب كأنها تحاول فهم إحساس الدم... أو قل كانت تتحسس إحساس صاحبه المقتول... ذاقتْ لُزوجته بفرك إبهامها مع السبابة، ثم ابتسمتْ في رضى... هذا نجيعهم ودمهم المسكوب على نصلها اللامع... نصلها الذي ما زال يأبى الرجوع إلى غمده.

قربته أكثر إلى وجهها الصافي، ثم سقطت قطرة فوق جبهتها البارزة، انتظرت قليلا لترسل ضحكة هستيرية ضجَّ لها سكون الغاب وصمت الغروب...

رجَعتْ تتأمل فيه كطفلة أهديت لها لعبة طال انتظارها، كانت سعادتها واضحة... بل همت أن تداعبه بلسانها، لكن ساديتها الكاملة لم تستيقظ بعد... بعد دقيقة من التأمل الدموي أعادت كفها إلى مُسْتَقَرَّه، ورأسها إلى استوائه...

تابعت ابتسامتها لتقترن مع تشنج مقتضب بين حاجبيها الدقيقين... فهي لم تعد تعرف نفسها، ولم تسطع فهم غرائزها المتفجرة...

من هي ومن أين أتت؟...

قد نسيت ذلك بل قل تناسته، ولا تذكر إلا تلك الشهوة في سفك الدماء.

بعد حين وجدت نفسها وسط مرج فسيح، قد غطى احمرار المغيب قسماته وتفاصيله... أوقفت الرفيق الأسود وأخذت تتأمل في الشفق الذي بدأ يعانق الأفق البعيد... ثم رفعت يديها مرة أخرى، وأخذت تجاور الكفين الدقيقين المخضبين بالدماء شيئا فشيئا أمام مُحيَّاها، إلى أن

توسطهما الشفق... لتصيح بأقوى ما تملك من قوة... صيحة هربت منها الطيور الجاثمة على زرع متناثر أو ثمرة شاردة...

أرسلت من قدميها العاريتين إشارة لرفيقها أن أعدو وسارع الريح... فانطلق وسط السهل الواسع ليسابق صدى صوتها الذي مازالت تردده الأعشاب والأحجار من حولها...

بعد حين بدأ الليل يرخي بأسداله وحلكته... لِيُخَالِطَ شَعْرَاهُمَا (الحصان وراكبه) اللاهثان سواد الديجور الدامس، ويعطيا ميلاد ليل جديد تمازج مع صريم السماء ليزيدها سحرا وغموضا!

قبل ساعة... ووسط الغابة الساكنة... قد بدأت ملحمتها الأبدية... هناك وبجانب ثكنتهم، ووسط جمعهم قد قرعت جرس الانتقام!

لقد أعلنت الحرب عليهم...

ستنتقم منهم واحدا واحدا...

وتقطع أعناقهم وريدا وريدا...

الآن والآن فقط قد صاغت عنوانا فريدا لحقبة جديدة...

عنوان مجلجل يَهُزُّ الآفاق ويُكسِيها بنجيع الدم...

الآن قد أعلنت أسطورتها وبداية قصتها التي ستمتد أناملها عبر القرون...

لقد أعلنتها أسـطـورة سـرمـديـة...

كان اسمها...

عـــــايـــــشـــــه قـــــنـــــديـــــشـــــه

ملاقاة واتصال

– 1 –

كانت تجر رجليها على أرض رخوة شديدة الانحدار... مزيج من الطمي الأسود وقَلْتِ السيل... لم يُطوَ جذعها من وقع المجاهدة، ولم تقف زاوية وميل المنحدر الصغيرة حَجَرَة عترة أمام ثبات رجليها الدقيقتين، وقَصْد خطواتها الواثقة... فرغم الأرض الرخوة كانت تمشي بثبات، ورجلاها الدقيقتان كأنهما تطفوان فوق طبقة المياه الدقيقة، بل لا تسمع لهما وقعا أو صوت نزع القدم المميز عندما تنغرس بالطين... تَعَلَّقت بأطرافها قطرات مائية جرَّاء ملامسة الماء الجاري الذي لا يكل في رسم واد ضخم كثعبان كوبرا، بين السهل الفسيح المترامي الأطراف... كانت قسمات النهر واضحة فريدة تُحيل على ضربه بالزمن التليد، لكن مياهه العذبة الناضحة بالحياة والروح تجعله متجددا شابا فتيا... ذاك هو إكسير الحياة الأبدي.

امتزج صفاء النهر بنقاء سماء الليل الصيفي الذي توشحت بنجومها البراقة وبياقوتتها المُضيئة... كانت قناديل السماء المتراقصة تكشف عن شعرها الأسود المتراخي تثاقلا على كتفيها، كثَمِل يطلب سريره ليلة نهاية الأسبوع، كانت ثمالته تدنيه على خديها ليُخفي جميع ملامحها، ويصل دون تعنت ملامسا لباسها الفضي المُتوهج نورا تحت بدر السماء.

وهيج يومض تحت أشعة الأزهر البيضاء، كشعاع نيون يبعث ضياءه

المتذبذب بين حشائش نبات التيفا والقصب المنتشر على ضفاف الوادي، مُعَاقِرَةً جُذُورُها مَاءَه الصافي لترشف من ترياق الخلود...

كانت تجر رجليها بضفة واد ماسة...

كانت خطواتها تعي خط سيرها، وتعرف مسارها المرسوم قَدَرا... أخذتها رجلاها بخطى حثيثة نحو الطريق الوطني الرابط بين مدينتي آيت ملول وتيزنيت المغربيتين... كانت تقترب شيئا فشيئا من أضواء أحد دواوير السهل السوسي الكبير الذي تصل مساحته أربعة وثلاثين ألف هكتارا تقريبا... كانت مصابيح دوار «سيدي علي» تتمايل وسط بهيمية سواد الليل، كأشباح يابانية صفراء مشتعلة تتراقص على إيقاعات السكون، الذي لا يُكدره إلا صوت سيارة سرعان ما يخفت وراء الأفق القريب...

كانت آثار المياه ترسم قدميها في دقة... آثار مَخطوطة على أرض هجينة بين التربة والرمال، سرعان ما اختلطت لتتعلق بقدميها مجاورة الكعبين كحناء طبعت وسم مقاومة وجهاد ضرب بجذوره بين عقود الزمن الغابر، وبتاريخ البلاد العتيد... لكن إن أمعنت النظر فستجد أن تلك العلامات والوسوم ليست بحادثة بل ترجع لقرون عديدة.

ثم توقفت فجأة على محاذاة الطريق، وقفت كأنها تنتظر شخصا معينا قد ضربت معه موعدا هنا... لقد أبرمت معه صك ملاقاة واتصال بهذا المكان، وبجانب دوار سيدي علي...

أما سؤالك بأي ساعة وأي يوم كان هذا!...

فلا يهم!...

إنه الوصل والمعانقة، ذاك ما كان مهما... هنا جاءت تبحث عن روحها وفؤادها المجتث منذ سنين.

ربما الساعة كانت تشير للثانية صباحا، بيوم بدري يتوسط الشهر القمري، بفصل الصيف!

لكن كل هذا لا يهم!

إنها لم تُعِره اهتماما منذ أن فقدت قيمة الوقت...

بل منذ أن توقفت عقارب الساعة لديها... منذ أن لامس نجيعها الساخن جلد بشرتها، وحَبَا تَلَهُّفا ليعم جسدها الهزيل!

كل هذا لم يعد ذا بالٍ... كل هذا انجلى مع أول ظلمة غلفت عينيها!

إنهم هنا...

بل إنها هنا... إنها تقترب... تقترب لملامسة عينيها... تقترب لتبث لها نجواها وترسل لها عبراتها العتيدة... إنها تقترب بسرعة جنونية نحوها.

– 2 –

حشيش كتامي رفيع... ليست به إضافات ولا شوائب تُكدر صفوة لهيبه الضام لخلايا الدماغ العليل... حشيش يأخذك إلى عالمه الخاص، عالم لا تفصله إلا شعرة دقيقة عن عالم الأرواح البرزخي... البولينا (Pol-lena) كما يسميها مغاربة الشمال وجبال الريف المغربي... أجود أنواع الكيف الكتامي وأرقها... يكفيك أن تعرف اسمه لتعي جودته... اسم مشتق من (Pollen) وهو غبار الطلع... خلاصة وجود الزهرة ومنتهى رحيقها، ذاك الإكسير الذي تحمله النحلة لتصنع عسلها...

وأي عسل يصنع هذا السم اللذيذ؟...

ينفذ إلى مسام الدماغ وثناياه ليأخذ خلاياه إلى رحلة سرمدية، يزيدها احمرارُ خمور مكناسة جوا خاصا من السفر عبر الزمن... أي مخبول هذا من قال إن اختراق بُعد الزمن غير معقول؟ وأي تيه قد شمل جون تيتور (John Titor) ليضل عن أنجع وسيلة لاختراق ذاك المجال الميتافيزيقي الذي وصله بجهاز عليل اسمه إي - بي - إم IBM 5100... تبا إنه لم يذق الحشيش الكتامي... لم يداعب أريجُه شعيراته الحسية ليأخذه إلى اللازمان واللامكان... ثم وقد مُزج بعبق الخمر الأحمر المكناسي، بَلْه لا ترتقي إلى معارج الكون وتزور الفضائيين... فتحكي لهم عن تُرهات رائيل، وإريك فون دانكن، وديفيد آيك، وأنيس منصور وما صاغوه من أقاويل عنهم وتلك الصورة التي رسمتها عنهم أقلامهم...

ثم تخترق الأبعاد كلها وتتعدى البعد الوتري الحادي عشر لتقف أمام العوالم المتوازية فتَطرب مسامعك أنغام سمفونية الأوتار المتذبذبة.

هناك حيث كل شيء قد جُمع في اللاشيء... هناك حيث تنعدم المادة، فتختلط الأزمان وتَتَحَجَّم الأمكنة... هناك حيث التتار يغيرون على الأندلس فيقوم سليمان القانوني بدفعهم... هناك حيث انبعث حشاشو الإسماعيلية كي يُسكتوا أفواه واصل بن عطاء... هناك حيث اختفى جون تيتر وجهاز الإي - بي - إم!

- تبا للمقال الذي قرأته آنفا... لقد عكر سَفَري الكتامي.

قالت سارة وهي تلقي زفير جوفها العطن برائحة الخمر الأحمر الممزوج بدخان سيجارتها الكتامية... كانت قد قلَّبت قبل قليل مجلة

علمية لتقع على مقال حول الرجل الغامض جون تيتور وفرضية وجوده الفعلي ومجيئه من المستقبل...

وقفت تتهادى قاصدة مقصف الحانة:

- من فضلك قهوة نسبيريسو سيري (Nespresso serré).

لم يسمعها النادل لوقع دمدمة الموت (Death growl) العالي الذي كانت حناجر مجموعة السبت الأسود (Black Sabbath)، أو كما أضحتْ تُسمى بالجنة والجحيم (Heaven & Hell)، ترسلها بين ثنايا كلمات إحدى أغان ألبومهم الأخير الشيطان الذي تعرفه (The Devil You Know).

- واحد نيسبريسو سيري...

أعادتها بصوت عال، حتى سقطت من وقع جهد حبالها الصوتية التي لم يتحملها جسمها الثمل... حملت جسمها المتهالك ووقفت لتجلس على الكرسي الأحمر... حملت يدها المتثاقلة بجهد نحو المقصف وأمسكت الكأس الأبيض. شربت المادة السوداء، ثم جرَّت رجليها الهائمتين بين دروب السكر، إلى أحد المقاعد المنعزلة قليلا عن وقع أقدام الراقصين وسط علبة الليل الصدئة.

أمسكت برأسها المتعب... تبا لذاك المقال... هوسها بالعلوم دفعها لقراءة مقال عن ظاهرة جون تيتر، الذي قام بنشر عدة رسائل إلكترونية بمواقع التواصل بالشبكة العنكبوتية، والتي يزعم فيها أنه جندي شارك بحرب عالمية ثالثة، وهو قد قدِم من عام 2036 لمنع وقوعها... لقد شملت رسائله عدة رموز وإشارات بدأت بعض المؤسسات في أخذها على محمل الجد، وتكوين منظمات تزعم التصدي للخط التطوري

الحالي للعلوم، وتهدف لدحض بعد المشاريع السرية كالتي تقوم بها المنظمة الأوروبية للبحث النووي السويسرية سيرن، والمؤسسات العسكرية الأمريكية بالمنطقة 51 بنيفادا!

كان سفيان بجانبها يقود سيارته الأودي الفئة الأولى... قد شرب هو الآخر ثلاثة كؤوس من القهوة السوداء كي يُزيل بعض ثمالته... أما المقاعد الخلفية فقد ضمت كل من زيد وميساء وحسناء...

زُملاء دراسة... اختاروا أغادير لقضاء عطلتهم الصيفية، بعد عامين شاقين من كد وجهد مُضنٍ بالأقسام التحضيرية لولوج المعاهد العليا للمهندسين... قضوا يومهم بين كنف شاطئ ميرلفت الذي يتوسط مدينتي سيدي إيفني وتيزنيت... اختاروا ولوج إحدى علب الليل بتيزنت الغير بعيدة عن شاطئها... وهاهم الآن يتوجهون ليلا نحو أغادير ليبيتوا بفندق سوفيتيل أغادير رويال باي ريزورت المجاور لشاطئه الدافئ.

لا شيء يهم (Nothing else matter) تلك الترانيم المنبعثة من قيثارتي جيمس هيتفيلد (James Hetfield) وكيرك هاميت (Kirk Hammett) وقيثارة الباص لجيمس نيوستد (Jason Newsted) وطبول لارس أولريتش (Lars Ulrich)، كانت تُرسل من مشغل الأقراص بسيارة سفيان، فأخذت بلباب أفئدتهم... كانت الكلمات التي يرسلها لسان هيتفيلد تتناغم مع تلك التي ترسلها حناجرهم... كانت تحكي أشجان جيمس الملتهبة حول حبيبته التي هجرته... حبيبة فترة مراهقته التي لم يتذكر صورتها... ليفرز أغنية سرمدية لم تمت رغم قدمها... أبدع ما قدمت مجموعة الهارد روك الأمريكية ميطاليكا (Metallica).

So close no matter how far

قَرِيبٌ مِنِّي رَغْمَ المَسَافَات البَعِيدَة

Couldn>t be much more from the heart

بُعْدُك لَا يَمْنَع أَنْ تَكُونَ قَرِيبًا مِنَ القَلْب

Forever trusting who we are

لِنُؤْمِن دَائِمًا بَأَنْفُسِنَا

And nothing else matters

وَلَا شَيْء بَعْدَ ذَلِكَ يَهُمُّ

لتظهر من بعيد... واضحة جلية... قريبة منها رغم المسافات والقرون... قريبة من فؤادها ومن قلبها المتشوق لبث زفراتها وحرقتها الملتهبة...

Never opened myself this way

لَمْ أُفْصِح عَمَّا بِنَفْسِي هَكَذَا سَابِقًا

Life is ours, we live it our way

إِنَّها حَيَاتَنا، نَعِيشُها عَلَى طَرِيقَتِنَا

All these words I don>t just say

جَميعُ هَاتِه الكَلِمَات لَم أَقُم إِلَّا بِإلقَائِها فَقَطْ

And nothing else matters

وَلَا شَيْء بَعْدَ ذَلِكَ يَهُمُّ

كانت تلبس البياض... وملامحها قد أُخفِيت تحت شعرها الأسود المُسدل... قد جاءت هنا لتفصح عما يخالج شعورها... تقصد شخصا

واحدا هناك... تقصد توأم الروح لتكلمه بما لم تقل من قبل.

Trust I seek and I find in you

الثِّقَةُ الَّتي أَبْحَثُ عَنْها تُوجَدُ بِك

Every day for us something new

كُلَّ يَوْم يُولَدُ شيء جَدِيد بَيْنَنا

Open mind for a different view

نَفْتَحُ عُقُولَنَا لآرَائِنَا المُخْتَلِفَة

And nothing else matters

وَلَا شَيء بَعْدَ ذَلِكَ يَهُم

رغم ظُلمت الليل البهيم، غير أنها لاحت مُشعة تحت بدر السماء... تنظر في ثقة نحو من تبحث ومن تنتظر...

Never cared for what they do

دَائِمًا لَا أَهْتَمُّ لِمَا يَقُومُونَ بِه

Never cared for what they know

دَائِمًا لَا أَهْتَمُّ لِمَا يَعْلَمُونَه

But I know

لَكِنِّي أَعْلَم

ومع صياح جيمس هيتفيلد بحنجرته الرخيمة... صاح سفيان، الذي لا تفصله عن الجسد الواقف وسط الطريق إلا أمتارا قليلة... ضغط بكل ثقل على منبه السيارة ومكابحها... لكنه قد اقترب أكثر من اللازم... عقف وأدار في حركة تلقائية مقود السيارة لتدور، في لمحة عين، بزاوية حادة

انزلقت معها نحو الجثة الحية الواقفة التي لم تبرح مكانها وسط الطريق... ولم تقم بأي ردة فعل تُذكر...

كمن تحاول الانتحار بكل رضى، لترمي نفسها أمام سيارة مسرعة.

هناك... والسيارة منزلقة بحِدَّة... وعلى سرعتها... تلاقت عيناهما... وقعت مُقلتا سارة على مقلتيها اللتين غدتا بارزتين الآن... كانتا سوداوين لا يجد البياض مناصا لمزاحمة الحلكة القاتمة... لا شيء سوى السواد الغارق في المجهول.

لكنها لم تفزع... بل قد تناسى وعيها أنهم على شفا حادث مُروع... شَعَرت بحنين غريب يلتف بين جنبات فؤادها...

لم تعد تسمع صرخات من معها... لم تعد تشعر بمن معها... ولم تعد تكترث للسيارة وانقلابها... ظلت مأسورة بعينيها... بل غرقت بسوادهما القاتم كليل بهيم... كصريم حالك لا تجد النجوم ولا القمر مكانا ببحره الأسود، بحر لجي إن أخرج أحدهم يده لم يكد يراها!

– لقد جاءت من بعيد... جاءت من أجلك... لقد انْتَظَرَتْكِ طويلا.

ذاك ما خاطبها به كيانها... كانت رسالة من فؤاد آخر... وضعت يديها على صدرها تتحسس قلبها... أحست بفراغ تجسدت سطوته بين أضلعها... لا شيء بين ثناياها ولا نبض... أ انتقلت إلى عالم البرزخ؟...

لا تدري!...

ثم انبعث ضياء غامض بكيانها... رأته، نعم رأته وأحست به، ثم ما فتئ أن انفلق إلى نصفين فتراءى لها قلبها النابض وقد جاوره قلب آخر... فؤاد بدأت تحس بدبيب نبضه المتناغم مع فؤادها... فؤاد كان بداخلها لكنها لم تكن تملكه!

بدأ سواد عيني المرأة المتوهجة يقترب نحوها شيئا فشيئا حتى احتل كل مرآها... ثم تدفقت سيول التيه المُظلم تترا... لينجلي بعده كل شيء... صماء بكماء تلك المساحة التي زُجت بها!

قلبت عينيها حولها تحاول أن تمسك قبسا من نور... لا شيء سوى الظلمة الصماء!

ثم تتابعت الصور أمامها...

جيش من المقاتلين يلبسون تروسا ودروعا حديدية يَتَوَسَّطُهَا صليب أرزق، يغرسون رماحهم بأجساد فلاحين عُزَّل...

مجموعة لا تتجاوز عشرة أشخاص أو أقل يتحسسون شِعَابًا بين التلال، أعينهم مرعوبة تلتفتُ يمنة ويسرة كأن وحشا يُطاردهم من بعيد...

سفينة عتيقة ترتطم مع أخرى أضخم، ثم مجموعة من الملثمين يقفزون منها نحو الضخمة وهم يكبرون...

ثم رأتها...

رأتها وقد جزت رأس أحدهم بسيف حاد، لتتقاذف الدماء صوب وجهها، وتطلق ضحكة أَصَمَّتْ أذني سارة...

ثم وجهت نظرها نحو سارة... سرت قشعريرة شوق لم تفهم مغزاها، ثم شعور متضارب بين الحنين والنكران...

بين الخوف والرجاء...

بين الحبور والقرح...

ثم غرقت مرة ثانية وسط تلك العيون السوداء... لتلامس مرة أخرى حلكة الظلام الصامتة.

بعد حين بدأت تدرك بضعة أصوات هنا وهناك، كانت متناغمة مع خرير مياه نهر قريب... كانت الكلمات غير مفهومة لكنها واضحة... كلمات أمازيغية أحاطت بالسيارة المُنقلبة... فتحت عينيها بصعوبة ثم أغلقتهما مستسلمة للتخدير الطبيعي المُفرز من جسمٍ غزاه الألم... لكن صوتا لم يُرد أن يخفُت...

صوت عميق كهمس الكاهن... كان يردد اسما لطالما سمعت به...

اسم صَاحَبَه الغموض...

اسم يقذف بقلوب كثير من المغاربة رعبا مجهولا غريبا موروثا لأجيال...

كان الصوت يردد بلا كلل:

عـــــايـــــشـــــه قـــــنـــــديـــــشـــــه

من أنا ؟

شخص ما يخاطبني...

صوت بعيد قادم من خلف الظلام...

مِنْ هناك... من خلف اللاشيء... إنه يخاطبني أنا... ويتغلغل بأنامله بين ثنايا روحي.

أسمع حروفه وكلماته بوضوح... فرغم بُعده كانت زفراته تداعب أوتار أحاسيسي، وتعزف سمفونية سرمدية تأخذ بتلابيب أفكاري.

أسمعها جيدا... أتنفسها جيدا... وأستطعم حنان حروفها.

نعم... إنها تخاطبني أنا... ترسل لي حنانها مع مناداتها لي...

تناديني أنا... فمن غيري هي المقصودة بهذا الدفء الأخاذ...؟!

لكن الاسم ليس اسمي... ومن يُبالي فهي تناديني أنا... "أنا» ذات الثقل النرجسي الذي يحمله طفل رضيع في دفع كل مقترب من ثديي أمه!... ذاك الشعور الأناني بالتملك الذي يخالج صغيرا قد أتت أمه بطفل جديد، فينتفض معلنا حربا خالدة ليظفر بأمه له وحده!

تضاربت أَحَاج عديدة وطلاسم فريدة بعصبونات رأسي الضرير بين دروب التيه وأزقة ضباب الفهم... لكن دون حل لما يحدث لي... كل شيء من حولي قد تبدل... هذا منزلي... نعم بل وأنا بغرفتي الآن... أعلم هذا وأعيه جيدا... لكن ليس الأثاث أثاثي، ولا الجدران هي التي كانت قد حَوَتني.

فما كانت الكلمات المتزاحمة بين عتبات الفكر تنقضي... والأفكار الجاثمة على صدور الفهم تنجلي، حتى انطلقت رجلاي بالعدو فرحا لِلُقْيا حَبِيبٍ طال غيابه... تتحرك دون أمر مني ولا سيالة عصبية تُحفزها... خَفَضْتُ رأسي باحثة بين قدمي عن جهاز يدفعني أو يقودني... لكن لم يكن هناك شيء.

إنهما تجريان بذاتهما، ربما قد سببت الحادثة هلوسات بدأت تأخذ بعقلي!

لا... أنا لا أُهَلوس... وهاته قدماي تجري على غير هدى ولا سبيل بيِّن... إنها القدم تلامس الأرض لترفعها فجأة مرة أخرى...

تقفز... تنط... تدفع جسمي للدوران... كأنني طفلة صغيرة...

بل أنا كذلك... أنا طفلة صغيرة... طفلة لم تبلغ الحلم!

لم يحتمل عقلي وقع ذلك... أُحِسُّ كطفلة... قلبي يدق كطفلة... وهاته الأطراف الخَدَلّجَة[1]... قهقهاتي المتتالية وضحكاتي... كل هذا ليس إلا لطفلة بالسادسة أو السابعة على أقصى تقدير.

لا أستطيع كبح جسمي المندفع كسيل جارف انطلق مع فتح أبواب أكبر سد بالكرة الأرضية... سيل جارف لنهر اليانغتسي الصيني نتج عن تهشيم سد الممرات الثلاث!

تابعت رجلاي العدو دون بصيرة... نزلت من السلالم الخشبية التي طالما انزلقت بها!

طالما؟!... سلالم خشبية؟!... هاته الأدراج المهترئة لم تكن بمنزلنا قط!

---

(1) في لسان العرب: الخَدَلَّجَة بتشديد اللام، الممتلئة الذراعين والساقين.

وفجأة ظهر رجل جَهْضم[1] حَوْشب[2] بِرْطام[3]، تظهر شفتاه من خلف شاربه ولحيته الضخمة... إني أتجه نحوه... أريد أن أرتمي بحضنه.

حاولت أن أكبح نفسي عن هذا العته... عن رمي نفسي في حضن هذا البدوي العَطِن!... تبا لهذا الجسد الفاني، خدمته لعقدين من الزمن لكنه الآن يتنكر إلي... لا يريد أن يُنصت لسيالاتي العصبية وأوامر عصبوناتي الفكرية.

عانقته... نعم عانقته... لكن!

ما ذاك الإحساس الغريب الذي سرى بين مفاصلي وسلاماي؟

ما نسمة الحنان تلك التي سرت بين نواجدي وشراييني؟

إنه مقزز شيئا ما... لكنني في رضى!...

كيف؟

لا أعرف... لكنني راضية... راضية كل الرضى رغم آثار لعابه المقزز المتروك على جبهتي من قبلته تلك.

قبلني... وأردت أن يعيدها!...

لا... لا تعيدها... صراع بين فؤادين...

الأول لي... والثاني قد نبت من العدم بين ضلوعي الدقيقة.

مسح بيديه الخشنتين على رأسي... كانتا ناعمتين. يداه ناعمتان... رغم خشونتهما.

تحركت شفتاي دون علمي لترسما ابتسامة بريئة زاحمت وجنتَي البارزتين...

---

(1) في لسان العرب: الجَهْضَمُ الضَّخْمُ الجنبين.

(2) في المعجم الوسيط: العظيم البطن المنتفخ الجنبين.

(3) في لسان العرب: البِرْطامُ والبُراطِمُ الرجل الضَّخْم الشَّفَة وشَفةٌ بِرْطام.

انتظر!... فذاك ليس بوجهي ولا ملامحي!

ماذا بك يا سارة؟

ما جرى لك؟

كانت آخر صورة لي قبل هذا العته والتيه سيارة سفيان... نعم الحادثة... وهي... هي...

أعاد ذاك الرجل مسح رأسي لينكمش عنقي... بدأ ينفش شعري في حركة سريعة مما غاضني... أردت البوح بمرادي، فتحركت شفتاي... نعم تحركت شفتاي تحت إمرتي، وانقيادا لطلبي: أن توقف...

- توقف... توقف

يااااااااه... كم اشتقت لك يا جسمي... كم اشتقت أن تطيعني وتذهب وفق مرادي...

- توقف...يا أبي... لقد أفسدت تسريحة شعري.

أبي؟!... أبو مَنْ أيتها الخرقاء اللعينة... من هذا الذي تنعتينه أبي؟!

ثم تفلت مني مرة أخرى هذا الجسد اللعين... بدأ رأسي في الالتفات يمنة ويسرة... عن ماذا أبحث؟ وماذا أريد؟ لقد أصبح جسمي يفكر ويقرر دون الرجوع إلي!

يا لهذا الجسد التعيس!... كم تَعْيَا بخدمته فيخونك بعد أول حادثة...

حادثة!... لقد نسيتها مرة أخرى... لقد كنت مرمية وسط السيارة... كان صوت النهر المتدفق يعبث بطبلة أذني، وأصوات أبناء المنطقة تتسلل لباحة عقلي السمعية... اللعنة لماذا لم نُلَقَّن اللغة الأمازيغية بصغرنا!

ابتسم المدعو أبي في مكر... ثم أرسل كلماته من خلف شفتيه الضخمتين:

- عن ماذا تبحثين أيتها القطة الصغير.

قطة من يا...؟

ثم وقف أمامي ليخفي أشعة شفق المساء الحمراء المنبعثة من وراء فتحة أشبه بالباب... ثم التف ليأخذ بين يديه كيسا عتيقا كستنائي اللون... بحث قليلا وسطه ليخرج دُمية مهترئة تشبه عرائس السبعينات القطنية التي فقدت ملامحها قبل خياطتها... كانت العروس رمادية اللون تلبس فستانا غجريا أحمر، وشعر أسود قد فُتِل كضفائر.

ما أقبحها من عروس!... أتذكر دمية باربي الفاتنة خاصتي وأنا طفلة... بل مجموعة عرائس باربي تملأ غرفتي الوردية بهجة و...

لا... لا يمكن!... لقد أمسَكَتْها يداي وانطلقَتْ قدماي تديرني عن غير وعي فَرِحة مسرورة بدمية بشعة لا ملامح لها... لقد أخذت في الدوران حاملة أذرعي الممسكة بالعروس نحو السقف الخشبي!

لقد ابتسم المدعو أبي في رضى...

ثم متى كانت تقف هي بجانبه؟... نعم تلك الأنثى البشوش... لم أرها من قبل... لكنها الآن قد اقتحمت مجال رؤيتي بغير إحِم ولا دَسْتُور!

اللعنة لقد أُصبت بالدوار... متى ستقف هاته الشيطانة الصغيرة عن الدوران... قلبي وعقلي لا يحتملان... أعدت رمي عيني اتجاه المرأة التي ترمقني بابتسامة دافئة... هي من كانت تناديني سابقا... نعم أشعر بذلك وأحس بدفء خاص يجتاح فؤادي...

أي فؤاد؟!

لا يهم... لكنها دفعتني للابتسام... دفعت فؤادي إلى الرقص طربا من سمفونية حنان خالدة... لم تتدرج بمقامات الهوى والحب، بل زُرعت

بأعلى مدارج المحبين... سمفونية عُزفت منذ الأزل... منذ أول طفل قد رأى النور... منذ أول صرخة قد سُمعت من طَلْق حواء... سمفونية عزف أولى نوتاتها قابيل بن حواء وآدم عليهما السلام.

أراها تستعد أن تحدثني... وها هي شفتاها الورديتين قد فُتحت لترسم لوحة سرمدية على وجه الحنان:

- كفاك دوران يا ابنتي... كفاك يا عائشة!

بل سارة يا أمي... سارة...

أمي؟... كيف للفؤاد ألا يعرف مهجته وقرة عينه؟

بل هاته ليست أمي وأنا لست عائشة!...

لقد تدفقت على كينونتي مرة أخرى تلك السيول الجارفة التي لا تبقي ولا تذر... سيول مسحت ذاك اللهيب الساخن من الشوق للشخصين الواقفين أمامي... لتخُطَّ بين عيني سؤالا وحيدا:

- من أنا؟

سارة... عائشة... من أنا؟... أين أنا؟... ومن هؤلاء؟...

ثم بدأت أسمع صوتها مرة أخرى... ذاك الهمس المصاحب لتسلط الظلام على هيبة الضياء... ذاك الصوت الرخيم من خلف الظلام الغامض... لكن هذه المرة أدركت أنني أسمع صوت امرأة... صوت نسائي حزين وعميق... كنت أسمع ذاك الاسم المُرعب مرة أخرى:

عـــــايـــــشــــــه قـــــنـــــديـــــشـــــه

حاولت الصراخ... لكن جاثوما لعينا قد سد حُنجرتي وقَطَّع حبالي الصوتية... حاولت الصراخ لعلي أخرج من هذا الظلام البهيم... كابدت وكابدت... لأرغم أخيرا ظلام التيه أن انجلي وقلص أناملك الشائكة...

ثم بدأت أرى انبعاث أولى خيوط الضياء الرفيعة... لتعطي لجفنيَّ سيالة أمل في التحكم بهما... بدأت أحركهما يمنة ويسرة...

لكن الصوت لم يخبُ ولم ينجلِ... ظل وفيًّا لإيقاعه الرتيب... ولصبيب كلماته الحزينة والمُرعبة... ظل يردد بدون كلل:

عـــايــــشـــــه قـــــنــــديـــــشــــه

عـــايــــشـــــه قـــــنــــديـــــشــــه

لقد ماتوا

– 1 –

أناس بيض يُشع البياض من حولهم... يتراقصون هنا وهناك، كفراشات تتنافس على جَنْي طلع زهرة متوجة... رقص عجيب رغم عدم تناغم أركانه، وعدم تمازج حركاته... لكن ذاك لم يكن كافيا لإغواء عينيها على البقاء مفتوحتين مُستقبلة بياض المكان وشعاعه المُريح... فأسلمت جفنيها لسطو الظلام القاتم مرة أخرى... بعدما أحست براحة قد أسدلت أناملها على فؤادها المتشنج.

كانت أصوات التهامس العالي تَضج المكان... حركة غير طبيعية قد أعطت لكل مار فُضول التطلع لمعرفة الحدث وسط تلك الغرفة الضيقة الأنيقة التي تَنْفُثُ ريحَ الكحول الإيثيلي المميز... تتركز الحركة أساسا حول سرير أبيض قد ضم بلُبه جسما عليلا ساكنا لا تظهر عليه أمارة حياة، ستحسبه ميتا تُحاكي روحه عالم البرزخ... غير أنك سرعان ما ستدرك أنه يتنفس، وأن قلبه يدق... مجموعة من الأسلاك الكهربية والأنابيب المطاطية المتصلة به، تُرسل إشاراتها للأجهزة المعقدة التي تحيط بالجسد العليل... تقول في تأكيد جازم أن الروح لا تزال مُعلقة بعالم الأجساد، ومعلولة بجسمها المادي الفاني.

– لقد سمعتُ صراخها... جِئت مُسرعة لأجدها تهتز كأن الجن قد صرعها.

ثم تَفِلَت الممرضة على صدرها خلف قميصها الأبيض طردا لسوء الطالع، وحفظا لها من كل مارد وعفريت!... لكن تَفَلَها ورعبها لم يدفعها للصمت بل تابعت كلماتها في سياق متتابع كأن حروفها تتلاحق مسرعة عسى أن تنجو من لسان الثرثرة النسائية.

حْدِيث النساء يْوَنَّسْ ويعلم الفهامة   يعملوا قلادة من الريح ويحلقوا الك بلاماء

ذاك ما حكى عنهن فيلسوف السياحة والحكمة المغربي عبد الرحمن المجدوب...

ربما قد لاقى هاته الثرثارة يوما، فألهمته فيما صاغ لسانه من ذمِّ غالب النساء!

- كانت عيناها مفتوحتين... حاولت إمساكها وتهدئتها، إلا أنها لم تسكُن... اضطررت على إثر ذاك إلى تخديرها بالباربيتورات[1] قصيرة التأثير... وربطها بمصل للسوائل الوريدية.

كان الطبيب المُكلف بالحالة يُنصت لسرد الممرضة الرشيقة... رشاقة لم تكن لها يد في اختيارها... فهُزالها يُحيل على قلة ذات اليد ولا شأن له برشاقة عارضات الأزياء، والممثلات اللاتي يتصارعن حول امتلاك الجسم الأكثر تناسقا!

قبل إتمامها سيل الكلمات الجارفة التي انفتق سَدُّها فما عاد اللسان يلملم شتاتها، اتجه الدكتور عبد الكريم بن جلون نحو الآلات الرابضة من حولها والمُواربة لحائط الغرفة الأبيض...

---

(1) الباربتيورات هي: عبارة عن أدوية مثبطة للجهاز العصبي المركزي، لذلك تقوم بإنتاج مفعول واسع المدى، من مهدئ خفيف المفعول الى مخدر كامل. كذلك هي أدوية مضادة للقلق، منومة، ومضادة للتشنجات. (موقع ويكيبيديا)

أخرج قلمه من جيب سترته ثم أطلق لجام أنامله في خط ما أملت عليه المؤشرات والمنحنيات الطبية المُشعة من شاشات الماكينات الطبية.

إنها ابنة صديقه... لِذا كان يبدي اهتماما خاصا بحالتها... كما اختار جناحا خاصا لها... وهيأ غرفة لها خاصة... غرفة للأشخاص الأكثر أهمية (VIP)... كما كان سببا في رضوخ الأب المكلوم لتظل سارة بهذه المستشفى الحكومي!

- إنها الناجية الوحيدة من حادثة تزنيت البارحة!

حدثت الممرضة الثرثارة وراء باب الغرفة إحدى زميلاتها التي امتلأت فضولا حول الحالة التي يهتم بها الدكتور عبد الكريم بن جلون بنفسه!

تابعت الممرضة في الحديث بصوت خافت كي لا تصل حروفها لمسمع الدكتور الواقف بجانب السرير:

- ظَاهْرة بنت حسب ونسب... أو بنت شي وزير أو مستشار مهم... وسبحان الله كالجنية، لم تُخدش ولم تُصب بسوء ظاهر!

- عَنْدْهَا الزَّهَر تِهَرَّس الحجر!

- لقد مات كل من كان معها... لا يزالون صغارا!

- مْسَاكْن... باز لِوالديهم!

- وهي نائمة منذ ذاك الحين ولا يُعرف السبب... حتى مؤشراتها الطبية جيدة.

بلعت الممرضتان لسانيهما عند إحساسهما بتحرك الباب... تابع الدكتور ابن جلون سيره قائلا للممرضة المشرفة:

- انتبهي للمصل المغذي فقد قارب على الانتهاء... وأبدلي الأغطية بأخرى جديدة.

نبست الممرضتان بإيجاب يحمل أسمى عبارات التبجيل والتنويه خوفا ورهبا من الدكتور الحازم الصارم ابن جلون.

- 2 -

كانت سيارة الرانج روفر السوداء تشق طريقها عبر شارع المومن بأغادير... فتح رجال الأمن البوابات الضخمة لها دون سؤال واستفسار حول ماهية راكبيها... اتجهت لمكان شاغر بمرأب السيارات، ليترجل منها رجل خمسيني أنيق الملبس، أمرد الوجه... قد تنافست تجاعيده لتجد مكانا بجبهته العريضة... تقاسيمه الصارمة تضفي على قساوته زخما دالا على حياة سالفة قاسية... كما أن عنقه المشرئب بحمرة يدل على تعاطيه المُسرف للخمر!

ثم ترجلت بعده امرأة أكثر نضارة وبهاء... كانت مليحة المنظر رغم عمرها الذي قارب الخمسين... وضعت حجابا أنيقا أصفر يغطي شعرها على استحياء! فقد أظهر خصلات شعر ناصيتها العسلي البراق... خالطت انحناءاته المميزة رونق عينيها البنيتين لتختلط بمقلتيك يا صاح معاني الجمال والفتنة... لكنها لم تكف عن إرسال سهام فتنها بعد، فقد رَسَمَت شفتاها بريقا مميزا، إذ زادها مكياج الشفاه الشفاف والحدود المرسومة بدقة بقلم وردي، فتنة وبريقا!

كان حجابها الأصفر يرخي أطرافه على جاكيت جلدي أسود تتوسطه قلادة من الذهب الأبيض تتبارى مع مقلتيها: أيهما سيُشع أكثر من وراء

بهيمية سواد الكحل وسواد الملبس! تسلل هذا السواد إلى تنورتها ليُكسر سطو اللون الأصفر الراسم لزهور متناثرة هنا وهناك... فتمازج غموض الأسود مع دفء الأصفر، وأرسل، يا صاح، أحاسيسا متضاربة نحو فؤادك.

وضعت يداها بحقيبتها التي تحاكي ألوان ملابسها، ثم أخرجت نظارة بنية مزينة ووضعتها على أنفها الدقيق لتخفى انسلال احمرار البكاء لمقلتيها...

نعيمة حسون... حروف كافية لتحدث فرقا عند كل سامع... مقدمة أشهر برنامج اجتماعي بالتلفزة المغربية... وجه مشهور اعتاد المغاربة عليه ورسموا بريشته لوحات عنوانها الحنان والرفق الذي كان يغلف كلماتها الرنانة مع كل حالة وقضية مطروحة.

تبعت الإعلامية المغربية زوجها نعمان الصنباطي نحو مدخل المشفى... كانت خطاها سريعة ومتزنة... لترسل كلماتها المعاتبة بعد حين نحو زوجها الذي بات يمشي خلفها:

- يجب أن تنقل سارة لمشفى خاص... ألا تلقي بالا لحال ابنتك الوحيدة؟

كان الصنباطي رجلا ربعه قمحي اللون، قد برزت بطنه بين صدره الضيق ورجليه المتوسطتين طولا... كرش بارزة... دليل آخر على تضلعه في الشرب!

- إنها تعامل معاملة خاصة هنا... ولا تنسي أن صديقي الدكتور عبد الكريم بن جلون هو الذي يشرف على حالتها شخصيا... لن تجدي أكفأ منه بالمغرب كله!

ما كادت الإعلامية تطأ بحذائها الأسود ذي الكعب العالي أرضية فُسحة المشفى حتى اندفعت نحوها جموع المُمرضات...

- السلام لالة... والله تا عزيزة عليا بزاف.
- تبارك الله عليك لالة نعيمة... تا تعجبيني... الله يحفظك ويعزك.
- واو... ما متايقاش راسي... لالة نعيمة عندنا... زارتنا البركة.
- راه واضعين لالة سارة ابنتك في عينينا... ملي عرفتها عزَّات عليا بزاف.

كانت الأفواه ترسل حروفا مختلطة تعجز الأذهان عن فك طلاسمها... كلمات تتقاطر كزخات رعدية تفسد تركيز السوي... أرسلت الإعلامية ابتسامة صامتة نحو الممرضات الثلاثة اللائي حجبن مكتب الإرشادات عن مجال بصرها... كان تملقهن واضحا، لكنه يمتزج بذاك العته الذي يصيبك عند رؤية كل من طلعت تقاسيمه بـ «صندوق العجب» كما كان المغاربة يسمون تلفازهم الخشبي!

ذاك العته اللاواعي الذي يدفعك للتصرف على غير هواك... عيناك المتتبعتان للتَّلْفَزِي، وابتسامتك الساذجة التي لا تحمل معنى سوى العبط... ثم بريق يكسو شبكية عينيك كمن وجد قطعة ذهبية وسط مسحوق بونيكس، أو مقود دراجة نارية خلف المطاط الأبيض الجاثم على قعر غطاء كوكاكولا!

- لالة... سيدي... من هنا!

أشارت ممرضة نحيفة وسط النساء المجتمعات حول البرجوازِيَيْن بأن يتبعاها نحو ممر ضيق قد عُلقت على حافته العليا: العناية المركزة (القسم الخاص).

ثرثرت الممرضة كثيرا وهي تطوي الممر مع إعلاميتها المفضلة التي لم تُنْبِت شفتها كلمة ولا حرفا... كانت تحدثها عن قصتها مع زوجها

المدمن على الخمر وكيف تركها بدون نفقة فتحملت العيال وحدها، حدثتها عن إدمانه للميسر أيضا، كان شَرِهًا نحو لعب الحظ والتيرسي حتى باع كل شيء... طلبت منها أن تستضيف حالتها الاجتماعية فهناك:

– شْلاَّ (كَثِيرًا) ما يتعاود... غير خليها على مولانا وصافي!

أشارت نعيمة بإيماءة خفيفة من رأسها لتبدي أنها تبادل مشاعر وأحاسيس الممرضة، حتى أوصلتهما للدكتور المختص.

– دكتور عبد الكريم... كيف حالك؟

كانت تلك أولى كلمات الصنباطي منذ ولوجه لردهات المشفى... صافح صديقه الذي حافظ على رشاقته وصفاء وجهه عكسه تماما.

- Madame... ça va?[1]

– Oui... الحمد لله

صافح ابن جلون زوجة صديقه ثم أضاف:

- y'a rien à craindre... L'état de mademoiselle Sara est stable.[2]

ثم ابتسم مضيفا:

– لقد فتحت عينيها قبل قليل.

أشار للزوجين نحو غرفة موصدة تقبع في آخر الممر العطن برائحة الكحول الإيثيلي!

– لقد استفاقت من غيبوبتها الآن... Merci au dieu... دماغها لم

---

(1) سيدتي... كيف الحال؟

(2) ليس هناك داع للخوف، فحالة الآنسة سارة مستقرة.

يصب بأذى وغيبوبتها لم تؤثر في وظائف جسمها الحيوية... وعظامها لم تتأثر بالحادثة... لقد شملتها الرحمة الإلهية.

- Monsieur Benjelloune... هل تستطيع سارة مرافقتنا اليوم للمنزل؟

سألت الأم الأسيفة وهي تكافح دموعها التي تراصت بين جنبات مقلتيها تتحين الهجوم، وتضع أولى خطواتها على عتبات الجفون.

- Espérons ![1]

أجاب الدكتور بن جلون وهو يفتح الباب الخشبي الأبيض ليلج الأبوان غرفة سارة الطبية...

صامتة... هادئة... تثبت نظرها نحو زجاج النافذة الذي يرسم تقاسيمها باستحياء... كانت سارة على غير عادتها المرحة... هائمة الرؤية... حالمة الإدراك... كانت كجذع نخلة خاو تلعب به أعاصير الزمان!

لم تكن ترى تقاسيمها التي نُحتت على الزجاج الصلد... بل كانت خيول أفكارها قد ركضت بسهول الشرود، مبتعدة عن إسطبل واقعها... كانت تمتطيها وهي ترسل شعرها العسلي ليلامس سرج بنات الريح... مبتسمة في نشوة نصر قريب... لقد جزت رأس صليبي آخر!

- لا بأس بُنيتي.

انتشر إحساس دافئ بين سهل تيهها ليكسوه لون شفقي سرت حرارة حنانه بين أضلعها، ليعم سلاماها وأوردتها جميعا... لقد انتظرت ذاك الصوت الحنون والدفء العطوف... لقد اشتاقت لحضن أمها.

أخرجتها كلمات أمها التي كانت تضم ابنتها وهي تذرف دموع الوله...

---

(1) نرجو ذلك.

لترسل سارة عبراتها وتفتح صدرها معانقة أمها الأسيفة!... ثم أرسلت الأم قبلاتها نحو كل موضع طالته شفتاها، ثم عانقتها من جديد... وهكذا تباعا كثكلى دفنت وحيدها لتجده بعد ذلك واقفا ينبض بالحياة أمامها!

- سي عبد الكريم... أيمكننا أن نقوم بإجراءات الخروج؟

أماء الدكتور إيجابا برأسه، ثم أمسك بذراع صديقه ليخرجا من الغرفة...

كانت دموع سارة حارة تملأها أحاسيس متضاربة... عبرات احتاجت إليها... حادث ومستشفى وأصدقاء لا تعرف مصيرهم حتى الآن...

لقد وارب التيه الذي عاشته قلقها على رفاقها... مسحت سارة عبراتها ثم قالت بكلمات متقطعة:

- كيف حال سفيان... ميساء... زيد... حسناء... هل خرجوا أم مازالوا بالمشفى؟

لكن الأم لم تجب... سكتت وفي صمتها حمولة أسى وحزن أبلغ من أي جمل أو عبارات... جحظت عينا البنت من محجريهما... لتتقاطر الدموع مرة أخرى على جفنيها الورديين... لم تنبس ببنت شفة... لم تقل شيئا... غير كفها الذي اتجه نحو قلبها يتحسسه... ثم قبضت على ملابسها وحنت رأسها لترسل صرخة أسى، تتابع بعدها عويل وبكاء سقى جدران المكان بماء الأسى!

مبتدع

- 1 -

- كما تعلمون فالأشاعرة والماتردية قوم ضلوا، فغالوا في التأويل... حتى أنهم وصفوا الله بما لا يليق في حقه سبحانه... لقد أولوا الاستواء بالاستيلاء حاشاه تعالى عما يصفون!... والأشاعرة، على قول شيخ الإسلام بن تيمية إنهم أقرب الجماعات لأهل السنة، غير أنهم بهذا الزمان قد زادوا في ضلالهم وَعَيِّهم... حتى أنهم باتوا يدينون بعقيدة المعتزلة والمرجئة...

كان الشيخ عبد اللطيف العماري يُلقي درسه بجمعية طريق السلف التي يترأسها... كان الدرس العقدي المُعنون، صَحِّح عقيدتك، قد شارف على الانتهاء... استغل مراد حبابي وقتا مستقطعا بين الدرس والأسئلة ليخط بورقته سؤالا للشيخ الذي أسر قلبه وكيانه... كانت كلماته قليلة لكنها تفيض محبة:

شيخنا الفاضل... إني أحبكم في الله... لقد كنتم منارة أضاءت طريق غيي وأرشدتني من ضلالي... أريد فقط أن أسأل فضيلتكم حول الانتخابات، وهل لي إباحة في المشاركة بها؟... وجزاكم الله خيرا!

ضَوَّر ورقته مرتين ثم مدها لأحد الإخوة أمامه... وبطريقة متتابعة مدها هو الآخر للذي أمامه حتى وجدت مكانها بين مجموع الأسئلة الورقية المطوية بجانب الشيخ.

- نعرج على الأسئلة.

كان الشيخ عبد اللطيف مبتسم الطلعة كثيف شعر الوجه... أبهق يختفي شعره تحت قلنسوة ماليزية مُنمقة... كانت نضارته تأسر كثيرا ممن أحبوه وأدمنوا محاضراته ودروسه... لم يُرَ قط لابسا بنطلونا، إلا جلابيب مغربية... أو قميصا مشرقي مع ندرة في ذلك... كما أن صوته الجهوري وطريقته الخطابية جعلته ذائع الصيت، خاصة بعدما فتحت له قنوات فضائية مشرقية أذرعها ليصبح وجها عَلَما بالساحة الدعوية والعلمية... التقط الشيخ ورقة قريبة جانبه... فتحها وقرأها بسرعة قبل أن يبادر الإجابة:

- أحبك الله الذي أحببتني فيه... نعم إسبال الثياب محرم والحديث واضح... لقد طُرِح هذا السؤال مرارا وتكرارا، فلماذا تُعيدونه؟

أتبعه ببضع أسئلة واستفسارات عقدية...

- لن أتمكن من إتمام الأسئلة كلها... إلى الدرس القادم بسلسلة الدروس العقدية... سبحانك الله وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك.

نهض الشيخ الخمسيني ماشيا بتثاقل نحو باب خلفي كي يتجنب تجمع المحبين الطامحين لمصافحته.

ظل مراد جالسا ينتظر أن تسري الجموع إلى وجهتها ويخفت زخم الزحام... كان يقلب بهاتفه الذكي الذي سجل به المحاضرة صوتيا... ثم أخرج سماعات ثبتها بأذنيه، وشغل المحاضرة ليتلذذ بكلام الشيخ مرة أخرى... ثم ترجل ماشيا بسكون نحو منزله بحي المسعودية الشعبي بعدما انْفَضَّ أغلب الحاضرين...

طريق طويل ينتظره... لكن عصبوناته الفكرية كانت بعالم آخر... عالم ذاق حلاوته مؤخرا عندما لامس فؤاده طريق الهداية وأنزل جبينه

لأول مرة نحو سجادة مسجد الحي... حلاوة الإيمان لا تسمو فوقها حلاوة!... خاصة بعد مداعبة صوت سي الحسين الندي خلايا قلبه...

أي فرح ذاك الذي عانقه آنذاك!

كان يطوي شارع الداخلة دون ملل أو تعب... ليعرج بعد ميل أو ميلين عبر زنقة واسعة لشارع الحارتي، أو شارع الشجر كما يحلو للبيضاويين تسميته...

ولج الزنقة التي يقطن بها... وما إن اقترب من منزله حتى فاجأه صوت قادم من شوكة الدرب:

- وا السلام عليكم... صافي أَرْخَيْتَ لحيتك فهجرت أقرانك!

التفت نحو الصوت المألوف، ابتسم ثم اتجه نحو الشخص الذي كان يمسك سيجارةً مُعدَّلة ممزوجة مع بعض الحشيش، صافحه على مضض فالشيخ أشار لهم أن يرفقوا بالعامة!...

متى أصبح مراد من الخاصة؟

لا أعلم؟... لكنه ربما أبرم عقد المنزلة الخاصة فور لبسه القميص الحجازي القصير وإظهار بعد خصلات لحيته!

تحدث معه قليلا حول الهداية وحرمة التدخين... طأطأ الرجل رأسه محدثا نفسه ألا يسلم عليه مرة أخرى... فهو لا يريد أن يجد والدا آخر خارج البيت.

بعد دقائق قليلة تركه وأكمل مسيره... لم تكن هي إلا بضع خطوات حتى استقل أدراج المنزل نحو شقتهم الضيقة... ولج ليجد أخته وصديقتها تهيما طربا بآخر أغنيات مجموعة الفناير...

كن فائزا (be winner)... دويتو المجموعة مع المغنية المغربية سميرة

بن سعيد، والتي انتشرتْ هاته الأيام بين المراهقين والشباب العربي...

ابتسم في شفقة نحو أخته، ثم اتجه إلى غرفته وأطرق الباب عليه!

- مَا عَارفْه فين بَاغي يَوْصَل ذاك بني آدم... اسْحَب لو راسو هُوَ لي مُومَن في هذه الدنيا.

همست أخته لصديقتها وهي ترسل ابتسامة ساخرة...

ثم خرجت امرأة من غرفة قابعة في قاع الشقة متجهة نحو الفتاتين المراهقتين... تلك الغرفة التي ستعي تماما أنها المطبخ بعد أن تزكم أنفك رائحة التوابل المنبعثة من الأم وهي تقف أمام ابنتها...

أم قد دَقَّتْ سنوات كدها فأوصلتها إلى عتبات الخمسين... وأي كَدٍّ يُوزَن ويُقدر لِزَوجة قد جمعت بين الإخلاص في عملها والقيام بمستحقات بيتها!

- ألا تحشمين؟!... نهار كامل أو هذا الشْقَفْ خدام على جَهْدُو.

تحدثت وهي تشير لهاتفها الذكي الذي كانت تتراقص به ألوان فيديو كليب كُنْ فائزًا...

لكن منى أجابت في استنكار:

- لقد كان يملأ المنزل صياحا بسماعه للهارد... ويُلوث المكان بأزيز عزفه على قيثارته المُهترئة.

كان مراد قد تفنن في عزف القيثارة الخشبية ثم الكهربائية... كما أن التحاقه بإحدى مجموعات الهارد المغربية كاد أن يعصف بدراسته، إذ أدمن المهرجانات الغنائية والملتقيات الثقافية... فلولا أن تداركته عناية الله وصرامة والده، ما كان له أن يحقق مجموعا يخول له أن يلج الأقسام التحضيرية للمعاهد الهندسية...

كان آخر ملتحق... آخر اسم لُفظ من لائحة الانتظار!

أصرت الأم أن تخفتَ ابنتها صوت الأغنية، مما أدى بِمُنَى إلى مشاركة صاحبتها سماعات الأذن على مضض، وسماع أغان أخرى لمجموعة الراب المغربية... فانتشر الصمت، غير صوت طنجرة الضغط المحبوبة لكل بيت مغربي، تُصَفِّر كإسعاف مستعجلة.

داعب مراد بغرفته فأرة حاسوبه الشخصي... بضع ضغطات على أزرارها السوداء ثم بدأ الصوت في إرسال اهتزازاته وموجاته:

- الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره (...) صنف الإمام مالك بن انس كتابه الموطأ، قيل له لماذا تصنف فإن غيرك من العلماء قد فعل ذلك. فقال: «ما كان لله فقط فكل له اجتهاده «(...) قال النبي ﷺ «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة «(...) وأيضا عن أقوال الأصحاب والسلف الصالح عن فضل العلم عن ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه قال «كن عالما أو متعلما أو محبا لأهل العلم ولا تكن الرابعة فتهلك «(...) ثم إياك وإياك والإفتاء قبل أن تكون أهلا له.

كان مراد يدون ملاحظاته على دفتر خاص اقتناه لطلب العلم الشرعي... فتحصيله العلمي البحت وتفوقه ونجابته كانتا سببا في سرعة استيعابه للمواد العلمية الشرعية التي كان يقرأها أو يسمعها... لقد زفَّ لوالديه قبل أيام خبر قبوله بمدرسة للمهندسين بالبيضاء، بعد اجتيازه للامتحان الوطني لولوج المعاهد العليا المغربية...

كان ذاك سببا كافيا لإقناع والديه أن التزامه وقراءته للكتب الدينية لم تصده عن دراسته ولم تُؤَدِّ به، كما يتوهم البعض، نحو التَّبَلُّد!... لكن ذاك لم يمنع أبيه عن إبداء اشمئزازه من أصحاب "اللحى والفاقة" كما يسميهم.

- 2 -

أحس مراد ببعض الآلام برأسه... صداع خفيف لكنه خانق، نظر إلا الساعة الجدارية التي تتوسط الحائط المواجه لمكتبه الصغير... الساعة الحادية عشرة... كان يوم الأحد هو يوم العطلة الأسبوعية بالمدارس المغربية، فعكس الدول العربية الأخرى وخاصة المشرقية، التي اختارت الجمعة لراحة مواطنيها، فهنا اختير يوم الأحد، ومن له حظ وافر فله يومان... السبت والأحد وهذا نادر الوقوع ولو رُصِّعت به عقود العمل.

فبعد جهد مضن بأسبوعه الحافل بمدرسة المهندسين وداخليتها... اختار الذهاب لمنزله بنهاية الأسبوع... احتاج للنوم إلى العاشرة لعله ينتشي ريح الراحة... لكنه وما إن بدأ في سبك غمار كتاب الأحكام للقرافي حتى غالبه الصداع وآلام الرأس... القهوة السوداء هي الحل... بل هي الشفاء الإكسيري لتخبط هذا الصداع الرتيب الصباحي بين خلايا مراد وعصبوناته الدماغية... فتح درج مكتبه وقلبه قليلا ليجد قطعته الصفراء... عشرة دراهم كانت كافية لتحقيق مبتغاه.

لبس قميصا حجازيا أزرق، وأحاط حول عنقه بكوفية فلسطينية... وضع صندلا جلديا أسود بقدميه، ثم اتجه لفتح باب شقته الخشبي...

- أين أنت ذاهب يا مراد؟

كان صوت الأم يخترق الآفاق ليقف أمام مراد... كيف رأته وهي منشغلة بالمطبخ كعادتها... خرجت من معبدها قائلة:

- انتظر حتى تتناول الإفطار... فالحساء سيجهز بعد دقائق.

- معذرة أمي... سأتناوله عند عودتي... نصف ساعة وأعود.

ثم تخطى الباب... نزل الدرج واتجه لمقهى الزنبقة... مقهى قد وُضعت لبناتها بأقصى نقطة بشارع وادي الذهب... وجدها فارغة على عروشها كما عهدها دائما... ربما النقطة العمياء من الشارع التي تحتويها هي السبب... أو ربما تلك اللافتة الضخمة التي نصبها صاحب المقهى أمام المكان هي السبب...

كانت تحمل لفظ: التدخين ممنوع...

أو ربما مساجلاته مع المدخنين الذين لم يعبؤوا بها سابقا... أو ربما لماضيه الذي قضاه بين جدران سجن سلا كمعتقل إسلامي بأحداث 16 ماي... كل هذا جائز وارد لكنه يَنْكَبُّ لمصلحة مراد.

جلس على كرسي بمحاذاة الطريق... أراد أن تداعب نسائم الصباح العليلة محياه وتقاسيم وجهه... بعد دقائق قليلة وضع النادل كوبا أبيض... وحدث مراد مبتسما:

- السلام عليكم سي مراد... قهوة نورمال (normal) كما تحب دائما.
- الله يجازيك بخير سي عبد الغني.

أخذ رشفته الأولى مستمتعا بذاك الإحساس الغريب الذي تنفتح معه مسامُّكَ وتتراقص معه خلاياكَ ليترنم الدماغ طربا ويعزف على كمان عصبوناتكَ سمفونية الحياة... بدأ الصداع يخبو شيئا فشيئا، وأسارير محياه تنفرج كتُويجات زهرة ذابلة بدأت تتفتح بغيثٍ ممطرٍ مدرارٍ.

لم يأخذ رشفته الثالثة أو الرابعة حتى تمثل له ظل ضخم حجب عنه النسمات العليلات التي كانت تداعب لحيته القصيرة... كان محمود

الشينوي صديق حيه يقف أمامه، قامة ضخمة يخفي عورتها قميصه الحجازي الأبيض القصير، ولحية ضخمة تتقاطع أطرافها العليا مع شعر رأسه الحليق والمُغطى بقلنسوة مزركشة...

صورةُ سَلَفِّي لا تُخطئه عين.

نهض مراد وعانقه وسَلَّم عليه ثلاثا... لم يَعِ أبدا سر هذا العناق المنتشر بين السلفيين، لكنه فُرِض عليه، رضي بذلك أم لا... كان يعتقد أن مجرد المصافحة كافية، بل وهي أقرب للشرع من ذلك العناق الذي لا يُحيل على الحب أبدا...

فمثلا منذ أسبوع لاقى بعض الإخوة الذين بالغوا في عناقه واحدا بعد الآخر حتى أَنهَكته أذرعهم الضخمة... جلسوا يتحدثون حول بعض المسائل الفقهية... قال لهم في معرض حديثه عن رأيه في المسبحة وأنه لا يرى بدعيتها... أراد أن يأتي لهم ببعض أقوال أهل العلم من السلف والخلف لكنهم أَلْجَموا لسانه بسيل من الاتهامات والتأفف... ليُرخوا ستار تلك الجلسة بالقول ببدعيته وأنه مبتدع محترق، ثم قاموا ولم يعاودوا ملاقاته منذ ذلك الحين... بل كلما لاح لهم من بعيد تجهمت وجوههم وأعرضوا عنه قبل أن يقترب... فما بال ذاك العناق الحار وصدورهم لم تتسع لمخالف في فروع الشريعة.

- السلام عليكم... كيف الحال آ الأخ؟

جلس القادم بكرسي شاغر بطاولة مراد... تتبع بعينيه الضيقتين النادل حتى اقترب ليقول:

- نص - نص عفا خويا.

كانت عيناه ضيقتين ووجهه دائري ولونه أسمر مائل إلى الصُفرة... ذاك سبب نعته بالشينوي (الصيني) منذ صغره. ابتسم محمود واتكأ بذراعه على الطاولة الدائرية السوداء ليهمس قائلا:

- أسمعت رأي العلامة عبد السميع المخرجي في الشيخ عبد اللطيف العماري؟

اشرأب مراد بسمعه وفؤاده... ثم سأل الشينوي:

- خير؟... ماذا قال؟

كان يعي مراد ثقل تجريح المخرجي بالساحة السلفية التقليدية... وذاك سيترتب عليه خصومات جديدة وتصدعات ناتجة وسط القلعة السلفية التي باتت تنقسم على نفسها، كأبناء مولاي إدريس الثاني، كل واحد يريد أن يستأثر بالحكم لنفسه. أخفض الشينوي صوته مرة أخرى كأنه يريد أن ينتقد النظام ويندد حول سياساته الخارجية والداخلية:

- لقد قال إمام الجرح والتعديل بهذا الزمان... الشيخ المخرجي أن العماري مبتدع مُحترق... لديه أفكار إخوانية، والمصيبة أنه ترحم على سيد قطب.

- بل ولو أثنى على سيد رحمه الله... أفي ذلك بأس؟

- خويا... يظهر لي أنك بدأت تزيغ عن منهج السلف... لقد حدثني الأخ نوفل أنك تُجيز استعمال المسبحة.

- مال المسبحة وحديثنا هذا... أخي... لي سؤال... هل ترى رأي العلامة المخرجي في سيد قطب صحيحا؟

- مراد... إنه إمام الجرح والتعديل بزماننا... وسيد قطب قد كَفَّر

حكامنا وخرج عن طاعة ولي الأمر... بل لقد قال الشيخ سليم الفيلالي أن سَيِّد قد جَرَّح عثمان رضي الله عنه.

كانت تلك الكاسيت المشروخة هي ديدنهم... ولذلك اعتزلهم وبدأ يتجنب مناقشتهم... تلك المناقشات العليلة التي لا تسمن ولا تغني من جوع... رمي بالبدعية وتصنيف على هوى شيوخهم، لا يناقش القول وفق دليل واضح أو تأصيل شرعي... بل كانوا أبعد القوم عن الفقه وأصوله... حتى العقيدة التي طالما تشدقوا بمرجعها السلفي قد تمزقت بينهم وأصبحوا يُخرجون من دائرة السنة من لم يقل بقولهم ويمشي على غرزهم... كان يراهم كقطاع طرق، يرهبون الناس بسيوفهم وأسلحتهم الحادة... لكن هؤلاء اختاروا إرهاب الناس بفكرهم القاصر وتهديدهم بإخراج من لم ينصع لفكرهم من دائرة أهل السنة. أما المُوَقِّعُ على صك البدعية والمُروق فهو كبيرهم الذي علمهم السحر.

- نصيحة... ارجع لرشدك وأشدد بعضدك على أقوال أهل العلم المُعتبرين و...

قاطع مراد محمود الذي بدأ في لَوْك كلامهم المعتاد حول أهل العلم المعتمدين وغيرهم الذين إن سَمَا علمهم فلن يتعدى أن يكونوا قصاصين ليس إلا...:

- خويا... تريد أن تجلس هنا ونتحدث حول موضوع آخر فبارك الرحمن فيك... أما إن أردت نصب مقصلة البدعية والتصنيف والإقصاء، ففضلا سأنهض.

- اجلس... سأقوم أنا... غير أنني أخاف عليك من الطريق الذي اخترته...

رمى بما بقي من مزيج القهوة والحليب إلى فمه سريعا... ثم قام وهو يُحَسْبِل ويُحَوْقِل في قرارة نفسه.

تعكر صوف الجلسة التي كان يبحث عنها مراد، قلب جيوبه لكنه علم أنه ترك جهاز الآيبود بغرفته... احتاج أن يرخي خلاياه المتشنجة بشيء من قراءة سعد الغامدي، لكن الأقدار أبت ذلك... كان فكره يجول بين أروقة السلفية كمنهج، تذكر كيف انجذب للفكر السلفي على أساس أنه قائم على اتباع الدليل أينما وجد... وأن عقيدته واضحة جلية لا يشوبها تأويل ولا تعطيل ولا تجسيم... لكنه كان يحس أن تمة شيء ناقص بمنهجهم، ربما بعض المنتسبين الذين تنقصهم ملكة الفهم السديد، وتشوبهم علة العظمة فيحسبون أنهم أعلم من القوم ولم تخالط أعينهم إلا رسالة أو رسالتان بالتوحيد!... لكنه يعي تماما أن إحساسه أكبر من تلك الملاحظة وأعم من ذلك التوقع...

بعد شهر من ذلك المجلس، قُفِلَت المقهى... قالوا إنهم أمسكوا صاحبها مرة أخرى!

ماذا؟...

هل تسأل عمن أمسكوه؟!...

رجال الفضاء الأرضيين القاطنين بمثلث برمودا الذين يسيرون حكومة العالم الخفية!...

يا لَبلادة سؤالك... انقشع من أمامي...

صَبَّحْنا على الله!

المنطق

– 1 –

هل سمعت يا صاح ذاك الصوت الصامت لمحرك البي إم دابليو ذات الفئة السابعة... تمر من أمامك كشبح هامس يحدث صوتا رخيما لكنه عذب كسمفونية طوكاطا، تخيط نوتاتها يد يوهان سباستيان باخ، لترسل أصواتها السردية بين مقاميْ الحماس والعاطفة... إنها هناك تنعطف لتلج حي كالفورنيا عبر شارع مكة... حي راق يضم في كنفه قصورا وفيلات لأرفع شخصيات البلاد سلطة وأوجههم مالا... كانت البنايات الفارهة تتراقص على جنبات الطريق، تتنافس فيما بينها أيها أشد نضارة وبهاء... كأنها راقصات بالي بالمسرح الملكي الباريسي، كل واحدة تحاول ربط حركات بعضها ببعض، لتشد انتباه المتابعين البورجوازيين إليها.

لا تعرج يا صاح بنظرك هناك... حيث القذارة والرائحة العَطِنَة.

نعم... غض طرفك عن تلك الدور الصفيحية المهترئة... وعن تلك المزابل التي توشح مساحتها... وتحيط بها من كل جانب!

ماذا قلت؟... تناقض؟!...

قصور زينتها النخيل وألوان الزهور، ودور تحفها المزابل وتِرَع الواد الحار؟!...

لا يا صاحبي... دعك من هذا وانظر إلى ذاك القصر المحاكي لعمران

الإغريق، كأنه قصر بختر شاه قفز من بين ثنايا الزمن وترك الإسكندر الثالث المقدوني بعدما قُتل من طرف الأرستقراطيين المقدونيين، ليربض كعرش بلقيس بأعمدته البيضاء الأسطوانية التي تدعم قبته المثلثة، إنه يا صاح كأطلس ممشوق بهامته يمنع قُبَّة الأرض أن تهوي على أثينا!... هناك... ولجت السيارة السوداء، بعد أن فُتح الباب ذاتيا، واستقبلها حارس أمن ضخم البنية. اجتازت السيارة بستان الفيلا الرومانية الشاسع، كأنه بستان من بساتين ميدو الألمانية، يزخر بفواكه وزهور شتى... لا أعرف أسماءها ولا منشأها لكنها ذكرتني بالحدائق العجيبة لسيدي بوقنادل.

ثم توقف القرش ذو الأربع عجلات بعد حين أمام باب خشبي ضخم وسط صرح بديع... كبوابة عشتار في زرقتها وتفاصيل نقوشها الذهبية وحيواناتها الاثنان والثلاثون الموسومة بفسيفساء بديعة...

قبل أن تقفل السيارة حركتها تماما... لاح لسارة ذاك الباب...

[باب خشبي... قد سرت الأرضة تنهش أطرافه... متآكل يكاد أن يسقط... كان يتكئ على جدار منزل ريفي غريب!...

نَظَرَت سارة يمنة ويسرة...

أين أنا؟...

لقد اختفى البستان الذي حف بيتها ليتحول إلى مروج مديدة، لا يكبح تمددها المتسلط سوى الأوتاد الطبيعية التي تناطح السماء لتحجب الأفق البعيد.]

كان ذاك مشهدا آخر يسطو على عقلها الواعي ليزاحم صورة الواقع ويأخذها برحلة خاطفة إلى عالم آخر تجهله... ترجلت سارة عن السيارة

لتجر خطاها المتثاقلة على المدخل الرخامي للبناء الأبيض... فُتح الباب الخشبي الضخم من طرف خادمة صينية قبل أن تتاخم سارة حَدَّه، ليكشف عن صالون واسع مترامٍ، تحفه نوافذ عظيمة ويُظله سقف جبسي من طبقتين، أعلاهما تتراخى منها ثريا نضرة ضخمة من الكريستال النقي المُذهَّب، تفوق شمعاتها المضيئة العشرين، وسُفْلاهما تضم منحنيات قليلة زرقاء مُذهبة الحواف، تعطي طابعا غامضا بديعا تزيده نضارة تلك الإشعاعات المضيئة القادمة من بين الطبقتين بهاء ورونقا... ذاك الطابع البسيط في زخرفته الأنيق في رؤيته...

تحركت رجلاها نحو السلالم الخشبية البديعة التي تتوسط المكان... عرجت بها لتقف بعد قليل داخل غرفتها الخاصة، ثم أوصدت الباب خلفها... كانت مضطربة الأفكار غير مُتزنة السريرة، توجهت نحو سريرها المُغطى بالسواد ليحاكي اسوداد الورق المزين للجدران والذي تموجت به وتداخلت رسومات الأزهار البيضاء والحالكة...

اسْتَلقَت سارة كأنها قد فارقت الراحة ردحا من الزمن، ثبتت نظرها نحو السقف الأبيض، ثم حركت يديها نحو ريموت صغير قد وُضع بطاولة ليلية سوداء...

نقرت به بضع نقرات... ثم:

Jai ho

جَاءَكَ الفَوْز

Aaja, aaja jind shamiyane ke tale

أَتَى، أَتَى تَحْتَ خَيْمَةِ الحَيَاةِ المُنَمَّقَة

Aaja jariwale nile aasman ke tale

أَتَى، أَتَى تَحْتَ خَيْمَةِ الحَيَاةِ المُنَمَّقَة

Jai ho

جَاءَكَ الفَوْز

Ratti, ratti sachi maine jaan gavayi hai

شَيْئًا فَشَيْئًا... فَقَدْتُ حَيَاتِي حَقًّا

Nach, nach koylo pe raat bitayi hai

أَقْضِي لَيَالِيَّ أَرْقُصُ عَلَى الفَحْم

Akhiyon ki neend maine phoonko se uda di

وَضَعْتُ نُعَاسِي بِمُقْلَتَيَّ مَعَ شَيْءٍ مِنْ أَنْفَاسِ فَمِي

Gin Gin Taarein Maine Ungli Jalaayi Hai

وَأَشْعَلْتُ إِصْبَعِي بِالنُّجُومِ الزَّرْقَاء

لا تدري إن علمت بعض صديقاتها أنها تسمع لأغاني الأفلام الهندية ما ستكون ردة فعلهن... ستلاقي منهن استهزاء ولمزا سيطول أمده لا محالة...

كانت تعيد البيت «وضعت نعاسي بمقلتيَّ مع شيء من أنفاس فمي» مرارا وتكرارا بشفتيها الصامتتين... تذكرت أول مرة سمعت بها تلك الجملة المنبعثة من إحدى غرف داخلية الأقسام التحضيرية... ما كانت تعتقد أن تفتن بالأغاني الهندية قبل ذاك الوقت.

- 2 -

أطلقت سارة لسوانح أفكارها العنان لتجوب أعماق بحر ذكرياتها اللجي الذي بدأت أمواج التيه تغشي ضياءه... لقد انتهت أخيرا من عامَي الأشغال الفكرية الشاقة... عامان بالأقسام التحضيرية لولوج المدارس العليا للمهندسين... كانت مشاعرها نحو هاتين السنتين متباينة... فهي تحس أنهما عامان طويلان قد احتلا من حياتها القصيرة حيزا فكريا كبيرا... غير أنهما مرَّتا كرمش عين أو وهج برق خاطف!

تذكرت ذاك اليوم الفاصل عند الكثيرين من أقرانها... أول يوم بالأقسام التحضيرية... أول يوم ولجت به ذاك البناء الرمادي الكئيب... إحساس سرى بين سلاماها مع أول يوم ولجته لتتحسس نتائج قبولها...

المرتبة الأربعين ومائة بلائحة القبول الرسمية... لم تقفز كزميلاتها ولم تُبد فرحة بادية... بل اعتزلتهن إلى جانب البناء وشغلت موسيقى الهارد روك بهاتفها الذكي، مُوصلة ذبذباتها لأذنها عبر سماعة أذن عن بعد (سماعات أذن تعمل بالبلوتوت)... واتكأت على الجدار الإسمنتي تنتظر أن ينتهين من رقصهن المبالغ.

جلستْ بالمقاعد الأولى تنتظر ولوج مدرس الرياضيات للقاعة الدراسية... كانت تتشوق لرؤيته... فما نوع تلك الوحوش التي تربض هنا وتحدد مصير نوابغ تلاميذ الثانوية... فبعد دراسة ناطحوا بها قمم المعادلات الرياضية، وحلوا بها أعوص ألغاز الهندسة الفضائية، وهتكوا أعراض كثير من عذارى المسائل الجبرية، ها هم الآن بين فكي أساتذة مبرزين... فهم كأسرى عذارى لا يدرون كيف ستصير أيامهم بين أنياب جلاديهم!

ذاك المحفل السادي... سادية تنهش عذرية الأفكار الرياضية... مع

أول سطر كتبوه تَهَدَّمَ كل شيء... كل بناء رياضي أقاموه لبنة لبنة قد أوتي من قواعده...

إنه يا صاح ما يسمى ظلما بالماط سيب (Maths sup.) أو الرياضيات العالية... وما هي إلا رياضيات سادية، تتفنن في تعذيبك، وزرع مُدْياتها السامة بعصبوناتك الفكرية وخلاياك الدماغية.

دخل الأستاذ المبرز لتُسكِت هالته السلبية كل شيء من حولها... حتى الذباب قد سكن أزيزه الرتيب... وضع محفظته المتآكلة ثم حمل طبشورا أبيض وبدأ في تحريكه على السبورة السوداء... كان العنوان الذي خطه لا يتوسط السبورة كعادة أساتذة الثانوي... بل أخذ حيزا صغيرا على يسار السبورة لا تكاد تميزه عن بقية الكلمات الأخرى...

عنوان لطيف... لكنه يحمل من الغموض ثقلا لن تتحسس كُنهه إلا بعد أسطُرٍ... كان العنوان الأول والدرس الأول موسوما بـــ:

(المـنـطـق) La logique

ذاك ما كتب بتؤدة رتيبة... ثم توالت بعده السطور تُخط تباعا دون تريث ولا انتظار... بعد برهة كانت السبورة قد تخلت عن سوادها القاتم بعد تلقيحها بغبار الطبشور الأبيض... وعلى حين غفلة من التلاميذ الذين مازالوا لم يستفيقوا من الصدمة بعد، مسح الأستاذ جانبا قد مُلِئ سالفا برموز المنطق الغريبة، ليرسل رصاصات أخرى من خاصيات وبراهين ومسلمات وتعاريف تفلتت من أقلام البؤساء الذين يتتبعون كتاباته كسلحفاة بئيسة تريد أن تمسك أرنبا بريا طليقا!

انتهت الساعتان سريعا... قرع جرس الخلاص، ليتجه الجلاد

الرياضي نحو المكتب الخشبي... حمل حقيبته ثم أسند إلِيَتَيْه على حافة المكتب ليُرسل أولى عباراته:

- إسماعيل الصمايلي... أستاذكم بمادة الرياضيات.

ثم خرج ليترك التلاميذ في تخبط فكري وشحوب معرفي!...

كانت ميساء بجانبها... صديقتها المقربة بالثانوية... عقفت سارة رأسها متجهة بنظرها نحو زميلتها... ثم أطلقت قهقهة ضجت منها قاعة الدراسة المتشنجة... كانت نظرات الزملاء تخترقهما كسهم ثاقب... لكن سارة لم تزد على أن حملت حقيبتها وأشارت لصديقتها بالخروج.

ثم أرسلت مقلتها دمعة حارة... ميساء... إنها تفتقد صديقتها التي أسلمت روحها لباريها... قالت إنها ستصلي عليها بضريح العلم، لعل الطبيعة الأم تتقبل روحها وتمزجها مع نسمات الزهور!

تذكرت شخصا آخر نسيت اسمه، لكنها تتذكر جيدا قسمات وجهه وهو يهذي بكلماته الغريبة... التقت معه بعد أسبوع من بدء مسيرة العامين التحضيرين بباب الجناح رقم ثلاثة... أوقفها قائلا بعذوبة:

- معذرة أختي، أيمكنني التحدث معك؟

أجابت بإيماءة من رأسها... لم تعرف سبب وقوفها وإرخاء سمعها لكلماته... قال لها إنه لن يسامحهم... إنهم يجيدون الرياضيات، ويفهمونها، وهو لا... لم يستطع استيعابها ولم يتمكن من سبك لُجين نظرياتها وتعريفاتها... أخبرها أنهم نعتوه بالغبي، وأنه لا يفقه شيئا... ثم انخرط في بكاء ونحيب عال، فارقها على إثره متجها إلى ممر إسمنتي يقود للباب الفاصل بين الداخلية وأقسام التدريس...

علمت سارة فيما بعد أنه قد تعرض لصدمة منذ يومه الأول... لقد كان زميلها

بنفس القسم، فبعد خروج أستاذ الرياضيات وخروجها هي... كلم زميله سائلا إياه:

- هل فهمتَ شيئا؟

رفع بصره نحو السائل ثم قال متسائلا في استنكار:

- وهل فهمت أنت شيئا؟
- لا...
- وايلِّي يا صديقي... إذن راك مْكَلّخ (غبي)!

ثم حمل دفتره الضخم وخرج من الفصل... بعد أيام اختفى تماما... علمت بعد ذلك أن الجنون قد لامس عقله، فاختارت أسرته أن تُخرجه من الأقسام التحضيرية ليواصل علاجه النفسي...

لم يَكُن أول من يُجَن هناك... ولا آخرهم!

فتحت سارة حاسوبها الماك برو الألمنيومي الأبيض مُداعبة فأرته اللاسلكية... لتعبر حدود الواقع للدولة الافتراضية الزرقاء... الفايسبوك... نظرت إلى حائطها الذي تُوجت صفحته بأكثر من عشرين طلب صداقة وخمسين إشعارا!... أدارت عجلة الفأرة لتطوي المنشورات تباعا... غالب المنشورات كانت تكشف عن بعض المنجزات العلمية، أو تكشف عن كلمات عرابي الإلحاد العالمي الجدد أمثال ريتشارد داوكنز وستيفن واينبرغ وستيفان هوكين... لكن روحها لم تكن هناك...

لم تكن بمنزلها بكاليفورنيا بل قد تبخرت مادتها لتستقل الأثير نحو تاريخ منسي... لقد انخطفت روحها لتستقر بين جبال وحقول يابرة!

ما قبل البداية

– 1 –

يابرة... تلك المدينة الريفية الساحرة...

تَشْتَمُّ فور وضعك لقدمك الأولى على بسيطتها تلك الروائح المختلطة التي تداعب جيوب أنفك الشمية، وذاك العبق التليد الذي تضرب جذوره بشجرة التاريخ البشري... كانت تضم خليطا غير متجانس من العرقيات والعقائد، فقد امتزجت سُمرة العرب الحمراء ببشرة بني الأصفر الفاتحة، وداعب الأسود القاني المميز لسكان جنوب الصحراء الإفريقية، وَجْنات أرباب الشمال الأوروبي الوردية المتفتحة... فأفرز سحرا هجينا مميزا لا تجده إلا بيابرة...

ملتقى الطرق التجارية بين الشمال والجنوب... بين الشرق والغرب!... تربض على ربوع نَضِرة بالجنوب الغربي للأندلس.

كان أريج بخور المغرب الأقصى المرابطي يختلط مع رائحة التوابل الهندية القوية...أما عبق عطور المسك والعود المشرقي فقد امتزجت مع نسائم أشجار الليمون العطرة ونفحات الزيتون المنعشة، التي تملأ جنباتها وتخومها.

هنا امتزج كل شيء... بكل شيء... خضرة الطبيعة الوحشية البور، مع الأراضي المروضة الزراعية... حداثة المنشآت الإسلامية، وأصالة المباني التي تزحف تجاعيدها بتاريخ الإنسانية لتصل إلى ما قبل الحضارة الرومانية... هنا مُدَّت أسوار الرومان ومبانيهم لتجاور مسجد يابرة الضخم

وتُتاخِم قلعتها المنيعة التي شُيِّدت حديثا... كما ذابت هنا تلك الصراعات القائمة بين أتباع ابن تومرت والملثمين... فرغم الثورات التي تعرفها البلاد، ومحاصرة سبتة من الموحدين لإخضاعها، إضافة إلى التمرد على المرابطين وولاتهم، كانت يابرة مصمد الأفئدة المُسالمة... فكل شعر وخطابة مباحة هنا إلا ما شملت تحريضا على الآخر أو تسفيها له...

هنا كان الشعراء والأدباء يجتمعون، ولزفراتهم الأدبية يبثون.

– 2 –

كانت تجري بغير وجهة تقطع ربوع المدينة الخضراء... أحبت العدو ومسابقة نسمات الصبح المُنفلق من وراء ظلمة ليل بهيم... إنها هنا مرة أخرى، ترى نفسها تطوي الأرض الخضراء من تحتها مطاردة الأغنام المسكينة بصباح لم يتوج بعد بأشعة الشمس الدافئة...

لن يسبقها بذوة هاته المرة...

من بذوة هذا؟... هذا ما تبادر لذهن سارة.

كان عقلها يستسلم لإشارات فؤادها... فكأن العقل رضخ لواقع الفؤاد الساطي آنذاك!

إذ رغم رجليه القويتين وجسده المخصص للعدو، فستحاول أن تتجاوزه وتربحه...

لكنه ككل مرة، تركها بعيدا بالغا الكوخ الصغير، الرابض بإحدى ضواحي المدينة... وصلت وهي تلهث وترسل أنفاسها المتقطعة بصعوبة... وضعت يديها الدقيقتين على ركبتيها المتسخة باخضرار المراعي واسوداد التربة الترسية المميز، عسى أن تجد مُتَّكَأً لِلَملمة قواها المتناثرة... ثم بعد ثوانٍ معدودات قالت:

- سأهزمك المرة القادة يا بِذْوَة.

ثم رفعت رأسها مبتسمة نحوه... وما كادت أن تُزاحمَ شفتاها وجنتيها حتى بدأ يقفز ويهز ذيله فرحا وهو يدور طربا حول الفتاة الصغيرة.

إن سارة لم تحب الكلاب قط!... فما هذا الإحساس الذي يخالجها؟...

مسحت رأسه بحنان واضح، ثم اتجهت نحو باب بيتها الخشبي، لتجد نفسها بعد هُنيهة جالسة على مائدة الأكل... وضعت هاجر الطعام الذي شُكِّل من الخبز الأسود وزيت الزيتون، إضافة للتلبينة الشعيرية الحجازية... فطور كامل لعمل يوم يَعِد بالشقاء كسوالفه...

نظرت إلى ابنتها بحنان بادٍ، وقالت:

- أين كنت يا عائش... لقد خرجت مباشرة بعد صلاة الفجر.

ابتسمت الطفلة ناشرة بهجتها بين أركان الكوخ البسيط... ثم أضافت الأم قائلة:

- اذهبي ونادي أباك... إنه بغرفة المخزن... يُرتب لوازم سفره.
- أسيسافر مرة أخرى؟

اتجهت الأم نحو عائشة التي تسلل الحزن إلى مُحياها البريء... ثم ربتت على شعرها قائلة:

- أنت تعرفين... فعمله يَلزمه السفر المتكرر.
- أنا لا أريد ذلك... لن يذهب إلى أي مكان.

ثم قفزت من الكرسي الخشبي مهرولة إلى المخزن المجاور...

فتحت بابه، وجرت لترتمي معانقة أباها ومعطية لعبراتها إشارة العبور

نحو الوجنتين البارزتين.

- أبتي... لن تذهب إلى أي مكان! لن تتركني مرة أخرى.

ابتسم الأب وعانق بدوره عائشة، وهو يمسح بيده على ضفيرة شعرها الأسود الطويل.

كان عمله كصياد يُلزمه السفر والغياب لأسابيع عن أهل بيته، كان يتجه ببداية كل شهر هجري إلى لشبونة لمعانقة المحيط، هذا البحر الواسع المجهول الذي يحد بلاد الأندلس غربا... كان صيادا يركب موج بحر الظلمات... يعمل طوال الثلاثة أسابيع بِلُجَّته وبين أمواجه، عسى أن يفي مدخوله متطلبات ابنته الوحيدة التي بدأت تكبر وتترعرع وسط ريف يابرة...

كان يحلم بأن يأخذها يوما لغرناطة أو قرطبة، فذكاؤها الوقاد وسرعة بديهتها يخولان لها أن تتوشح بالعلم والمعرفة.

- أَحَفِظتِ وردك اليومي من كتاب الله؟

- نعم أبي لقد استظهرته قبيل الفجر بدقائق، ليتسنى لي اللعب مع أغنام الرعاة المبكرين... كما حفظت البارحة بعض أبيات متن اللغة العربية الذي أهديتني إيَّاه.

- سأعطيك هدية رائعة لتفوقك وذكائك.

أخرج الأب من متاعه ساعة نحاسية، قد بدأ الزنجار في حثها... ثم دسها بين يدي عائشة الصغيرتين.

- حافظي عليها... وعندما أعود سأقتني لك هدية أخرى إن أكملت اتفاقنا بالحفظ.

سُرَّت عائشة، ثم أعادت ضم الأب بذراعيها الدقيقتين... ونظرت إليه قائلة:

- لا أريدك أن تتركنا مرة أخرى... إني أشتاق لك كثيرا.

أشارت الشمس إلى دنوها من بطن السماء، وشارف الضحى على الزوال... كانت عائشة تجري مُتلهفة إلى المسجد الكبير فقد حان وقت حلقة الأدب التي سيعتلي منبرها أبو الحسن علي بن إسماعيل والمعروف بابن سِيدَه المُرسيّ، لقد رحب به حاكم يابرة ودعاه للمكوث مدة عسى أن ينفع بعلمه في اللغة أهل بلدته.

كان ابن سيده يجلس على كرسي مرتفع وقد تحلق حوله جمع من طلبة العلم الشرعي والأدب واللغة والشعر، خاصة أنه أعلن عن المُؤَلَّف الذي ستتم مدارسته، لقد اختار كتابه الأنيق في شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، وهذا ما جعل لعاب عائشة يسيل شوقا لملاقاة أوتار القصيد وسماع شرح العالم الصنديد.

تحسست مكانا خلف الحلقة كي لا تُشَوش على كلام اللغوي ابن سيده، كان ينشد أبياتا لأبي تمام من ديوانه، كانت الأبيات الأولى من باب الحماسة:

لَو كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي ... بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذهل بن شيبانا

إِذَنْ لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَر خَشِن ... عِنْدَ الحَفِيظَةِ إِنْ ذو لَوْثَةٍ لَانَا

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُم ... قَامُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانَا

لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدِبُهُم ... فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بُرْهَانَا

كف ابن سيده عن الإنشاد ثم بدأ يرسل شرحه البديع حول درر الحروف ومباني الكلمات ودقائق ولطائف المبهمات... وما كاد ينتهي من شرح البيت الثالث حتى فاجأ الحاجب ابن سيده... تقدم نحو اللغوي

ثم نهض هذا الأخير ليتمشى نحو الباب الصغير المخصص لولوج الإمام. داعب الفضول عائشة، فانسلت خلف الذاهبين... كانت عيون بعض الحاضرين ترمقها وهي تسترق النظر من خلف الباب، كانت ترى الحاجب وهو يقدم أحد الرجال للغوي المُرسيّ، كان رجلا خمسينيا يمسك بتلابيب جلبابه طفل يشبهه كثيرا... كانت سحنته وملامحه غريبة ليست من البلدة، كما أبدى ابن سيده اهتماما مبالغا به... قد استطاعت أن تسمع كلمة «قاضي» وكلمة «طليطلة»... لكن اليد التي أمسكت بملابسها من الخلف، جعلتها تجزع، وما كادت تلتفت حتى أدركت أن رجليها قد فارقتا الأرض، بدأت تحرك قدميها بسرعة وتوتر ظاهر...

- ألا تحشمين يا عائشة؟... تعالي معي!

ثم حملها أحد طلبة العلم إلى خارج المسجد، وما كاد يفلتها من يده حتى سابقت الريح، ملقية بنظرة استهزاء خلفها...

كانت تجري، وتجري حتى توقف بها الزمن فما عادت تسمع زقزقة العصافير ولا تداعب ملامحها نسائم الرياح... لقد توقف كل شيء من حولها... لتظهر أمامها ساعة نحاسية ضخمة قد تآكلت معظم نواحيها. كانت تتحرك ببطء في تناغم مع عقاربها المتحركة... كانت تحدث دويا صارخا رتيبا بالمكان الذي اضطربت جنباته... كصور مركبة مبكسلة (pixelation) قد تمازجت مربعاتها وتشكلت في ألوان عديدة غير متجانسة. ثم بدأت تتجمع رويدا رويدا، لتتمثل في شاشة سوداء قد مُلئت بنُدَب بيضاء... الظاهر أنها توجيهات برمجية أو أوامر مُشفرة... كانت سارة بدرس اليونكس (Unix)، وقد مُدت أناملها على لوحة مفاتيح

الحاسوب قديم الطراز. كانت تريد أن تكتب شيئا لكنها نَسيَت ما كان عقلها يحاول أن يخط... نظرت إلى شاشة كوثر لتجدها وقد وافقت ما خطت هي تماما... سوى سطر تحاول كوثر أن تتمه.

نظرت الفتاة الشابة نحو سارة قائلة لها في همس...

- لقد أعلن مجلس الطلبة أنه سينظم جمعا عاما هذا المساء... سنناقش القانون الداخلي الجديد الذي طرحته الإدارة.

نظرت نحو شاشتها ثم أضافت:

- سيشرعون في الأخذ من مجموع نقاطنا وفقا لحضورنا لكل مادة.

هزت سارة كتفيها في غير اكتراث... ثم غطست بلج تفكيرها حول ما أضحت تراه بين الفينة والأخرى.

كيان واحد
- 1 -

- واااا الإدارةُ (ــو)

صاح الشخص المتوشح بالسواد وسط الحلقية الضخمة... فما كاد يصل لتاء الكلمة حتى ارتفع صوت جموع الطلبة المهندسين:

- واااا الإدارةُ (ــو)

أعاد مايسترو سمفونية الاحتجاج جملته مرة بعد مرة، وهو يلوح بيده للطلبة من حوله في إشارة لرفع أصوات حناجرهم المثقلة... ثم في خضم تعالي الأصوات:

- إدارة التماطلِ... وطول انتظارِ... في الليل والنهارِ... في الصيف والشتاءِ... واااا الإدارتوووو...

كانت الحلقية تُرعد وتزبد بألوان الشعارات النضالية والهتافات الحقوقية... كل هذا كان جديدا على فؤاد مراد... كان يقف بعيدا عن الحلقية، غير أنه مع كل كلمة تخرج من حناجر الطلبة يجد نفسه قد تاقت لمعانقة حروفها، وعزفها على حباله الصوتية... شيء ما بداخله كان يدفعه دفعا إلى رفع صوته مع زملائه... لكن شيئا آخر قد انتصب بكينونته يمنعه، ويوضح له عدم جواز الانخراط في المظاهرات والإضرابات... كان جانبا آخر من نفسه قد رمى بأسلحته ليوقف روحه التي تاقت للذوبان وسط الجموع والحناجر...

كان يُذكره بفتوى شيخه عبد اللطيف العماري في عدم جواز ما يصبو إليه... بل يذكره أن ذلك فعل الخوارج، ولو سُمِّي نضال أو ممانعة... فلا مشاحة في الاصطلاح...وبين أخذ ورد، بين مد وجزر، لم يَعِ متى وجد لسانه يلهج بألوان الشعارات... بعد حين أصبحت شفتاه تتلمس لعاب الفم الذي انكشح من فرط الشعارات والهتافات التي لاكها ثغره وسط الجموع.

- إخواني الطلبة، أخواتي الطالبات... إنهم يريدون قمعنا وتكبيل أيدينا بالمسودة الجديدة للقانون الداخلي... إنهم لم يأخذوا رأينا، ولم يشارك مكتب الطلبة في إنشاء بنوده... هذا حيف في حقنا... لن نستكين لهم... سنواصل إضرابنا عن الدراسة رغم إقفالهم للمقصف والمطعم... ففقدان الأكل أهون عندنا من فقدان كرامة المهندس.

ثم تعالت التصفيقات حول الطالب القائد لجموع المضربين... ليضيف بعد ضمور التصفيق:

- مساء مع الثامنة، بقاعة الندوات، سنعقد جمعا عاما لمناقشة التصعيد القادم نحو الإدارة... عَنْدَاكُم مَا تْجِيوْش... فكرامتنا على كفة ميزانِ الْتِزامكم معنا.

كانت سارة تستقل سيارتها الخاصة من نوع ميني كوبر إس تراوغ السيارات عبر الطريق السريع الذي يقسم الدار البيضاء كخندق ضخم... ثم عرجت بعد بضع دقائق إلى مخرج طريق مكة، لتجد نفسها أمام منزلها الفخم... لكنها ما كادت تخرج من سيارتها بعد عبورها للبستان الشاسع حتى أتاها اتصال... نظرت إلى شاشة هاتفها في توجس، فقد كان الرقم مخفيا... وبعد أخذ ورد ذهني قررت أن تجيب:

- ألو...oui!
- عائشة؟

أجاب الصوت بِرِيبَة، اختلطت بهمس كفحيح الأفعى.

- Non... معذرة فالرقم خاطئ؟
- لا ضير... إنه الرقم الذي أريده...
- من أنت؟
- أنا أبو حاتم المجريطي.

ثم وجدت نفسها واقفة أمام معبد ديانا الروماني، الذي مر على بنائه أكثر من عشرة قرون...

- ماذا أفعل هنا مرة أخرى؟

– 2 –

لمحت من بعيد شخصا يرفع يديه ملوحا لها في ترحيب... إنه الطفل الذي كان يقف مع زوار ابن سيده بالمسجد...

لكنني لا أعرفه؟

(بل تعرفينه... إنه صديق طفولتك؟)

كان الصوت الرخيم يخاطبها من بين ثنايا أضلع قفصها الصدري...

ثم رفعت في غير هدى يدها هي الأخرى تستقبله فرحة... نعم إنه صديقها... بدأت تُحس بفؤادها يتداخل مع ذاك القلب الثاني الذي زُرع بصدرها قَسرا... لقد دب بها حنين دافئ أحست به فور رؤيته... كأن شوقا جياشا سرى بين كرياتها الحمراء، ليستخلص مصله ويرسله كعبرة

تشق طريقها بجفنها الوردي... لكن إحساسا آخر تداخل بسريرتها... كُرهٌ وحبٌّ... وصال وانفصال... شوق وحقد!

لم يكن القادم إلا صديقها مسلمة المجريطي، ذاك الطفل دافئ الحديث، لا يُسمع له صوت إلا بصعوبة... ذو إحساس عال ومحب للشعر... لا تتذكر متى زَرَع بها القادم الجديد بالبلدة حب قرض القصيد... ذاك القادم من الشرق، من طُلَيطلة، الخرزة التي أدى سقوطها بيد الصليبيين إلى تتابع سقوط المدن والطوائف الأخرى... كانت الثورات ضد القشتاليين مازالت قائمة خاصة بعد تحويل المسجد الكبير الطُلَيطلي من ألفونسو السادس إلى كاتدرائية ضخمة، واختيار المدينة كقاعدة لبلاده، بل نكثه للمعاهدة مع المسلمين...

لقد جاء أبوه أبو مسلمة هارون بن عبد السلام المجريطي هاربا من محاكم التفتيش القشتالي... كان ذائع الصيت وكتبه قد بلغت الآفاق، لذا استقبله سكان يابرة بالترحاب الكبير وسعة الصدر... لقد كان قاضي قضاة طليطلة، فنصبوه قاضيا ببلدتهم.

– هل أنت متأكد أن الشاعر سَيُلْقِي قصيدة جديدة بديوان الشعراء قرب القصر الملكي.

وجهت عائشة كلامها لمسلمة. كانت عيناها تشعان شوقا لسماع أبيات الشاعر الأندلسي البلنسي أبي عبد الله الرصافي.

– متأكد فأبي سيذهب هناك... فكما تعلمين، إنه مهتم بالأدب والشعر، كما أنه مدعو رسميا أن يحضره، وسيلقي كلمة هناك.

قالها مسلمة بكل فخر رغم صوته الخافت... ثم طفق ينشد أبياتا للشاعر:

رأى حَرَكَاتِ قَامَتِهِ قَضِيبُ البانِ فاعْتَبَرا
وَكَمْ جَهِدَ النَّسِيمُ بِهِ لِيُحَسِّنَها فَمَا قَدَرَا

ثم سكت فقد انتبه لشيء فاته... بل أهم شيء... عرج بنظره نحو عائشة قائلا:

- لكن يا عائشة... كيف سَنَلِج الديوان، والعسس قد حفوا مداخله.

ابتسمت عائشة بمكر ثم أجابت:

- مسلمة... فقط اتبعني، ولكن احذر، لا تحدث صوتا!

ابتسمت عائشة... فهي تعي أن مسلمة لا يحدث نعله قرعا من وقع أقدامه اللطيفة، فضلا عن أن يحدث صوتا من ثغره!... اِلْتَفَّت الأندلسية نحو الجانب الآخر للقصر بسرعة، ليصبحا بعد حين أمام جدار ضخم قد تاخم شجرة عملاقة... تسلقت عائشة بليونة... إنها تعرف موطئ قدمها جيدا.

(ماذا أفعل؟... متى كانت لي القدرة على تسلق الأشجار كالقرود؟!)

كان مسلمة يتحسس غرزها كي لا يختل توازنه ويقع كعادته... ثم قفزا فور وصولهما للقمة!...

وفجأة وجدت سارة الفراغ تحت رجلها... سَمِّها عائشة أو سارة، فكيانهما واحد وقلبهما بدآ يتداخلان كعاصرة مغناطيسية تلتهم عصارة أخرى... ثم عَمَّت ظلمةٌ مرعبة حواليها من كل جانب... لم تستوعب ما حدث... لكنها ما كادت تصيح حتى وجدت نفسها تقف أمام شاشة ضخمة تعرض كليشيهات رديئة... كفيلم قديم قد أكلت الأرضة حدوده، وغزته خطوط التَّلَف.

- 3 -

إنها هي... سارة... تتوسط أصدقائها وصديقاتها وقد ملأت السعادة محياها... تتذكر ذاك المشهد جيدا... لقد كان عيد ميلادها السابع عشر... كان الحاضرون ينشدون بلسان واحد:

Happy birthday to you (عيد ميلاد سعيد لك)

الأغنية التي ابتدعتها الأختان باتي وميلدرد قبل أن تسطو عليها شركة سامي وتبيع حقوقها للشركة الإعلامية الامريكية تايم ورنر (وقت النذير)...

كانت الأغنية تملأ الفضاء من حولهم لتتمازج موجاتها مع فوتونات الضوء المنبعث من عشرات المصابيح المُلَوَّنة... كانت فرحة جدا ذاك اليوم لأن أباها حضر لأول مرة حفلة عيد ميلادها... كانت تختلس النظر، مرة تلو المرة، لأبيها الجالس بأريكة سوداء يتجاذب أطراف الحديث مع أمها... إنهما على توافق... كانت تلك من المرات القلائل التي توافقا بها وجلسا مع بعضهما في سلام.

وجهت نظرها نحو أصدقائها تقلب وجوههم البشوشة وهم يلتهمون قطع الحلوى ويشربون عصير إقفال سنتها السادسة عشرة... ثم أعادت العروج نحو أبويها...

لكن كانت المُفاجأة!

لقد انفجرت الدماء من عنقي والديها دون سابق إنذار... ثم كست الدماء كل المكان... كل شيء قد تخضبت دماؤه... ما كانت تسمع إلا حشرجة صامتة منبعثة من أبويها... بدأت ترتعش من هول الصدمة وكادت

عيناها أن تُفارقا محجريهما!

ثم صاحت... صاحت، لكن الصوت المتدفق من هول الصدمة لم يكن صوتها... لقد كان لعائشة... ثم جرت نحو الوالدين اللذين اختارا جدارا خشبيا كي يسندا ظهريهما عليه... نعم لقد فارقا الحياة... وقد انتشرت الدماء هنا وهناك... لقد دخلت عائشة لتوها من محفل شعري بديوان الشعراء... لقد كانت تُلقي قصيدتها وادي الدماء!

لكنها لم تظن قيد أُنمُلة أن تجد ذاك الوادي بمنزلها... حتى بذوة كلبها الوفي المتهالك العجوز قد جزوا رقبته!

حملت رأس أمها بحضنها وضمته بقوة... لكنها لم تبك! ولم تعبر عَبَرَاتها عَيْنَيْها العسليتين... بل إحساس آخر أخذ في التكون بين ثنايا فؤادها فجأة... إحساس غامض لكنه يزفر لهيبا حاقدا... إحساس قد تَكَوَّن بقلبيهما معا...

قلبي عائشة وسارة.

زَايْد /ناقْص

- 1 -

لقد استُؤنفت الدراسة بعد إضراب فاق العشرين يوما... لكن سارة لم تتابع سيرورة الإضراب ولا بنود المطالب... لقد كان كل ذلك عندها «زَايْد/نَاقْص»، فالصراخ والعويل كما ترى لا يُمثل إلا تلك الطبقة الاجتماعية العرجاء التي يزاحمهم أبناؤها بالمدارس العليا!... كانت تسر لصويحباتها عندما كانت بالأقسام التحضيرية أنها ما وددت الدراسة بها، بل كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تذهب لثانوية «جوفر» بالديار الفرنسية، لكن بعض أصدقاء أبيها دفعوه لأن يعدل عن ذاك، ويستأثر بالرأي وحده كما عودها هي وأمها، ليدفعها دفعا إلى أن تلج العامين التحضيرين بالمغرب... فما كان انتقامها إلا أن تنكرت لاجتياز مباريات ولوج المعاهد الفرنسية نكاية في أبيها... لتسافر بعد انتهاء عامها الثاني إلى أغادير هربا من حرب شعواء نفسية شنها عليها الأب... كان يأتي ثملا كل ليلة وقد قارب الصباح أن يَنقضي، فيرغد ويزبد وسط المنزل، ثم يرسل أدنى عبارات التهكم نحو أمها التي تحاول كبح جماح نزوته... كانت ترمقه دائما من أعلى الدرج بوجه مستهزئ... استهزاء من هذا الرجل المشهور ذائع الصيت المعروف بكاريزما نادرة وقد لعبت به الثمالة لعبتها وبلغت منه مبلغها... ثم عطف على أم إعلامية عُرفت بحلها لأعتى الأحوال الاجتماعية التي تقف أمامها

بالبرنامج، وهي لا تقدر أن تحل مشاكلها الخاصة التي غالبا ما هربت منها مبدية انشغالا مصطنعا بمهنتها...

كانت ترى في أبيها ذاك الفقير الذي تسلق سلالم الترف، لكن نزعته العروبية القاسية كانت تتفلت غالبا منه... البروليتارية المُقنعة تلك التي يمثلها أبوها، بل يمثلاها معا، الأب والأم فكلاهما يحملان قلبين قد عششت بهما ألوان ممارسات الفقراء ولو تَوَشحوا بلباس البورجوازية المُتَصَنَّعة... ثم كانت تعوز تلك الحالة من الغوغائية التي كانت تعتري حياة والديها، في شكل صراع دائم إلى التربية الدينية الصلبة التي عاشاها... فرغم إظهار والدها للحداثة والانفتاح ظل يلزم أمها وإياها باللباس الطويل ووضع الطرحة، لكنها تمردت بعد عامها السابع عشر... تمردت على كل شيء، حتى ذاك الدين وما يعتريه من تناقض لا تُصلح به حياة ولا تُجلب به حضارة... لم تستسغ رؤية الشيوعيين اليساريين بل تبنت الإلحاد العلمي... حتى أنها أفحمت كل مناقشيها في تناقضات الدين مع العلم... كل من لقيتهم كانوا كقطيع يتتبع عشب شيخه فلا يجاوزه ولا يحمل رأسه لرؤية النور الذي رأته... نور العلم...

- الفقراء دائما يصيحون ويندّدون... لا هم لهم سوى ملء البطون والسعي خلف الفُرُوج.

كانت تحدث رفيقتها كوثر المخموري في خُفُوت... لا تريد أن يسمعها أحد، خاصة هذا الأستاذ الذي يشرح مادته في صوت رتيب... كذبابة التسي - تسي تُرسل سمها بخلايا الطلبة العصبية.

نظرت كوثر لسارة دون أن تحرك عنقها... ثم همست:

- الإضراب كان حول القانون الأساسي وليس المطعم.

رفعت سارة كتفيها غير مكترثة ثم عرجت بنظرها نحو أستاذ المادة الرتيبة... كانت مادة التحليل العَمَلِي أو التوظيفي رتيبة الطرح، زادها ضجرا وأفقدها الزخم ذاك الصبيب المتثاقل لحروف لسان الأستاذ... وما زادها مللا الستائر المرخاة والحاجبة لنور السماء، ليطبع الجو بخَتْم الغموض والملل!... فكلامه لا ينقصه إلا لفظة «هالالويا» و «آمين» لتصبح وكأنك وسط كاتدرائية مظلمة يتلو بها القس كلمات الإنجيل بتثاقل مشوب بحشرجة بمخارج حروفه عساه أن يضفي هيبة وغموضا على تراتيله.

- أووووف...

تنهدت سارة طارحة نظرها مرة أخرى عن الشخص الضخم، الرابض على كرسي اختفى تحت ضخامته، مرسلا كلامه المتثاقل كامل الدسم... فلعابه أبى إلا أن يَسِم كل حرف، ليجعله عطنا قبل أن تتلقاه الآذان المتراخية من أثر الصودا التي ملأت طعام الغذاء بالداخلية.

أشاحت بنظرها متجولة بين وجوه زملائها وزميلاتها بالقسم الأول باء بمدرسة المهندسين... ليستقر بعد حين على مُلتح قد بدأت لحيته القليلة تنسج خيوطها على وجهه الطفولي... تلك المنظومة الخالدة لتعلق الفقراء بالدين... ذاك التوسل الغيبي في نسج نعيم أُخْرَوِي يُؤنس عوزه المادي ودونيته الطبقية... ذاك ما كانت تحيك سارة شبكته بعصبوناتها الفكرية... فالصراع بالأساس طبقي وهذا ما أفرز تلك الحركات الإيديولوجية التي تبنت المساواة الطبقية، كانت سياسية فكرية تقدمية أو دينية سلفية أصولية...

«وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ «

كانت تلك عقيدتها، ورؤيتها... لم تتذكر أين رأت تلك الآية ومتى قرأتها، لكنها واعية أشد الوعي أنها تتحدث عنها... وهي فخورة بذلك!

لكن مرادا لم يكن يسمع لكل هذا السجال الفكري، فقد أخفى سماعات الأذن المتصلة بهاتفه الذكي، وأخذ في تدوين نقاط الدرس الشرعي الأساسية التي كانت تخترق أسلاك السماعات وصولا لطبلة أذنه تَمَّ خلاياه الدماغية... كان الصوت الجهوري للشيخ عبد اللطيف العماري ينسج خيوطه الدلالية على تخصيص فهمه العقدي بالفرقة الناجية... كان يفسر أقوال كل فرقة عقدية إسلامية ويُبرز مجانبتها لصواب رؤيته التي وسمها برؤية أهل السنة والجماعة... ومراد يدون كل لطيفة ولو لم يعقلها، كل نكتة ولو لم يفقه مآلها وتصوراتها... فترى وجهه يتلون وفق كلام الشيخ، تارة في رضى وأخرى في حنق وتجهم!

كان يُسرُّ غالبا قلبَه عن جدوى مثل هذه الدروس. يقول لها في استحياء:

- هل تدريس خِصَام الأمس للعامة، وإحياء عقائد قد دُفِنَتْ تحت الثرى، ناجع لحياتنا هذه؟ ألا يزيد الأمة فرقة وإحياء لصراع زائل؟ أليست الأمة أحوج للَمِّ شتاتها، عوض نبش ماضٍ، لا مكان له إلا وسط أمة مترفة فكريا؟ ونحن نتحسس ثقافتنا الغائبة، فما بالك بعلم الكلام والمنطق والفلسفة، خاصة منحاها الإلهي الذي يشيب له ولدان الفكر والقلب؟

أرخت سارة عينها ماسكة قلمها... بدأت تخط بورقة بيضاء أمامها، لعلها تطوي بعض الوقت السمج وتسرع من عقاربه... كانت تكتب أي شيء، دون فكرة محددة... كلمات لا دلالة لها ورسومات ورموز لا كُنه

لها... ثم وجدت نفسها تخط في عصبية حروفا بعينها... كانت تضغط على القلم في حنق وغيض... كتبت آنذاك كلمة حمراء متبوعة برمز واضح:
الدم

ثم اختفى من أمام عينيها كل شيء... وغرقت سارة في الظلام مرة أخرى.

- 2 -

تشكل أمامها شكل أسطواني بديع، أخذ في الاهتزاز يمنة ويسرة وقد حُمل بسلسلة مخرزة... إنها ساعة عائشة النحاسية القديمة الطراز... تتمايل في تؤدة كأنها صوفي يدور حول جذعه على ترانيم البردة... أما عقاربها فقد أخذت في الدوران بدون توقف، فَثَمَّةَ قد انعدمت قيمة الوقت، وذابت السنون في بعضها لتستحيل ساعة أو بضع ساعة من نهار... ثم اختفت الساعة شيئا فشيئا لتنغمس سارة في الظلام مرة أخرى.

كانت تمشي وسط ممر ضيق خانق، لا ترى شيئا سوى ضياء ينشر إشعاعه على استحياء... يبث غموض التاريخ الذي لم يُكْتَب، ويرسل عبارات شجن غريب بفؤاد سارة... وصلت للضياء الذي كان بنهاية الممر لتتشكل أمامها صورة شخص تعرفه... تعرف أنه مسلمة بن هارون المجريطي رغم تغير وجهه ونبرة صوته...

- لكن يا عائشة ملك البورتوغال ألفونسو قد أحكم قبضته على يابرة...

أخذ في الذهاب والمجيء كابن آوى يدور في حلقة... كان توثره باديا وصوته المتدفق بصعوبة من فمه يدل على عصبية واضحة... أعاد وجهه اتجاه عائشة قائلا:

- أنت تعلمين ما وقع لأهل أشبونة بعد ثورتهم... خاصة أنهم كانوا يحملون شعار الإسلام في مواجهة القوات البورتوغالية!

أمسك بذبابة لحيته وقد بدأت يده ترتعش... ثم أردف:

- بل... بل إن قرطبة محاصرة وما هي إلا أيام وتسقط!

سكت قليلا يبدي توترا ظاهرا، ثم أضاف:

- هل نسيتِ كيف وجدتِ أبويك؟ هل نسيتِ كيف قتلهما البورتوغاليون؟... لم يستطع أحد ردعهم... لم يكتشف أحد كيف دخلوا، ولا كيف خرجوا!

كانت عائشة منهارة وقد تسلل عياء باد لجفنيها وأرخى البكاء المتواصل عينيها، فكأنما ستجحظان من محجريهما!... كان وقع وفاة والديها قاسيا، فقد علمت للتو من صديق طفولتها مسلمة أن والدها كان ممن ثاروا حمية لدينهم بأرض أشبونة التي سقطت في يد البورتوغاليين قبل ثمانين سنة... كان يذهب للصيد لكنه في الواقع كان ينتمي لحركة ثورية تهدف القيام بحرب عصابات ضد توغل مملكة البورتوغال التي كانت تحمل الراية الصليبية وتجبر كل ثغر ساقط أن يلتزم بدينها!... لكن سكين القهر أوغل في نحت جرح المرارة بقلبها عندما أخبرها صاحبها أن مجلس المدينة قرر الاستسلام... كان قرارهم مبنيا على حقن الدماء، فقد وقعوا مع البورتوغاليين معاهدة تحفظ دماءهم ودينهم.

- مسلمة... نحن مسلمون قبل كل شيء... أنبتغي الدَّنِيَّة في ديننا، أتريد أن نَتَفَلَّتَ من عقيدتنا وأن نُذعن للصليبي؟!

كانت سارة تتساءل عن مغزى ذاك الكلام... كانت تحس أن ذاك

الالتحام مع قلب عائشة قد بدأ يتساقط كزجاج مكسور يتفتت تباعا ويرسل الفراغ الروحي بين فؤاديهما مرة أخرى... عن أية دَنِيَّة تتحدث عائشة؟... وعن أي دين يتحدثون... أرادت الحديث مكانها ومقارعة عواطفها، لكن دون فائدة... لا يمكن لشخص عاقل أن يوازن دينه بحياته!

ثم بدأت صورة أخرى تتشكل شيئا فشيئا ليختفي معها وجه مسلمة بن هارون ويتشكل وجه والدها اليابري... كان يجلس مع أشخاص آخرين على طاولة خشبية قصيرة... كان صغيرهم سنا كما يظهر هو من يمسك دفة القيادة ويشرح لهم شيئا ما... إنه مشهد سابق عن نقاش عائشة الأخير مع مسلمة.

أخذت سارة تقلب نظرها بين جنبات الكوخ المظلم... كان يضم أسلحة بدائية عبارة عن سيوف ورماح مُتهالكة، وبعض الدروع التي أنهكها قرع الصوارم... "المُلثمون" ذاك ما كان مكتوبا عليها... قرأتها منقوشة واضحة بخط كوفي بديع... إنهم الثوار بدون شك فقد ربطت بين آخر حوار بثه لها مسلمة وبين هؤلاء الأشخاص ووالدها الذي ينتبه بتمعن كبير مطرقا حواسه لشرح سعد بن عبد الكريم الغافقي... كانوا سبعة لم تستطع رؤية تقاسيمهم كلهم، فقد غلف ضباب قاتم أوجه ثلاثة منهم...

هل كانت ذاكرة عائشة قاصرة عن معرفتهم...أم هو لهيب الأسى أخفى وجوههم عمدا كي لا تتذكرهم الأندلسية... ذاك ما أحست به سارة عندها!

سعد بن عبد الكريم الغافقي... ذاك الشاب الذي أحيا الروح الثورية في قلوب الكثير بعد سقوط مدينتهم سنة 541 هجرية... كان يتحسس الرجال ويبث شجنه نحو استرجاع بلادهم لكل من لمس منه روحا سوية

تعيد المجد الزائل... كان ابن إدريس اليابري وهو أبو عائشة قد لاقى الشاب بإحدى خرجات صيده... كان سعد شابا يافعا لكنه مهابا... حديثه وكلامه يشد انتباه أي شخص ولو كان غير مبال...

كان الشاب الثوري يمسك بسكين دقيق يوجهه لرسومات برقعة متهالكة موضوعة على الطاولة... كانت تتذيل بجملة مقروءة تحمل عنوان: خريطة إشبونة... يشرح لهم خرجتهم وغزوتهم الجديدة الهادفة لقتل البورتوغاليين واغتيالهم في إحدى معسكراتهم بتخوم المدينة الساحلية.

- سنتسلل خارج القلعة المغربية من الجانب الشمالي لنلتف نحو الشاطئ الجنوبي الذي يُخيِّم العسس الأبورتوين به... إنهم نحو العشرين شخصا... ينقسمون إلى أربع فرق... تنام كل فرقة ربع الليل وتنتشر الثلاث الأخريات في الاتجاهات الثلاثة المقابلة للشاطئ...

ثم بدأ يرسم خطته لرفاقه... لقد قسمهم آنفا إلى خمس فرق متكونة من شخصين... كانت أعينهم تتقد شجاعة... لماذا لا يخافون الموت؟... كانت سارة تتساءل في حيرة... أيمكن للوطن أن يدفع هؤلاء إلى هلاك أنفسهم وبتر أرواحهم... لكن أسماءهم لا تدل على وَحْدَة أرضهم... عبد الرحمن السبتي، يحيى بن مسعود المجريطي، سعد الغافقي، ابن دريس اليابري وخامسهم جبير المراكشي وغيرهم من مدن بعيدة قد حملتهم رياح الأقدار إلى أشبونة... ليست وَحدَة الأرض ما تجمعهم... بل وحدة أخرى، كانت تخاف سارة أن تعترف بها فهي طالما احتقرت مُدَّعيها. ثم سَمعَت جلبة بدأت تنبت من العدم... كانت الأصوات قد وصلت أذنيها، لكن لا تعرف منبعها... ثم تعالت حتى كادت أن تخرق طبلتَيْ أذُنَيْها، اِلْتفتت لتجد الباب من خلفها قد

كسر واخترقتها جموع من الرجال ذوي السحنة البيضاء الذين اخترقوا جذعها، قاصدين طاولة الثوار، كانوا يحملون سيوفا دامية... سَكنت جازعة، لم تقدر أن تحرك جسمها، ثم خبت الأصوات ولفَّ السكون المكان... أحست بمياه حارقة تخترق وجنتيها... رفعت كفها لتلامس وجنتها، كانت عبراتها تسترق النظر خلف مقلتيها العسليتين... كانت تنتظر أن تبدأ في الزحف السرمدي نحو ملامسة الثرى تحت قدميها الكليلتين!

أعادت الالتفات ببطء نحو المجلس الثوري الذي كان معقودا على أضواء الشموع... لترى الأجساد المتصلبة قد غُطَّت بنجيع الموت... أجساد بُتِرت رؤوسها وتُرِكَت تنتظر التجييف... كانوا يقهقهون، بل تتعالى ضحكاتهم وهم يحملون غنائمهم بين أيديهم... غنائم آدمية قد بُتِرت من جذعها... رؤوس الثوار المخضبة بنجيع الخيانة... لقد قُذف في روعها أن خائنا كان ينسخ خيوطا رفيعة حول أعناقهم، كانت تعلم أنه واحد ممن لم تسطع رؤية وجوههم... أعادت تحسس الرؤوس الثورية بعينيها، فرأتهم يبتسمون... هم قتلى لكنهم يبتسمون!

انفلق قلب سارة بل كان فؤاد عائشة، وهي تبحث يمنة ويسرة عن جثة أبيها أوعن رأسه... ثم انكشح انتصاب رجليها فخرت على ركبتيها الدقيقتين... تذكرت أن أباها قتل هناك بيابرة... لقد استطاع أن يهرب من البورتوغاليين لكنهم تبعوه إلى مدينته... لقد أصدروا حكم إعدامهم بيابرة!

هل أنا ولي؟

كان النقاش ساخنا رغم معدتهم الفارغة والصف الطويل الذي ينتظرهم لأخذ وجبة العشاء... كان مطعم المعهد الهندسي رديئا متهالكا، يضم طاولات بيضاء بلاستيكية تجثو بجانبها كراس قد أُخفي لونها خلف صنوف الأوساخ والمخلفات من الأكل والمرق...

كعادته مراد كان يُحادث زميله حسن الذي يقتسم معه نفس الغرفة... كان موضوعا عاما مُختلقا كي يطوِيًّا ثقل الدقائق قبل أن يأخذا عشاءهما العَطن بأطباق حديدية، فبعد حديثهم عن الرحلة الدراسية نحو المكتب الوطني للفوسفاط التي سينظمها المعهد بالأسبوع الأول من شهر دجنبر، وما ثار حولها من لغط يتمثل في ضغط من قبل مكتب الطلبة كي يخصص لهم المعهد ناقلة بمواصفات جيدة، ليس كالعام الماضي، إذ وجدوا أنفسهم مضطرين أن يستقلوا واحدة مهترئة، فأعرض كثير منهم عن الذهاب...

كانت المواضيع تُثمر أخرى، حتى أن مرادا لم يتذكر كيف عرجا للحديث عن الكرامات والخوارق التي يمتاز بها المتصوفة... ليُقِّر حسن قائلا:

- يا صديقي... الكرامات وخوارق العادات أمر شهد به الواقع والدين؟

- نعم صدقت لكنها ليست متاحة لكل شخص، ولا تتبلور بمشيئة الأفراد.

تحرك الصف الطويل قليلا، كأفعى أناكوندا تقذف جلدها الميت ببطء... سأل حسن صديقه قائلا:

- كيف؟... لم أفهم!

أراد مراد أن يجيب لكنه تذكر مثالا طالما أضحكه وتنكت به مستنكرا أن يتقبله عقل سليم... قال مراد وهو يبتسم في تهكم:

- مثلا... أيُعقل أن يدعو شخص من هنا طالبا الله أن يزيد في طوله لرؤية بيت الله الحرام بمكة... فلبى الله نداءه، حتى قال في معرض حديثه عن الكرامة التي أصابته: فبدأ جسمي يطول ويتضخم حتى رأيت الإفرنجية ترضع رضيعها... بالله عليك... ألم يحشم وهو يتأمل في نهديها؟

كان قد قرأ تلك القصة في مكتبة لارميطاج التي انخرط بها مؤخرا... كان يتذكر الواقعة جيدا من كتاب مشهور لأحد عارفي المتصوفة المغاربة... لكنه لم يدرِ أن شيخ جماعة الجماعة الصوفية قد صاغها في أحد كتبه...

كانت جماعة الجماعة من الجماعات الأوتاد بالساحة الدعوية، بل ويتعدى وقعها إلى الساحة السياسية. كان شيخها أحد المناضلين الإسلاميين ممن ضُيِّق عليهم بسبعينات القرن الماضي، حتى فُرِضتْ عليه الإقامة الجبرية والتضييق الدعوي والفكري.

ماذا؟... من فرض عليه الإقامة الجبرية؟

... إنهم البوكيمونات!

دعك من تلك الفذلكة الفارغة وأنصتْ...

اجتمع حول الشيخ خلق كثير، وشكلوا تنظيما هرميا يقوم عليه شيخ ناهٍ آمر، هو شيخ الجماعة، يتفرع منه مرشدون، ثم رؤساء فروع

ومسؤولون عن الجهات والمدن، وصولا إلى المريد بأسفل الهرم... كانوا يشكلون قوة دعوية بالجامعات، وكيانا تصدَّى للزحف اليساري والقومي. لكن تصوفهم كان يربو في بعض تصريحاتهم، كما كانوا يغالون في تعظيم شيخ جماعتهم، بل ويمجدون ذريته كأنها من نسل الرسول محمد ﷺ، ولا يرون لهم نقيصة ويحملون أقوالهم على أفئدتهم كأنها وحي السماء... لكنهم ظلوا محظورين لا يُعترف بهم، ولا يُؤذن لتجمعاتهم... أما بالسياسة، فقد اعتمدوا منهجا آخر، منهج المقاطعة مع الممانعة... نقاطع السياسة والعمل السياسي، لكننا ننتقد ونضيِّق ونُندِّد عن طريق المسيرات والمنتديات والمظاهرات.

يمكنك يا صاحبي يا من تقرأ كلماتي أن تقول إنها كجُلِّ التيارات الإسلامية الحالية، كُلٌّ يُغني على ليلاه... ففاتنته، ليلى الفكر والتوجه، منمقة بمساحيق التصعب الصارخة، لا ترى إلا بمرآة فكرها وفهمها، وتحاول رشق مرايا الآخرين بحجارة البدعية والتكفير والقصور الفكري والعته، فلا ترى خللا ولا دنيئة ولا معرَّة ولا عيبا إلا بالأخرى... وكل نقد داخلي محكوم عليه بالطرد من رحمة الشيخ والجماعة.

المهم... لنتابع أحداث هذه المهارشة الذي لا طائل منها.

هنا تدخل أحد الواقفين أمامهما، والذي بدأ الملل يدب في نفسه جراء هذا التأخر المفرط... لقد أذاعوا أن وجبة الكفتة قد انتهت، وهم الآن يحاولون طبخ طبق بديل لها... كانت الأفواه قد بدأت في الاستنكار وطرق الصحون بالملاعق الحديدية... كانت فرصة مناسبة لمريد الجماعة المحظورة، كي يبث دعوته ويقضي ملله، فقال:

- لكن واقعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما نادى يا سارية الجبل ثابتة بالحجة والنص البَيِّن.

كان رد مراد سريعا فقد تلقف قول معارضه الذي لم يكن إلا أحد أعضاء الجماعة البارزين، وقال مبتسما في تهكم:

- كيف أبدو لك... أصالح أم طالح؟

- صالح بالطبع.

كان جواب المهدي بولعود مترددا لكنه حاول طمس توقفه في إيمان مراد بابتسامة مُصطنعة... لكن مرادا لم يُعر ذاك اهتماما بل واصل جرَّ صنارته التي غمز صائدها، وقال في مكر:

- إذن ما تقول إن خرجت إلى هناك...

وأشار خلف زجاج المطعم المدرسي إلى ساحة رياضية كانت مخصصة للعب الكرة الطائرة... وأضاف في خبث:

- ثم جمعت القوم وقلت لهم: أنا وَلِّي من أولياء الله الصالحين وعندي كرامات... ثم ارتفعت في الهواء مُتحدّيا جاذبية نيوتن... هاه ما ستقول؟... أأنا إذ ذاك ولي من أولياء الله الصالحين؟

تردد المهدي في الجواب... لكن نظرات مراد المتحدية والطلبة المهندسين الذين تجمهرت آذانهم حولهم ينتظرون جواب المريد، لم تدع للمهدي منزعا آخر، فقد حوصر كما ظن... لكنه لم يعِ إلا وهو يرمي جوابه:

- نعم... ولي!

هنا انفجر مراد ضاحكا، بل كادت قهقهته أن تطيح بأم رأسه لولا أن أمسكه رفيقه حسن... أطبق حاجبيه ثم قال في تهكم واضح:

- وما أدراك؟... ألا يمكن أن أكون ساحرا... أُسَخِّر الجن... أو لاعب خفة أجيد الدهاء؟!

لم يتقبل المهدي تهكم مراد الصارخ... لكنه ظل هادئ الجانب، ليَرُّد في لينٍ:

- السلفية قوم جامدون جافون... لا يخاطرون سوانح الفؤاد فيغرف من معين النبوة... قدمتم فهمكم الجاف للنصوص ولم ترشفوا من فيض روحانياتها، ليس لكم حظا في حديث رسول الله إلا هذا صحيح وهذا ضعيف، لكنكم تنكرتم لفقه الحقيقة، بل حتى فقه الشريعة قد قَصُر فهمكم بها.

لم يجب مراد، بل كان أحد أصدقائه السلفيين من تلقف الكلام وانهال بعبارات الاتهام نحو المهدي:

- أما أنتم فقد خالطتم الشرك... واقترن دعاؤكم لله بتوسلكم بالمخلوقين... بل هجرتم دعاء بارئكم إلى طلب الوسيلة من غيره.

هنا انفلت المهدي من عقال لينه... فقد عَلِم أن كثير من الطلبة جانبوا صلاة الجماعة وهجروا إمامته لهم بمسجد المعهد بسبب هذه الأقوال التي يذيعها السلفيون والمتعاطفين معهم... لقد وصلته أصداء الأصوات من ممرات الداخلية تحدثه أنهم يرمونه بالشرك، ويتهمونه بالمروق عن الحنيفية، خاصة أن جماعته تُجيز التوسل بذات رسول الله ﷺ...

- أنتم مخدوعون بإشاعات المخزن... بل تعينونه علينا... ثم...

سكت قليلا... لكنه أضاف:

- ثم لقد أجاز الإمام أحمد بن حنبل التوسل برسول الله ﷺ.

ارتبك كثير من الحاضرين لكلام المهدي... فإن سَلِم له قوله فقد

حصد فوزا عقديا قلما يُحققونه أمام السلفيين... لكن صديق مراد الذي رد آنفا قال في ابتسامة ساخرة:

- لقد اعتدنا منكم الكذب على سلفنا... وتبرير مُعتقدكم الفاسد... و...

لم يكمل الكلام حتى قاطعه صوت أشج من خلفه... كان المُكلف بداخلية معهد المهندسين رجلا ضخما أوطف الشارب والحاجبين (كث الشعر) أحثرا (غليظ الجفن)... قال في تثاقل:

- قد أتيتم بعُجركم وبُجركم هنا... تحركوا فقد عطلتم الصف بنقاشكم الهزيل.

- سي الغلماني... لقد...

- قلت تحركوا... فقد حُلت مشكلة الكفتة.

أطرق الجميع رؤوسهم جارِّين أرجلهم نحو المكان المخصص لملء صحونهم الحديدية بشيء من الأرز الأصفر، وقطعة لحم تأبى القطط عن أكلها، وشبه سلطة قد تداخلت مكوناتها لتصير كعصيدة البطاطس!

لكن مرادا قد سُلِب إلى عالم آخر... كان يفكر في كلام المهدي... هل صحيح أن إمام أهل السنة قد أجاز التوسل بالنبي ﷺ... كان يتذكر كلام شيخه عبد اللطيف العماري جيدا... لقد أنكر على من يتوسل بذات النبي ولم يُجز في ذاك سوى التوسل بحبه، فلا يُتوسل بالأشخاص بل بالأعمال الصالحة... والتوسل بغير الله شرك لا خلاف فيه!

لم يفطن لما حوله، بل كان مأخوذ الوعي... لم يُفِق إلا عندما تدفقت كلمات صديقه بباحته السمعية... كان يُحدثه عن كلام أحد كبار شيوخ

السلفية بالمغرب في تلك الجماعة، وأن ادعاءهم التصوف السني محض افتراء... فلا يوجد تصوف سني بل هناك البدعي فقط...

في مساء ذاك اليوم كان مراد يمسك حاسوبه الشخصي ويقلب بين المواقع والأقوال عن حقيقة الوسيلة والتوسل.

نجيع

- 1 -

سقط كل شيء مع سقوط أبويها... كما سقط ديوان الشعراء وأوتي من قواعده، كان ذاك معبد حرفها ومشهد أبيات شعرها التي اهتزت لها جدرانه، وشهدت عليها لَبِنَاته... لقد دمره البورتوغاليون مع دخولهم وغزوهم لأرضها، قتلوا الأدباء وذَبَّحوا الشعراء وجزوا رؤوس الأولياء... خلت المنازل من أهلها وغادر أغلبهم أرض يابرة إلا قليلا منهم، ممن لم يجدوا راحلة أو شدتهم قلوبهم وأثقلتهم عن الذهاب، فاختاروا التخوم والنواحي لعل نسيم يابرة المميز يظل يداعب شعيرات أنوفهم... لكن هيهات فقد أُبْدِل بزفرات أهل أبورتو المُغتصبين لعذرية أرضهم.

كانت سارة تكتب دون وعي وتسجل تواريخَ وأحداثا حول يابرة وسكانها... فجأة وقف انسياب قلمها وعرجت بنظرها من الورقة إلى المرآة الضخمة التي كانت تتوسط الجدار... لكن صورتها لم تكن هناك، بل كانت قسمات عائشة هي من تنبعث من خلف الكريستال المصقول، لتتبخر بعد حين وترى مشاهد متضاربة أخرى... كان بعضها عبارة عن كليشيهات لغزو يابرة، وأخرى لمجموعة ثورية تشكلت لردع الاحتلال البورتوغالي، والمذابح الواسعة للمسلمين التي زحفت غرب شبه الجزيرة الأندلسية.

كانت القوى الصليبية الناشئة تسري كالأكلة تلتهم القصعة الإسلامية

بالأندلس، فما كادت دولة بني أمية تسقط وتتهادى إلى الزَّوال، حتى مُدَّت يد قوم أبورتو (البورتوغال) لبراغة، فأخضعوها وجعلوها قاعدة لدولتهم الناشئة... وما كادت الدويلات الطائفية تتشكل حتى بدأت في الزوال، فما بُني بمحاذاة جرف هار مصيره إلى القاع ولابد... تساقطت تلك الدويلات الهشة تباعا لتسري أنامل البورتوغاليين المخضبة بدماء المسلمين، إلى قاعدة بني الأفطس، شنتمرية، لتغدو قلعة من قلاع الصليب، وبعد مدة يسيرة أصبحت مدينة قلمرية هي الأخرى بيديهم... فكان البورتوغاليون كحشرة سنبلات القمح، ما إن تصل لسنبلة حتى تتخذها قاعدة، فتُتلف الزرع وتُنهك حمولتها وريعانها لتستحيل جوفاء، فتنصب بحدودها مقاصل التفتيش لجز رأس كل موحد ومؤمن.

وها هي يابرة تسقط تحت سنابك خيولهم، لقد انشغلت الدولة المرابطية بالانقلابات التي تتابعت بأراضيها، خاصة القبائل الجبلية التي اصطفت بجانب الدولة الناشئة الحديثة، الدولة الموحدية. كما أن جيش المرابطين أضحى عليلا بعد الانقسامات التي نخرت قوته وأقعدت عزيمته، بل الأصداء التي كانت تصل حول مبايعة بعض الدويلات الأندلسية للموحدين، كشرش، وسقوط آخر قلاع المرابطين بالشمال المغربي، سبتة، واقترابها من رفع أعلام الدولة الجديدة التي بث بذورها محمد بن تومرت، والتي تشبه رقعة شطرنج مربعة، كانت تعلن عن زوال أكيد للملثمين.

سكن القلم مرة أخرى، لتجد سارة أن عبراتها بدأت تنزل وتبلل الورقة المستسلمة بمكتب غرفتها الخشبي... كانت أنغام أغنية «كسر العُرْف

«(Breaking The Habit)» الأمريكية تعم المكان، وصوت مغني الهارد «تشستر بنينغتون» ينشر أريج كلماته بالمكان.

Memories consume

الذِّكْرَيَاتُ تَحْفِرْ

Like opening the wound

كَمَا يُحْفَرُ الجُرْحُ وَيُنْخَرْ

I>m picking me apart again

وَانْتَشَلْتُ نَفْسِي مَرَّةً أُخْرَى

You all assume

أَدْمِغَتُكُمْ تَعْتَقِدْ

I>m safe here in my room

أَنَّ غُرْفَتِي يَسُودُهَا الأَمَان

Unless I try to start again

رَغْمًا عَنْ هَذَا... مَرَّةً أُخْرَى سَأُحَاوِل

I don>t want to be the one

فَأَنا لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُون

The battles always choose

دَائِمًا المُختَار مِنَ المَعَارِك

)Cause inside I realize

لأَنَّ كَيَانِي يُدْرِكُ جَيِّدًا

That I>m the one confused

أَنَّنِي سَأَكُون الوَحِيدَ الحَائِر.

كانت كلماته تبلغ مسمعها لتختلط مع كيانها ومشاعرها الحزينة... لم تكن سارة تستمع لألحان القيثارة الكهربائية وتشعر، فقد سُلبت كينونتها مرة أخرى إلى عالم عائشة.

- 2 -

- إن البورتوغاليين قد قاربت جموعهم حصوننا... سقطت الدولة المرابطية، والدولة الحديثة ما زالت تحاول توحيد المغرب الأقصى تحت بيرقها... إنهم مشغولون عنا... لقد أهملوا أهم ثغر وهو الأندلس، وها هي المدن تسقط تباعا بأيدي جيش أبورتو.

كانت سارة ترى جمعا غفيرا يقف أمامها... كانت تعتلي درجا أو ربوة... فعائشة لم تلتفت، لتُمكن سارة من معرفة مكانها... لكنها كانت تحس بحماسة مشتعلة تُلهب فؤادها، كما أن لسان عائشة الذي بات ثوريا يلهث وراء الكلمات المتدفقة مُتوسلا الإمساك بصبيب عباراتها المتسارعة والقوية... أدركت سارة أن المشهد الذي تعيشه قد نُصبت صوره قبل موت والدي عائشة... فأمها كانت واقفة بين الجمع الغفير الذي أحاط بها، وعيناها مثبتتان على ابنتها في خوف وحماسة!

ثم بدأت سارة تتذكر صورا وأفكارا قد خالجت كيان عائشة قبل قليل. تذكرت أن أحد الرحَّالة ممن قدموا يابرة مؤخرا، والظاهر أنها تعرفه فقد كان شاعرا، قد أخبرها أن قرطبة أرسلت وفدا إلى السلطان الموحدي عبد المؤمن قصد الاستنجاد به في دفع القشتاليين... بعد ذاك اتجهت مباشرة

والغيض يخنقها إلى معبد ديانا واعتلت بلاطه وأخذت في حث الناس على سماعها... كان معبد ديانا بناء يوناني الطراز، تحفه أساطين مرتفعة، تعمل كدعامات لبلاط ضخم قد فَقَدَ أغلب أركانه، تحتوي على نتوءات عمودية قد زحفت من الحافة إلى الحافة كأفاع دقيقة القطر عالية الارتفاع تقارب العشرة بكل أسطون.

كانت عائشة تحاول إقناع سكان يابرة بالاستنجاد بالموحدين، قبل أن تسقط مدينتها في أيدي البورتوغاليين، خاصة أن نور إسلام أشبونة قد طُمس ودُنس.

- لقد سقطت أشبونة، وقد بلغنا نكث الصليبيين لعهدهم مع حاكمها... فعاثوا في الأرض فسادا... قتَّلوا رجالها ونساءها، بل حتى الأطفال والرُّضع لم يسلموا من رماحهم وأَنْصُل سيوفهم... لم يدعوا لسانا يقول ربي الله ورسولي محمد ﷺ، إلا بتروه من أصوله، ونزعوا معه الأرواح المسلمة.

- وما عسانا نفعل يا عائشة وما لنا جيش ضخم ولا قوة تصد تدفق قواتهم.

كان المتكلم أحد الواقفين أمام المعبد يستمع للشابة الفتية وقد صدع صوتها وبلغ أفئدة الكثيرين.

- لقد علمت للتو أن السلطان المغربي الجديد عبد المؤمن الموحدي قد أحكم سيطرته على بسيطة المغرب الأقصى... هناك خلف بحر الروم... فانتزع تونس والمهدية من يد النورمان، وهو الآن بقاعدتهم الجديدة... إنه بسلا... فلنبعث بوفد إليه كما فعلت قرطبة، ونستعين به ضد سنابك البورتوغاليين.

تقدم أحد الرجال وتجاوز الدرج ليصبح بجانب عائشة، لكنه لم يرخِ بصره نحوها، بل التفت نحو الجموع التي بدأ صوتها يعلو:

- ما تقول عائشة قويم، ولا مناص لنا إلا هو... أفعَقِمَت أمهاتنا عن إنجاب الرجال؟... أين قضاتنا وفقهاؤنا؟... أين رجالنا الأشداء؟... دامت يابرة سالمة.

ثم رفع يده وقد أغلق كفه إشارة إلى الصمود، ثم رفع صوته بكلمة واحدة... يابرة.

كررها نحو خمس مرات، لتبدأ الجموع في تكريرها متناغمة معه ومع عائشة التي أضحت تصيح هي الأخرى باسم مدينتها... كان الرجال والنساء قد علت أصواتهم باسم مدينتهم، فلا تظهر لك من بعيد إلا أياديهم المرتفعة كسنابل سامقة تناطح السحاب.

لكن الأصوات بدأت تخبو وتنكشح من الخلف، وبدأت الأرض تظهر كممر يخترق الأمواج البشرية... فما يروم أحد عن الجمع حتى يتبعه الذي يليه، وهكذا دواليك حتى شُكل طريق سَهَّلَ مرور مخترقي هذا الحشد.

كان حاكم يابرة الذي كان يمثل سلطة بني الأفطس سابقا يمشي في تثاقل نحو بؤرة التظاهر، ومنبع الصياح الثوري... كان يمسك بيديه خلف ظهره وهي يخطو على الأرض الترابية محفوفا بثلاثة رجال يمثلون أعلى سلطة بالبلاد، قاضي القضاة والحاجب وصاحب المدينة. كان نظر الحاكم مثبت على الواقفَيْن على بلاط معبد ديانا، يرمقهم بعين متثاقلة الجفن، كأنه يرنو إلى النعاس، وما كاد يحاذي درج المعبد حتى توقف قليلا وتأمل

وجه الشابين اليافعين اللذين يقودان هاته الجموع. كان يتأمل قسمات تلك الفتاة، عائشة، الشابة الفتية التي وُسمت بين أقرانها بالفطنة والعلم الغزير، حتى إنها أضحت وجها مألوفا بديوان الشعر، وكانت تحضر لرحلة طلب علم، طالما أجلتها بسبب مرض أمها... كانت تتوق لملاقاة جامع قرطبة وتنهل من أفواه علمائه لكنها الآن خطت طريقا آخر... طريقا ثوريا لم تظن قط أن الأقدار ستدفعها دفعا لمعانقة دروبه وأزقته الضيقة!

كانت سارة تحس بتدفق غامض مشوبا بالحزن والحرقة، تقذفه مقلتا الشيخ الذي أمامها، مع مزيج فريد لحنان بثه فانبرى القلب يرفرف... لما؟... ربما أدرك فؤاد عائشة أن الحاكم سيوافقها رغم أن شفته لم تنبس بشيء، فأرسل سعادة أحست بها سارة!

- كبرت يا عائشة.

حرك بها شفتيه، ثم التفت نحو الجمع البشري الذي ما وجد الكلام بينهم موطئ قدم، فأضحوا صامتين خوفا ومهابة... انتظر قليلا ليستجمع طاقة تمكنه من إيصال صوته لأبعد مكان، ثم قال بصوت مرتفع كدوي طبل يُقرع بواسطة كف حدَّاد:

- يا أهل يابرة، سنبعث غدا وفدا إلى السلطان الموحدي عبد المؤمن، سنبايعه وليا شرعيا على بلادنا... وسنطلب منه المعونة ضد الزاحف الغاشم، الصليبي البورتوغالي الذي نصب مقصلته حول أعناق المسلمين.

كان الثلاثة المرافقون له قد اصطفوا جانبه... نظر نحوهم ثم أشار لهم قائلا:

- هؤلاء سيكونون ضمن الوفد المُرسَل، قاضي القضاة هارون بن عبد السلام المجريطي، والحاجب يعقوب بن زيد، وصاحب المدينة طاغور الإشبيلي، إضافة لشخصين آخرين، وهما مسلمة بن هارون وإدريس بن طاغور، وذاك ليكونا ساعدين يشدان أزر الوفد... فأنتم تعلمون شدتهم وبأس صوارمهم.

التفت الحاكم مرة أخرى نحو عائشة، وقد زاحمت وجنتيه ابتسامة حنونة قد وُشحت بحزن بَيِّن، ثم قال:

- معذرة ابنتي... لقد رَكَنت الهمم وتثاقلت العزائم... لكن كوني متيقنة... بل كونوا متيقنين أنني لن أسلم شبرا من يابرة ولو تدافعت شهقات الروح معلنة الرحيل عن هذه الحياة.

كان قد التفت مع جملته الأخيرة إلى أهل يابرة المجتمعين... ثم رفع يديه قائلا بصوت أعلى من سابقه:

- الجهاد... النصر أو الشهادة.

لا تعلم سارة ما سر الشماتة التي أطلقتها قسماتها... فموقفهم هذا كله سيَطويه الزمان، ولن يذكره ولن يُعرف شخص منهم أبدا... إلا صورة مشوهة سترافق عائشة لقرون... صورة قاتمة شنيعة ستزج بها وسط أساطير الجن والأرواح!

أرادت أن تخبرهم كي يحافظوا على أرواحهم ويعيشوا بسلام، لكن إرادتها مسلوبة من هاته الخرقاء التي تقودهم للهاوية... نعم هاوية سيُقتل بها الحاكم، بعدما يُقتل الوفد كله عن بكرة أبيه قبل وصولهم لبحر الروم، سوى مسلمة الذي سينجو لكنه لن يسلم من جسم مثخن

بالجراح. لقد غُدر بهم كما سيغدر بالحاكم ويُجَزُّ رأسه ليعلق على باب يابرة... كما أن هؤلاء القوم لم يُدركوا أن السلطان الموحدي سيموت بعد سنتين، لتُقبر معه عزيمة استرجاع ثغور الأندلس... إنهم لا يعلمون، لكن سارة تعلم فقد كان عقلها يحيك أنسجته بما سيقع بواقع يابرة... لقد نسج بعصبوناته أن يابرة ستسقط بعد أربع سنين بيد البورتوغال نهائيا، وأن أهلها سيذوقون ألوان العذاب جراء مقاومتهم، ولن ينج منها إلا القليل... القليل من السكان ممن سيهاجرون نحو سبتة وتخومها... أما القليل الباقي فسيقسمون بين مُذعن للقادم الغازي، ومُلتجئ لتخوم المدينة ليرضوا بالعيش الضنك.

كانت سارة قد فارقت شماتتها، وأرسلت دمعة وسط الظلام الذي بات يُغلف فؤادها... فقد أحست أنها ستشهد نجيع القوم على جدران منازلهم لا محالة... حسست بيديها على وجنتيها متفقدة عبراتها الحارقة... لكنها وجدت لزوجة غير طبيعية... وضعت كفها بنظرها لتجد معين دمعها قد أرسل دما تتقاطر قطراته إلى ما بين قدميها... عرجت بنظرها للأسفل لتجد الدم قد شكل حروفا قد رأتها سابقا... كانت تُشكل بالفضاء الأسود لفظ:
الدم

- 3 -

I don't know what's worth fighting for

لا أَعْلَمُ قِيمَةَ هَذا القِتَال

Or why I have to scream

وَلِمَاذَا سَأَشْرَعُ فِي الصُّرَاخ

I don>t know why I instigate

لا أَعْلَمُ لِمَاذَا أُنْدَفِع

And say what I don>t mean

وَأَقُولُ مَا لَا أَعْنِي

I don>t know how I got this way

لا أَعْلَمُ كَيْفَ وَلَجْتُ هَذِهِ الطَّرِيق

I know it>s not alright

أَعْلَمُ أَنَّ فِيها زَلَل

So I>m breaking the habit

لِذَلِك، سَأَكْسِرُ العُرْف

I>m breaking the habit

سَأَكْسِرُ العُرْف

Tonight

الآن

كانت أنغام إحدى أغاني مجموعة الهارد روك الأمريكية «لينكين بارك» (Linkin Park) مازالت تعم المكان...

كانت أغنية كسر العُرْف مازالت تُطرب جدران غرفتها!

كانت سارة تنظر للمرآة بعينين متوردتين كأنها بكت دهرا... ثم أحست بلزوجة غريبة بيديها... لم تشأ النظر إليها فقد خالج سريرتها هلع جحظت معه عيناها فكادتا أن تغادرا المحجرين... علمت أنه دم عينيها!... بل رأت

أثره القاني على مكتبها الخشبي... كان ذاك شاهدا على واقعية أحلامها... كان ذاك شاهدا على تأثرها بأحداث خيالها السارح...

ثم أغنية كسر العُرْف كانت تنتمي للائحة طويلة من أغاني المجموعة الغنائية المختارة، وتتذكر جيدا أنها لم تقم بتفعيل زر إعادتها ولا إعادة الألبوم... نظرت نحو الحاسوب الشخصي فوجدت أن سيرورة الأغنية مازالت كما تركتها قبل رحيلها لعالم يابرة... وكل ما عاشته هناك لم يتجاوز دقيقة واحدة!

ماذا فعلت بها تلك الحادثة... لقد نَسيت شيئا مهما قد وقع أثناءها... نعم نسيته... نسيت أن عائشة هي من كانت سببا في انقلاب سيارة سفيان... هي من كانت تقف وسط الطريق... ثم تذكرت عينيها المظلمتين.

لم تكن سارة تعلم إن كانت تكره عائشة أم تحبها... لم تعرف مدار إحساسها ولا تمكنت من مناجاة قلبها عساه يخبرها بما ألم بها. رفعت كفها نحو ناظريها، لتجد النجيع الأحمر قد اختفى، كما اختفى أثره من فوق المكتب!

ثم عم السكون إذ اختفى صوت الأغنية وألحانها... ثم فجأة سمعت صرخة من الفراغ تصدح برأسها... كان وقعا قويا حتى أنها ضغطت بكفيها على صدغي رأسها عسى أن يخففا من وطأة الصوت... كان يلفظ كعادته اسم مُعذبتها:

عــــــائــــــشــــــة قــــنــــديــــشــــة

هرطقة وعته!

- 1 -

الآن: نحو خريبگة.

كانت الأرض تُطوى من خلفه كأن كائنا خرافيا غير مرئي يبتلعها دون توقف، إلا أن التلال الضخمة التي ترفع قامتها بالأفق أبت أن تطاوع الكائن الخرافي وأن تنصاع لابتلاعه المتواصل، فقد أبت عن ترك مجال رؤية مراد الذي كان يرمقها من خلف الزجاج المُظلل للناقلة... كانت الأرض التي أمام الأوتاد الطبيعية كبساط ضخم أصابه جرب فما ترك سوى نتوءات خضراء وصفراء متفرقة هنا وهناك.

كان صديقه حسن الراشدي يجلس بجانبه، وكعادته لم تسلم أذنا مراد من سيل الكلمات الجارف من فم صديقه، كان يحدثه عن أشياء كثيرة ومواضيع مختلفة، غير أنه لم يتذكر سوى الحديث حول تاريخ مدينته الأم وكيف أن جده الأكبر قد فر بأسرته من صراعات عائلية كادت أن تخسف بهم تحت الثرى، فقد ترك السلطة والنفوذ للمتصارعين من إخوته وأبناء عمومته وفر لتلك الواحة النائية كي يُؤسس نواة مدينة متكاملة، لكنها ما زالت تعيش التهميش إلى الآن!

كان مراد يتأمل الأعمدة الكهربائية المعدنية الضخمة التي كانت تقف في شموخ وسط يباب الأرض، كان يحاول أن تلتقط ذاكرته صورا لعُقَد الربط بين أعمدتها، وتشكيلاتها الشبكية المميزة، حتى أنه أخرج مذكرة صغيرة وأخذ

يرسم أشكالا مبسطة لما استطاعت عيناه أن تظفر به، عساه أن يستغلها في بناء نموذج المنشأة المعدنية على برنامج المنشآت المعدنية الإلكتروني بحاسوبه الشخصي. ألقى حسن نظره لتدوينات مراد وخطوطه الهندسية التي ملأت صفحات مذكرته الصغيرة، كان يعلم هدف صديقه من تلك الرسوم، غير أن حبه للثرثرة والكلام جعله يسأل لفتح صفحة حديث جديدة:

- ما هو العمل الذي اخترته بمشروعك الدراسي هذا العام؟

رمق مراد صديقه بطرف عينيه، رسم عُقَدَ رَبْطٍ جديدة، ثم ألقى بنظره مرة أخرى إلى خلف الزجاج... لكنه لم يُرد أن يترك صديقه بلا جواب رغم أنه يعي جيدا أن حسن لا يتوسل سوى الثرثرة وتجاذب أطراف الحديث... ظلت عيناه تنظر للخارج، تتأمل المنظر الرائق الذي تَمَثَّلَ حديثا لأشجار الزيتون المتراصة كفيلق حربي ينتظر الهجوم...ثم قال لصاحبه مجيبا:

- لقد اخترت تصميم عمود كهربائي معدني خاص للتوترات الكهربية العالية.

- إنه مشروع صعب بالنسبة لنا... فقد علمت أن طلاب السنة الثالثة يجدون صعوبة بمشاريع كهاته... ونحن مازلنا بالسنة الأولى من سلك المهندسين.

- إنني أتقن برامج التصميم المعدني، لذلك اخترت شعبة المنشآت المعدنية والميكانيكية.

- وعلى أي برنامج إلكتروني ستعمل؟

- أنا أتقن برنامج طيكلا للهياكل المعدنية، والروبو الخاص بتحليل الهياكل... وهما كافيان لمشروعي هذا العام.

كان مراد قد ترك منذ شهرين برنامجه بالعلوم الشرعية، فبتر دروس الفقه والعقيدة التي طالما واظب عليها، كما أنه لم يذهب لدروس شيخه عبد اللطيف العماري منذ مدة...

- أين وصلت بدروس شرح متن ابن شعاع التي كنت مواظبا عليها؟

- اسمه ابن شجاع... لقد أكملته وبدأت سلسلة أكثر تعمقا... لكنني توقفت منذ زمن.

ابتسم حسن الذي أرخى رأسه على طرف الكرسي... ثم قال في مكر:

- أهو بسبب إنكار الأخوة وتشنيعهم عليك؟

لم يجب مراد، لكنه تذكر كيف أنكر عليه بعض الإخوة الملتزمين عندما رأوا كراسته العلمية التي حَوَت تفريغه لدروس الفقه... لم يستسيغوا أن يبدأ مسيرة طلبه بمتن لم ينصح به علماؤهم، أخبروه أن علماء ومشايخ الدعوة قد حققوا مبتدأ الطلب في كتاب عمدة الأحكام، وحددوا كتاب شرحه في بلوغ المرام للعلامة البسام... كان يناقشهم في اختياره، وأن لِكُل قبلة هو مول قلبه شطرها وأن:

- لقد اخترت التمذهب وفق مسلك الإمام الشافعي... لقد بحثت قبل أن أختار، ووجدت أن هذا المذهب أقرب لفهمي وأكثر إحاطة لتصوري.

- 2 -

حدث قبل هذا: المعهد الهندسي.

كان الإخوة مجتمعين كعادتهم بغرفة مراد، يتحلقون حول براد شاي قد بدأ في إرسال سنبلته البيضاء الممتزجة بصوت غلي مائه إيذانا ببلوغه للمرحلة الأخيرة، التشحيرة... كانت الغرفة بداخلية المعهد تضم

كمشيلاتها أربعة أسرة بيضاء، تربض بمحاذاة زوايا الغرفة الأربع، تتوسطهم طاولتان قد ألصقتا ببعضهما وغُطَّتا بجرائد فرنكوفونية.

كان حسن قد تمدد على سريره، أما الأسرة الأخرى فقد ضمت من اثنين إلى ثلاثة أشخاص... لم تكن المسحة السلفية تشملهم كلهم، بل كان بعضهم حليق اللحية، ومنهم من يلبس ملابس رياضية... وكانت هاته الملابس هي غالب لباس الطلبة ليلا، فهي ملابس نوم ورياضة في آن واحد، أما البيجامات الليلية فلم تكن تُشاهد إلا لماما.

نظر أحد الحليقين لمراد في مكر تلمسه بتثاقل جفنيه، كما زادته لهجته المراكشية ثقلا آخر أضفى شيئا من التهكم الممزوج بخبث بَيِّن بكلماته... قال عبد الوافي في تساؤل استنكاري وهو يقلب أوراق كراسة مراد:

- آجي؟!... هل تريد أن تتمذهب؟!... واش أنت سلفي غير بالفم؟!
- وما شأن السلفية بالتمذهب؟

أجاب مراد بخنق مُوارَب وهو يصب المزيج الأحمر بكؤوس الكريستال المزركشة برسوم للعنب (كأس العنبة كما يسميه المغاربة).

- ألم تقرأ مقدمة كتاب صفة صلاة النبي للعلامة الإمام الألباني في ذم التمذهب؟
- نعم قرأتها... وماذا بعد؟

كان حسن دائم الإعراض عن مساجلاتهم ومحادثاتهم، فهو يتبع منطق اعتزل كل القوم، صل وصم وتجنب المحرمات وحاول أن تلتزم بالأخلاق عامة، وهذا كاف شاف كما أخبر مراد سابقا... كان أحد الحاضرين قد أمسك طرف الكلام وأجاب مراد:

- لقد ذم الإمام الألباني التمذهب، وأوضح ضرورة اتباع الدليل فقط.

- لم تفهم كلام الشيخ الألباني يا أخي.

قال مراد موضحا، وأضاف:أأ

- كلامه يحتمل أنه ذم التعصب المذهبي وليس التمذهب عامة... ثم يا أخي أنت تعلم أن الشيخ الألباني ليس بفقيه ولا أصولي، بل إنه خالف أصحاب الحديث في أمور عديدة... بل وأفتى وفق المذهب الحنفي أحيانا.

هنا قاطعه عبد الجليل:

- وا ناري آ الأخ!!... ما هذا العته الذي تتلفظ به؟!!... بَانَ لي أنك شخص من إثنين، مبتدع صوفي أو تكفيري... فلا يمقت الشيخ الألباني إلا هذين النوعين من الناس... اتق الله آ الأخ!

كان عبد الجليل شخصا نحيلا شديد الهزالة، قد أرخى لحيته التي تشابه لحي الصينيين في تحدبها، وحف شاربه من جذوره فما أضحيت ترى سوى بياض ناصع فوق شفته، كأنه وَحمة بيضاء فاقع لونها... فالظاهر أنه لم يحلق شاربه منذ نبت في بادئ الأمر، حتى لحظة التزامه الظاهر بسنة النبي الأمي سيدنا محمد ﷺ، على حد فهمه للحديث، أو قل على حد قول شيخه في الحديث. كان عبد الجليل عضوا سابقا بإحدى فرق الراب الصغيرة... هائما على وجهه يتلمس أي مهرجان غنائي أو أيام ثقافية قصد المشاركة، مما قاده إلى أن يعيد مباراة الولوج للمدارس العليا للمهندسين ثلاث سنوات، حتى تمكن من ولوج هذا المعهد بشق الأنفس... كان

بسنته الأخيرة قد تخلى عن فرقته وتوشح بقميص قصير وأعفى لحيته، لكن بذاءة كلمات الراب ظلت تلاحقه مرة تلو مرة.

كان عاديا أن يتلفظ عبد الجليل بكلامه هذا، وذاك ما أدى بمراد إلى الإعراض عن كلامه، فشخص كعبد الجليل لا يلوك إلا ما يُبث له عبر الأشرطة التي يسمعها، والتي غالبا ما ضمت درسا لأحد تلامذة الشيخ الألباني أو أحد محبيه... كان هؤلاء (أمثال عبد الجليل) أشخاصا قد وضعوا موجهات غير مرئية ناحية بصرهم، تجعلهم يسلكون طريقا واحدا، ولا يتقبلون طريقا غيره... كما كانت تمنعهم من رفع رؤوسهم لسماء الإسلام فَيَرَون شساعتها وحضنها الممتد لتضم كل التيارات والجماعات الإسلامية.

لكن ما أحزنه وأعلَّ قلبه هو جواب الأخ سمير الذي كان على قدر كبير من العلم كما أنه كان أحد كوادر دار القرآن ببلدته... كانت كلماته التي بثها لطيفة كالهمس، لكنها تواري بطيات حروفها هجوما عنيفا، يحرق الفؤاد والفكر معا:

- ما بال الأئمة العلماء يُلمَزون من أحداثٍ فهم وفقه... بل ممن لم يصل قلبه لاستيعاب علم الإمام الواسع واطلاعه الكبير.

صمت سمير الذي غطت لحيته الضخمة والمشذبة صدره الواسع... كان يترك حيزا من الوقت كي تنغرس سهامه الكلامية بوعي مراد، وتبلغ مداها بفهمه... ثم أضاف في سكون ووقار:

- قلي لي يا مراد... كم سمعت من شريط للشيخ الألباني، كم هو عدد محاضراته التي خالطت سمعك كي تتجرأ عليه وتلمزه؟

لم يرد مراد أن يصطدم مع الإخوة بالمعهد، فقد أضحت قناعاته مصدر إزعاج لكثير ممن لاقاهم، وسببا في هجرهم له أو تجنبهم له

كأدنى قرار يتخذونه اتجاهه. كما علم حسن أن أوداج الاحتقان ما فتئت تتضخم وستستحيل إلى الانفجار، فحمل البراد الثاني الذي شارف على النضوج، ثم بدأ في إعادة سكب ذاك الترياق الأحمر ذي الرُزَّة (العمامة) البيضاء، كان يرفع البراد عاليا عساه أن ينسج رزة أكبر، وقد بدأ يتحدث حول موضوع عام مستغلا موهبته في الثرثرة، وَلَيِّ وجهة أي موضوع وفق ما يريد... كانت كلماته تتناغم مع صوت خرير الشاي المكبوب من البراد كشلالات أوزود تريد معانقة السفح... تحدث كثيرا عن الأيام الثقافية التي ستنظم بالمعهد، واستطاع تحويل دفة الحوار للحديث عن المحاضرات الدينية التي ستتخلل تلك الأيام وموضوعها وسيرورة تحضيرها وغير ذلك... لكن مرادا كان يعلم جيدا أن موعد اصطدامه مع سمير قد قرب وما تُرك لقوس سهمه من منزع.

– 3 –

الآن: نحو خريبگة.

اختل توازن الناقلة التي كانت تطوي الطريق الوطنية رقم أ/ 8 إثر تشقق بالإسفلت، لقد اقتربوا كثيرا من مدينة خريبكة المغربية، ومن منشآت المكتب الشريفي للفوسفاط. كان ذاك الخلل بتوازن الناقلة كافيا للعبث بفؤاد مراد!

لم تمتص مكابح صدمات الناقلة الاهتزاز جيدا، لتُخل الصدمة من توازن مراد ويفقد تأمله في الأراضي اليباب التي كانت ترتسم أمامه خلف الزجاج... بعد ثوان أراد أن يعيد جلسته لهيأتها غير آبه بحديث حسن عن أحوال الطرق والحفر التي باتت كندوب مرض حب الشباب

المزمن... عَدَّل مراد قميصه رافعا إليتيه عن الكرسي الإسفنجي، وما كاد يكمل تعديله ويجلس حتى استقر بصره عليها... لقد شدته وخطفت وعيه صورتها المتشكلة على زجاج الناقلة الذي أمامه.

كانت تجلس بالمقعد الذي أمام حسن، مما جعل قسماتها تنعكس على النافذة المحاذية للمقاعد الجانبية... كان يراها مرارا وتكرارا... كانت زميلته بنفس القسم... لكنه الآن كأنه يراها لأول مرة... خفت ذاك الشعور المضمر بالكره نحوها فجأة... كان يكرهها... فكبرها البادي وعنترة كلماتها بنقاشاتها بالفصل، ونظرتها الدونية الظاهرة بكلماتها نحو زملائها، كانت كافية لزرع بذرة المقت بنفسه... كان يمقتها لمعرفته فيما بعد أنها ملحدة، لكن ما بال الفؤاد يرتعش الآن؟... ما بال نبضات القلب تتسارع محاولة أن تتفلت من مربضها نحو رحابة الحب... حب؟!... بل إنها هرطقة قد بدأ قلبه في نسج جنونها... كان يرى قسماتها وقد دافعت ضياء الشمس المنبعثة من خلف الزجاج، لتستحوذ على مشكاة الحياة... هل كانت نظرة تشكلت في ثوب الإعجاب... أو كان حبا مُضمرا قد انتفضت أركانه لترسل ترياقها بقلبه؟!

كانت إليته لم تعانق المقعد بعد، فقد تسمرت أعصابه أو قل وقفت إجلالا لإحساس الحب العظيم.

فطن حسن لوجهة نظر صديقه، ليرسل ضحكا متواصلا ضجت منه الناقلة وهو يقول في خبث:

- هاكَّاو على غض البصر!

كان الطلبة المهندسون يحاولون إرسال نظرهم اتجاه المقعد الذي أطلِقت منه القهقهة، عساهم أن يظفروا بتفسير... كما أطلق مراد ابتسامة

مصطنعة من بين شفتيه، ثم أكمل جلسته واستوى ليرخي بأم رأسه ملامسا رأس المقعد الناتئ. أطلق كلماته من بين شفتيه، وطفق يُنشد كلمات أنشودة العفاسي القديمة من المقامة البصْريّة: خلِّ إدّكارَ الأربع، للحريري، وما كاد ينهي البيت الأول حتى أضحت كلمات حسن تتناغم مع صديقه:

خلِّ إدّكارَ الأربُعِ ... وَالمَعْهَدِ المُرتبعِ
وَالظاعِنِ المُوَدِّعِ ... وَعَدِّ عَنهُ وَدَعِ
وَاندُبْ زَمَانا سَلَفَا... سَوّدتَ فِيهِ الصُّحُفا
وَلمْ تزلْ مُعتكِفا... عَلى القبيحِ الشنعِ
كم ليلةِ أوْدَعتَها... مَآثِما أبْدَعتها
لِشهوَة أطَعْـتها... في مَرقد ومَضجَعِ
وَكم خُطى حَشتهَا... في خزيَةِ أحْدَثتها
وَتوبةِ نكثتهَا... لِمَلعَبِ وَمَرتَعِ

– 4 –

الآن مساء: الدار البيضاء.

انتهت رحلتهم التعليمية نحو المكتب الشريفي للفوسفاط... كما شارفت الشمس على معانقة الأفق بعدما توشحت باحمرار الحزن الشفقي... كانت الناقلة تلج آنذاك المعهد الهندسي لتستقر بعد حين... لكن قلب مراد ما عرف الاستقرار بعد ذلك، لقد أدرك أن قلبه قد بُعثِرت أحجيته وانتهك ستره... بل فقد الفؤاد عذريته... ثم ابتسمت السماء بنور القمر المكتمل... فأحس أن قلبه قد أوجِع من اختفاء قسمات الحبيب

واضّرر... ثم بحث عمن يبثه النجوى، فما وجد سوى القمر... ناجاه وأسر له ما خالج الفؤاد من لوعة البعد، فانكشح بريقه تأسفا بَلْه قلبه العليل....ثم عرج بنظره، وبث أشواق ولهيب ولهه للسماء فانفطرت وأظلمت النجوم وأطلقت العويل... كل الكون، كله قد واساه بنصب صرح الأسى ومأتم البكاء... واستحال النور لعتمة ظلماء... الكل صار يبكي وينتحب... ومن العويل وشق الصدر يقترب... بل أضحت كينونته تناجي ذرات الهواء متوسلة أن تحمل الأشواق... وتنبري للإشراق... فتثاقلتْ حركاتها من وقع زفراته... وبصم عبراته... حتى حروفه عجزت أمام نبضات قلبه المتسارعة، فما عادت تبين، ولا تهتدي إلى شعورٍ يقين...

فيا قاضي الحب بُثّ حكمك في فؤاد قد عانق الوله، فذبح عقله بين عتبات الهرطقة والعته...

فكان لسان حاله تلك الليلة... الاستعادة من هول البليَّة...

حتى قال وقد أعيته تباريح السدم... من كونها تعانق الإلحاد وتؤمن بالعدم:

- أيا فؤادي ألا تستكين؟!

صداقة وإلحاد

- 1 -

كانت تتفحص الورقة المعلقة بالدعامة الخشبية المغلفة بالزجاج... لقد ظهرت نتائج أول مادة قد امتُحِنوا بها هذا العام... مادة الرياضيات التطبيقية... بحثت عن اسمها، ثم تتبعت السطر الذي حواه... لتجد سارة نفسها تحت المعدل... كان معدلها يحاذي النقطة العاشرة... ولتخطي عقبة كل سنة يجب أن تتجاوز اثنتي عشرة نقطة بالمعدل... لم تقل شيئا ولم تطلق تلك الصرخة المخنوقة التي تدل على الفجأة... لكنها انْسَلَّت، وتتبعت الخطى نحو باب المعهد... لم تُحس بها صويحباتها، فكلهن في فلك الصدمة يسبحن.

اتجهت إلى مأرب السيارات وأدارت المفتاح لتبتعد شيئا فشيئا عن المعهد... لكنها لم تكن تتجه إلى حي كاليفورنيا... بل إلى مكان آخر!

كان قلبها قد بدأت إيقاعاته تتغير، وقد لامست سارة سمفونية جديدة، بدأت تتشكل نوتاتها بين مقامات روحها العليلة، وقد أضحت كينونتها تمسك بكمان مُهترئ محاولة أن تُشكل عليه لحنا حزينا... بل كان النشاز الروحي قد بدأ ينقش ترانيمه على خط عقيدتها...

«وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ»

ربما بدأ فؤاد عائشة يؤثر بها، ربما أضحت تتشرب نهج خليلتها التي تسكن بين ثنايا روحها، ولربما بدأت تنصاع لتلك المشاهد التي تنسج حُلَّاتها

حول قلبها وتُحيده شيئا فشيئا نحو صياغة رؤية جديدة لفكرها وثقافتها!

تضاربت بين أضلعها المشاعر والأحاسيس، وضربت نفسيتها أخماسا في أسداس، وحاكت أسئلة لا جواب لها بمعين أفكارها، كان كيانها عليلا لا يقيم جوابا مقنعا واحدا حول تتبع خط المنايا من أناس، لا لشيء إلا لقناعاتهم العقدية... لا لشيء إلا لإشباع غرورهم العقدي المتهالك!

أرادت الابتعاد عن كل شيء... ليس النقطة فقط، إذ أن ذاك المعدل الباهت لا يطأ محلا بقلبها... كانت تريد أن تنأى بنفسها عن حياة باتت رتيبة خيطت عباءتها لتحيل دنياها إلى السواد. حياة مُختزلة في نوم، ومأكل وفصول دراسية كئيبة، بل ومواد لعينة لا تُغني فكرا ولا تبني ثمرة معرفة... مواد تقنية لعينة رتيبة... رسم صناعي وإلكترونيك والبناء الميكانيكي وغيرها من مواد دراسية تركز على ألف باء الميكانيك والكهرباء. لقد فكرت سارة في غبن ما وجدته بالمعاهد العليا للهندسة، فبعد سنتين من الأعمال الفكرية الشاقة والرياضة الذهنية المتعبة، ها هي الآن تدرس الفرق بين البرغي والصامولة.

ـالانت تتمايل على إيقاع نغمات أغنية «رومانسية سيئة» (Bad Ro-mance) للمغنية «ليدي غاغا» (Lady Gaga)، بعلبة «الخطوة الساخنة» (Le pas chaud) الليلية. فقد وجدت نفسها بلا وعي تخترق الطريق السيار وصولا لمراكش. ثم وبعدما خاطت الشوارع لحدود سدل عباءة الليل الحالكة، توجهت لتلك العلبة الليلية التي طالما رافقت سفيان وميساء إليها، خاصة بعد كل امتحان يخوضون غماره بالأقسام التحضيرية... ربما الحنين لأصدقائها هو من حملها على كفيه إلى هنا... أو هي أرواحهم تريد أن تحافظ على عادتهم بعد كل امتحان.

رفعت كأسها الذي أحاط بنبيذ أحمر من نوع الميدالية، وصاحت:

- نخب أرواحكم يا خلان الروح.

ثم رمت بالسائل الأحمر بفمها، وتابعت الرقص بعد أن وضعت الكأس الفارغة على إحدى الطاولات القريبة. كانت تتيمن في تمايل جسمها على الإيقاعات المتسارعة أن يسلب منها تفكيرها المتواصل حول حياتها الجديدة، وأن يمحَق تضارب أحاسيسها تحت تأثير الخمر والثمالة. لكن بنات أفكارها آثرت التهارش والمقارعة، فنصبت منصات الجدل على عتبات خيالها وسريرتها، وزاد ضجيج الفكر، فما عاقر فؤادها السكون!

لقد دُفعت جرعة أخرى من مصل الأفكار بين أوردتها، مع وصول صفيحات النبيذ لسائلها الحيوي، ولخلايا مخها التي توشحت بلون المشروب النجيعي. كانت صور من ذكرياتها قد بدأت تتقاطر تباعا على مخيلتها... عائشة، المعهد، ميساء، سفيان، الثانوية، سديم الغيب، وصفاء.

بدأت الأرض تميد بها يمنة ويسرة، كأنها بأرجوحة ضخمة تحاول الثبات فوقها، دون أن تُخل برقصها الذي استحال رفسا قويا بقدميها، ليُصبح بعد ذلك مقاومة فاشلة للانهيار التام الذي بدأ في إحكام قبضته على توازنها الكليل... سقطت، ليُخطف بصرها ثم يرجع فجأة وقد استقر على مصابيح السقف المتغامزة، والتي أضحت تتهامس مستهزئة من وقع سقطتها.

اللعنة، ثم تَفَلَت، فلم تتجاوز تفالتها شفتها لترسل مخاطا وَشَمَ ذقنها، كوشم نساء سوس الأخضر الذي تُزَيِّنُّ به ما تحت شفاههن. حاولت الجلوس معتمدة على ذراعيها الدقيقتين، لكنها لم تستطع الوقوف حتى ساعدها أحدهم بعدما كاد أن يضغط بحذائه الضخم على كفها الأيمن.

قصدت بعد انتصابها مقعدا مبطنا بإسفنج فاخر وقد كُسي بجلد أبيض تفوح منه رائحة باب الدباغ المراكشية. جلست ثم أرسلت رأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها... بدأت تتساءل عن ماهية نفسها وشخصها... أهي سارة أم عائشة؟... أنظرية تناسخ الأرواح حقيقية؟... وإن كان لا، كما يعتقد أغلب المحيطين بها، فما هذا الذي تعيشه الآن؟... من هذه اللعينة التي باتت تتقاسمها الأفكار والأحاسيس معها؟... كانت تسأل عن شيء بذاته... كانت تسأل:

- من أنا؟!

أعادت رأسها إلى موضعه، لينكفئ فجأة إلى الأمام، لكنها أمسكته بأنامل يدها الدقيقة والطويلة كي لا يَخِرَّ أمامها ويجُرَّ جسمها نحو الطاولة الزجاجية... وضعت مرفقيها على الطاولة الباردة ثم جمعت كفيها في شكل قبضة الملاكم داعمة خديها المتوردين، ثم شرعت في تأمل الكأس الذي أمامها... كانت تتأمل في شفافية نبيذ موسو الذي وضعه أمامها النادل فور جلوسها... هم هنا يعرفون طلبها قبل أن تنبس به!

تأملته باهتمام بادٍ، كأنها تبث له نجواها الحزينة، وتهمس له عن نفسيتها المحطمة، بل تشكو له تفتت حياتها وتفلتها من بين كفيها، لتستقر بين يدي شخص آخر قد أخذ في بناء نفسيتها لبنة لبنة!... شخص قد بلى جسمه تحت الثرى واندثرت مادته الفانية منذ قرون قد خلت، لكنه أبى إلا أن يبث حياته الجديدة من بين دواليب الزمن ويتجسد بمضغة جسمها، الذي أضحى تحت سيطرته.

- لن أدع لكِ جسمي وروحي تهيمنين وتصنعين ما شئت بهما.

ضغطت بيديها على عينيها، ثم مررتهما على كل أنحاء محياها... وما إن أكملت تدليكها الذاتي حتى أعادت يديها ورأسها لوضعيتهما المتأملة... ثم تذكرت آخر صورة تمثلت لها عند سقوطها... صورة صديقتها صفاء.

بدأت تتذكر واقعة فارقة بحياتها، عقدة جعلت أصدق صديقاتها تهجرها وتبتعد عنها للأبد... كانت بحور خيالها قد بدأت في الركون والسكون، ثم بدأت ذكرياتها تتشكل بين أمواج كأس النبيذ الشفاف المتدفقة، لتُحيد صفاءه إلى ألوانٍ متضاربة أمام عينيها الحالمتين. لم تكن تلك الذكريات التي باتت تعكر صفو النبيذ الفرنسي وتوارب شفافيته شيئا فشئيا، عبارة عن تحفيزات سُكر وثمالة، بل ذكرى صاعقة قد زلزلت كيانها الشفاف ككأسها تلك. كان ذاك بيوم مُمطر من أيام شهر فبراير الباردة، إذ ذاك انحلت عقدة صداقتها مع صفاء، رفيقة صباها وصاحبتها الصادقة التي كانت بئر أسرارها ومستودع زفراتها وأناتها ومرحها وفرحها.

– 2 –

صفاء، الفتاة المتدينة الخلوق، قد عاشت بأسرة محافظة تعبق برائحة عود التدين الذي خالج خلايا أفرادها... كان أبوها طبيبا للأسنان، ذائع الصيت، عُرف بالتزامه الديني والمهني، كما عرفته الساحة السياسية كواحد من كوادر حزب العدل والفضيلة الإسلامي. ورغم أن صفاء اختارت حركة النهج والإصلاح الجناح الدعوي لحزب الوحدة الحُرَّة الإسلامي المنافس لحزبه، إلا أنه لم يردعها عن اختيارها ولم يقم بمنعها عن الالتحاق به، بل طالما وافق ذهابها بكشفياتهم ومخيماتهم المُؤطَرة... كان يريد بث روح الشورى بين أفراد عائلته، كما كانت تحدثها صفاء دائما،

لكن سارة كانت تجد أن ذاك المصطلح الإسلامي قد أضحى مستهلكا متهالكا بين حناجر من امتطوا الخطاب الديني للوصول لمآرب سياسية اجتماعية... كانت تلك وجهة نظرها التي لم تُفصح عنها إلا إشارة أو من وراء رموز الكلام.

تذكرت يوم ألحت عليها صديقتها أن ترافقها بمخيم الشبيبة الحركية ذاك العام، والمنعقد بالقنيطرة، كانت تريها فيديوهات سابقة لمختلف الأنشطة الممارسة ومختلف الخرجات التي قاموا بها، بل لاحظت أن كثيرا من المشاركات لا يضعن الطرحة، بل إن الكثيرات ممن يضعنها يصفقن ويغنين بل ويرقصن أمام الذكور!... كانت سارة ترفض دائما عرض صفاء لكنها اليوم أذعنت وقررت إخبار أبيها أنها سترافق صديقتها إلى القنيطرة، فرغم أن إخباره بقرارها لا يعدو أن يكون شكليا، إذ أن أباها قد انغمس بحياته الخاصة مُستقيلا من هم التربية كما يراه، إلا أنه رفض... فيا ليتها لم تُخبره بشيء!

- أولئك الظلاميون سيعيدون برمجة دماغك وتخريب أفكارك.

كان الأب يصيح بالفتاة التي ارتمت على إحدى الكنبات المتاخمة للتلفاز الضخم... لكن سارة أجابته ببرودة:

- أنا سأصاحب صفاء... وأنت تعرف أنها...

- أنها ماذا؟... هي ابنة ظلامي وتعيش بين الظلام... لا أعرف كيف تركتك أمك ترافقين فتاة مثلها؟!

كانت نعيمة حسون جالسة باسترخاء أمام التلفاز تتابع فلما أجنبيا، لتعتدل بعد كلام الصنباطي هذا، وتعقف حاجبيها المرسومين بإتقان، عوَّجت شفتيها ثم قالت في شيء من المكر:

- مال مَامَها... أتريد إثبات رجولتك فجأة؟... عْلْمْنا بْعْدا باشْ نْوَجْدوا!
- آلالاَّ تِيًّا لي خرجتي عليها... خليتها ليك.

قالها ثم نهض وهو يحمل بين يديه كأس نبيذ أبيض... لم يتجاوز المكان حتى أدار رأسه نحو سارة قائلا وقد بدأ الزبد يخرج من جانبي فمه:

- أما أنت فلن تذهبي وسط الظلاميين... يكفي أن تلك الفتاة صديقتك.

ثم صعد السلم نحو غرفة نومه... لتشاهده الأم ينزل بعد حين خارجا من الفيلا... كان يوم جمعة وهو يوم سهره مع شلته... بل يوم مزج النبيذ بأجساد المومسات، وعطن الحانات، والقمار بالكازينوهات.

كانت سارة مقتنعة بما يقول، لكن أبويته التي أخرجها فجأة لم تستسغها أبدا...

تبسمت سارة باستهزاء وهي تنظر للكأس أمامها الذي أضحى قُمعا للذاكرة... كانا مخطئين معا، أب قد تملص من المسؤولية يريد إثبات ذاته، وعته قد أصابها في موافقتها لصديقتها... ماذا كانت ستجني من ذهابها لمكان قد طُمس نور العلم به، وانكشحت بصيرة الحداثة بين ثناياه... لن يعدوا، رغم تفتحهم الظاهر بالمرئيات، أن يكونوا خفافيش ظلام تقتات من كتب تراث هش، تملؤه الخرافة ويحيط به الضلال من كل جانب... كما تتضارب به الأقوال والأفهام!

تابعت سوانحُ فكرها نسجَ حبال الذكريات، وأضحت مبخرات الفكر ترسل عبق الأحداث السالفة بخلجات سريرتها وطيَّات فؤادها، لتنشر أريج عود الحنين وتعطي للخيال صولة وجولة جديدة.

– 3 –

كان ذاك قبل أربع سنوات، بيوم ممطر... كانت تجلس بمحاذاة صديقتها الجديدة ميساء، فقد أرخِيَت أسدال الود بينهما مؤخرا... كانتا جالستين بالفصل رقم 17، تُرسلان بصرهما وسمعهما لدرس الفلسفة... تلك المادة التي طالما حملتها لفضاء أو عالم موازٍ، عن عالم يدير أصفاده التي تتشكل من المعادلات الرياضية والفرضيات الجبرية والتعابير المنطقية، حول فكرها وسوانح عقلها. كما أن لأستاذة الفلسفة ارتباط خاص مع مادتها، فقد تخطت المقررات المفروضة من الوزارة، ولم تعبأ بما سُطر بأهداف الأكاديمية. كانت مجزوءات الإنسان والمعرفة المقررة غالبا ما تتهادى أمام سعة إطلاع الآنسة كريمة... شخص وهب نفسه للعلم والفلسفة وترك تلك الارتباطات الشكلية، كالزواج، لقاصري التفكير... ذاك ما أخبرتهم آنستهم الفيلسوفة يوما ما.

تذكرت كيف كانت تُلقنهم أعتى النظريات الفلسفية بأسلوب رقراق، والكلام لسارة:

– 4 –

كانت تصيغ لنا أقوال المفكرين والفلاسفة في قالب سهل ممتنع، ووفق أسلوب يحبس الأنفاس ويسلب القلوب قبل العقول. علمتنا أن لا مطلقا سوى العقل، وما القوى الميتافيزيقية التي يُؤمن بها البعض إلا أيقونات نحتوها من مخيلتهم ونسجوها وفق رؤيتهم ومطلبهم... كان لذلك هدف واحد هو تطويع الشعوب وإخضاعها لسلطة أبوية تُقرر هي

وحدها وبأمر الإله... ذاك الحاكم الذي اعتبره الشعب المسحوق ظل الله في الأرض... فكانت مشروعية الحكم تؤخذ من ذاك التدفق الميتافيزيقي المُبهم... بل الغير موجود... إذ أن منه أُخذت مشروعية الحكم والسلطة داخل ما يسمى بالعشيرة:

- أو القبيلة... فالحاكم أو السلطان أو الملك... بل أي مُتقلد لحكم سواء استبدادي أو ديموقراطي... كان يُشكل حوله حاشية من رجال دين ما أو عقيدة ما... بل أغلب رؤساء الدول يعينون منجمين وكهنة لتحديد خطاهم المستقبلية.

قالت الآنسة كريمة اليعقوبي وهي تتحرك أمام سبورتها السوداء... كانت أربعينية تقارب الخمسين، لكن قوامها ظل ممشوقا كغصن شجرة الزيتون. كتفاها بارزان من تحت قميصها الشبه شفاف، يُعانقهما شعرها المتراخي كأنه يضمُّ إلى كنفه مختفيا قد أيِسَ أهلُه من ظهورِه، كان أصفر اللون يتمازج مع بضع شعيرات سوداء حالكة، أضفت على وجهها القمحي بهاء ورقة، واختلط مع صفاء عينيها الكستنائيتين... كنتُ أتابعها حدو الكلمة بالكلمة والحرف بالحرف، تتناغم تراتيلي على معبد معرفتها وفلسفتها الصافية، رفعت يدي كعادتي أتوسل الحديث عسى أن تختلط ذرات كلامنا معا فتتلاقح المُهج... بسطت الآنسة كريمة يدها نحوي مشيرة لي بإطلاق عنان كلماتي، فقلتُ:

- إن الدين هو ما يدفعنا للأمل في الغد... خاصة وسط هذا العالم المتداعي إلى الهلاك... فثنائية الجزاء والعقاب أو ما يُصطلح عليه بالجنة والنار، هي ما تجعل المظلوم يأمل في أخذ حقه يوم البعث والنشور، فيومئذ ترجع الحقوق لذويها، وينتصر الفقراء أخيرا على أرباب الطبقة العليا.

- وذاك هدف ثان لخلق تلك المنظومة الميتافيزيقية.

أجابت أستاذة الفلسفة مبتسمة في مكر، فقد كانت تنتظر أحد التلاميذ أن يُفرز تلك الملاحظة... تحركت قليلا حتى حادت الصف الذي أجلس به، ثم أضافت:

- ربط المجتمع الإنساني، أو القَبَلي، بالدين، وجعله يتمركز حول أيقونات ميتافيزيقية كالإله، أو بشرية خارقة كالرسول والنبي والولي، يؤول إلى تركيب خطاب إيماني عُلوي ميتافيزيقي، فيؤدي إلى خنوع وركون المحكومين، فيتحول طلب العيش الرغيد من الحاكم إلى أمل مبتور حول حياة أخروية سرمدية، كل يسيغها حسب متطلباته... فتُشكل الأحلام حول الحور العين والفواكه العجيبة والعيش الخالد بلا مرض ولا نصب.

كنتُ أتتبع فاه الأستاذة كريمة بعينين براقتين، كطفل حديث الولادة يكتشف ثدي أمه للمرة الأولى... كانت كل كلمة تنبس بها شفتاها تجد وقعا عنيفا وصدى قويا بقلبي، فمع كل حرف كانت شراهتي تزداد للغَرْفِ من معين فهمها وشلال فقهها، كان ذاك عاما فاصلا في قناعاتي، وقاعدة في تصوراتي، وبناء لأيديولوجيتي... عندئذ بدأت أتحسس أدراج الفهم السوي الأولى، ودَرْء درن الخرافة التي نشرت ريحها بخلاياي، وفك أغلال الدين التي أوثقت الحركات وكممت الأفواه وضُربت حراب الإرهاب الفكري حول الآراء والأفكار الحداثية. كما كان ذاك اليوم قُفلا ألجم غمده ليَقْطَع الوصل مع صديقتي صفاء، وصلا فاق العشر سنين.

اختارت صفاء سلكا دراسيا مغايرا لي، لقد وضعت فكرها وسط دوامات المحاسبة والاقتصاد، أما أنا فاخترت أن أتَّبع ميولاتي، وأختار

العلوم الرياضية رغم اعتراض أبي ومحاولته إقناعي أن أسلك العلوم التجريبية تخصص فرنسية، غير أن محاولاته المتصَنَّعة لم تثنني عن ولوج ما خالط فؤادي من وله خاص حول الرياضيات، غير أن الأستاذة حكيمة استطاعت أن تغير دفة هذا الوله ليسلك تيار الفلسفة والفكر الإنساني. كان هذا التنافر في الاختيار الدراسي سببا في ابتعادي عن صفاء، فافترقنا لأول مرة، وذهبت كل واحدة منا إلى ثانوية مغايرة... لكن الظاهر أن مسلك فكرنا قد تغير هو الآخر، بل قل تصادمت أفكارنا فاختارت صديقتي البعد لعلها تحفظ فكرها من التصدع والانهيار!

كان يصلني صدى تفوقها، كما أنني علمت أنها أصبحت إحدى أيقونات حركتها لتلج شبيبة أحد الأحزاب ذات القناع الإسلامي، رغم حداثة سنها... خاصة أنها بعثت من بين رفات قلبها قريحة جَهِلتها لزمن طويل، وها هي تنفض عنها آنذاك غبار الزمن وتُبرز تفوقها في قرض الشعر وبناء القصيد.

خرجت من حصة الفلسفة رغما عني، فما وددت أن تنهي أستاذتي حديثها، لذا حاولت أن أطيل حديثي معها رغم انتهاء الحصة وأن أسألها عن مُبهمات ظلت عالقة بفهمي دون تفسير... خرجت من القسم وعرجت بسرعة إلى مكان مُظلل ببلاط الدور الأول الناتئ، لكنها غرتني تلك الزخات المطرية التي تلامس الأرض لتبعث أريج التربة الندي مُعلنة عن فرحتها بملامسة مياه السماء ومُبدية حبها السرمدي الذي يمتزج طينه مع ذرات الحياة... كان صوت ارتطامها مع حبيبات التربة يُحيل القلب المضطرب إلى الصفاء، ويصيغ ضوضاء الفؤاد إلى سمفونية هادئة تحاكي

همسات روح أمنا الأرض، ويرخي أسارير العقل عند ملامسة ريحها المرتاح بين تُخُوم قطراتها. فخالفتُ منطقي، وكفرتُ بنفسي التي صدتني عن ترك الظلال لمعانقة المطر، عساه يناجيني بسحر الحياة السرمدي الذي ما فتئ يختفي وراء دخان المصانع المُحدثة، أو يخبرني عن تاريخ البسيطة وروحها التي تسري بأوردتنا جميعا، لكننا لا نفقه أنينها.

مشيت متثاقلة عبر الساحة الرئيسة للثانوية، لأجد نفسي بعد بضع خطوات، قد كانت كافية لتبليل ملابسي الخفيفة بالكامل، أمام سيارتي الجديدة بمرأب السيارات القريب من مدرستي... كان والدي قد ضجر من توصيلي كل يوم، خاصة أن أمي كانت تتعلل دائما بكثرة انشغالها بتصوير برنامجها الاجتماعي الجديد، كنت آنذاك لا أراها إلا لماما، فلن تجدها إلا وعندها تصوير أو تحضير أو مساعدة بالمونتاج. صراحة لم أشاهد برنامجها البتة، فتلك الأجواء المشحونة بالغم والهم، خاصة ما يزجه المخرج من موسيقى رديئة، كي يُضفي مسحة من الحزن والأسى، لا تروق لي. ثم ذاك الخطاب العليل المنسوج على عتبات الخيال، في إحياء روح المبادرة وتحقيق العدالة الاجتماعية، يُشعلني غيضا... كفاكم دينكم وإيمانكم وحياتكم الآخرة، واتركوا لنا دنيانا نلعب ونلهو، فما يُهلكنا إلا الدهر والزمن!

ولجتُ السيارة، وقبل أن أدير المفتاح باغتتني رنات أغنية ماستر التي نبتت من خلف جيبي، مُعلنة عن اتصال بهاتفي المحمول. أخرجتُه من جيب سروالي الجينز. حركة بسيطة من سبابتي، جعلتني أسمع صوتها، لقد عرفته مع أول حرف نطقته، لأبادرها مُعاتبة:

- أين أنت؟!... لقد غِبْتِ دهرا!
- راك عارفة!... الدراسة وأنشطة الحركة...

سكتت قليلا ثم أضافت في همس:

- والحزب أيضا.
- ما عارفة والو... لقد اختفيتِ منذ زمن!
- لهذا اتصلت بك حبيبتي... أنا بمقهى الجوهرة الزرقاء التي بجوار ثانويتك.
- ماذا... ماذا؟!... ما بال صفاء تجلس بالمقاهي؟

أطلقتْ قهقهة خافتة، وقالت جملة لم أفهمها... ربما كانت الشبكة الهاتفية قد بدأت تضعف من جراء المطر... خفتُ أن تنقطع فبادرت بالقول:

- انتظري سآتي حالا.

سَلَلْتُ المفتاح من غمده، ثم ترجلت من السيارة، واتجهت مسرعة نحو المقهى القريب الذي كان يربض كوحش أسطوري وسط حديقة ضخمة قد أحاطت الأشجار السامقة بها من كل جانب. كانت خطواتي المتسارعة تقارب العدو متلهفة لرؤية صديقتي... وها هي تلوح لي من بعيد جالسة خلف زجاج المقهى المُظلل بأنفاس الأشخاص المحتمين من المطر... كانت تشد حول رأسها طرحة بنفسجية، منمقة بشريط أصفر محيط بأعلى جبهتها، في مزيج رقراق من الهدوء المشوب بالرومانسية والعظمة والتفوق، إنه لون الملوك. كانت ألوانها دائمة التناسق تعكس رومنسيتها وثقتها بنفسها. اقتربتُ منها شيئا فشيئا فازداد وجهها إشراقا

مع كل خطوة، وما كدت أجاوز باب المقهى حتى رمقتني وارتمتْ على حضني معانقة جسمي النحيل في سعادة.

- لقد اشتقت إليك كثيرا حبيبتي.

قالتها بلسان متلهف، وهي تحرر جذعي من سلطة عناقها، ثم أدارت جسمها نحو الطاولة الزجاجية السوداء الجاثمة بمحاذاة الكرسي التي كانت تجلس عليه، وحملتْ منه كتابا قليل الصفحات، قصير الأبعاد، لا يصل للمائة صفحة كما يبدو، وضعته بين راحتَيَّ ووجهت نظري إلى غلافه الأخضر، كان موسوما بـ: حديقة الخطايا. كما أن اسمها كان يتذيل الغلاف، صفاء الباكروري... عرجت بعيني نحوها في تساؤل قد خُضِّبت قسماته بسعادة وفرح:

- لا تقولي لي إن هذا الكتاب من تأليفك؟

أشارت لي بحركة من رأسها وابتسامة قد رسمت بريشة رسام المانغا اليابانية، مما أدى بي لعناقها مرة أخرى، وأخذ لساني في زف أبلغ عبارات التهاني محاولة الابتعاد عن تلك العبارات التقليدية التي تملأ المناسبات... جلست بعد ذلك وقلبي يدق على باب صدري بعنف... كان ديوانها الأول، لقد أرادت أن تشاركني فرحتها، لكنني لم أكن أهلا لذلك!

بدأت أتصفح الديوان وأقلب نظري بين أسطره وكلماته... لكني أردت أن أجاملها بعض الشيء فوقفت عند قصيدة بعنوان: سديم الغيب... كانت قصيدة موسيقية... بل كنت ألمس أنها تُلحن نفسها بنفسها... روعة الوصف وبهاء الكلمات. ثم بدأتُ في إلقائها محاولة محاكاة أحد الشعراء ممن رأيتهم عَرَضا بشاشة التلفاز:

نَجمٌ زها وتألق بالأشواقْ.
قبس نورٍ... حنينٌ شعاعه،
مشكاة ضوءٍ... دفء لهيبه،
ريح وبلسم برَّاقْ.
زمن ربيعٍ... غدت زغاريدهُ
دواءُ مُرِيدٍ
مَادَتْ به لوعةٌ
حَنينُ مُشْتَاق.
تُضَمِّدُ جِرَاحِي،
تَرْوِي عَطَشِي،
تَحْنُو عَلَى قَلْبيَ الخَفَّاق.
مِنْ هُنَاك!
مِنْ بَيْن سَدِيمِ الغَيْبِ النَّدِي.
يَبُثُّ جَمَالَه،
بِبَيْدَاء الفُؤَادِ... الْمتَرَدِّدِ.
تُزْهِرُ صَحْرَاؤُه،
تُنْبِتُ بَقْلَها
وقِثَّاءها
المُتورِّدِ.
يَطْفُو لَهِيبُ الفِرَاق

يَخْبُو
يَخْفُتُ وَيَنْجَلِي
كَصَرِيمٍ مُجهَدِ.

كانت كلماتها تفيض بأحاسيس متضاربة، فهمتُ بعض مآلات خطابها، وفقهتُ بعضا من غرض حروفها، كانت تبثُّ تيها تعيشه فما لبث أن انجلى عند معانقتها للغيبيات، كناية عن الإله والدين والرسول، فقد رمزتْ لهم تباعا بالنجم وقبس النور ومشكاة الضوء.

- عصير ليمون بدون سُكر.

قلتها بسرعة لطرد النادل الذي وقف بجانبي كتمثال جصي يرمق شفتيَّ وهما تتحركان... يرمي بعينيه بين قسمات جسمي النحيل، أحسست بعينيه كأنها تُعرِّيني قطعة قطعة... أولئك السفلة ممن يحسبون أن ذكورتهم كافية في أن يرميَ نحوكِ سهما ثاقبا من لسانه أو عينيه.

- الغيب؟... لقد تركتُ الإيمان الميتافيزيقي، ولا أرى الآن بقلبي سوى الإيمان بالواقع... بالعقل... بالعلم.

لا أعرف ما ذاك الشيء الذي دفعني لقول تلك الجملة. كان عبطا مني بلا شك، فاللحظة لا تتحمل مقولة كتلك!... فضلا أني أعلم جيدا أن صفاء تقليدية الفكر دينية المشرَب، لكني أحسستُ بقوة داخلية تقهر لساني وتمده بإبرة الحروف لفتق تلك الكلمات بثوب الحديث... ربما حماستي التي ما برح فؤادي يتلفظ بها، ربما هي تلك الروح المتمردة التي زُرعت بذرتها بين ضلوعي من الآنسة كريمة... أو هو كل ذلك، كل ذلك كان ينبض به قلبي فتناغم اللسان معه دون وعي ولا إرادة.

والآن أتساءل بحنق:

- هل كانت الأنسة كريمة صائبة بعقيدتها؟

ربما؟... لكني، استعذتُ من الميتافزيقية بروح العلم، ونفضتُ ذهني من وساوس الدين.

كانت جملتي الأخيرة لصفاء هي بداية النهاية لعلاقتنا، كان لساني قد بدأ في دفع كلماته المتدفقة، كان يكشف مستوره، ويكشف انبهاره بعالم المادة... قلتُ لها أني على المذهب المادي، وأن الحياة ما هي إلا نتاج لمادة أولى تمخضت عنها الظواهر الطبيعية كلها، تلك المادة الأم التي خَلَقتنا ولم يخلقها شيء آخر، وما نحن إلى خرزة بحلقة تطور ضخمة. كان لساني يتحرك وحده، ولا أخفيكم أني كنتُ فرحة بأقوالي، بل فخورة بما وصل له عقلي المطلق وفهمي الكامل!

حدثتها عن وجهة نظري في الدين، وأنه مجرد عارض تاريخي للحضارات والثقافات الإنسانية، وأنه بناء إنساني محض لا دعوى بقوى الغيب به... أخبرتها أنه نتاج لضربين من البشر حاكم يريد السلطة، ومحكوم يتمنى عيش الرغد الذي لا يجد له سبيلا.

بدأت صفاء تحاججني وتقارع أفكاري محاولة إنقاذ صديقتها من براثن الإلحاد، لكن منطق حججي أبهت كلماتها ودحض دفاعها، فما وجدتْ إلا أن تُرسل عبراتها، لترسل آخر كلمات سمعتها منها:

- الله يهديك.

ثم أمسكتْ بديوان شِعرها، وتركتني للأبد... لن أخفيكم أني أحبها فقد كانت صديقتي المقربة... بل وما ركنت عن تتبع أخبارها، خاصة أنها

أضحت وجها ثقافيا مألوفا، مما أحالها لأن تدخل الانتخابات الجماعية السالفة بلائحة أحد الأحزاب الإسلامية الكبرى بالبلاد، فأضحت أصغر مستشارة جماعية بتاريخ المملكة المغربية.

– 5 –

مسكت سارة حرفَ كأسها الشفاف العلوي بأطراف أناملها، وبدأت تديره كصوفي نقشبندي مسه وَلَعُ. كأنها تحاول مزج ذكرياتها المتمثلة بالسائل المحرم، عساها تذوب وتختفي. لكن هيهات أن يستكين الفؤاد وأن يرضخ العقل العليل لمرادها... فمُدَّت أنامل الذكريات إلى سريرتها مرة أخرى، وأقامت مقامها بشجرة التاريخ السامقة، فانسابت ذكرياتها بأغصانه الجدباء، كأنها بخريف سرمدي لم تجد أوراقا تقطفها، فاختارت أن تنحت بإزميل مشاعرها أخاديد ضاربة بالزمن، تتوسل الانهيار على عتبات النسيان.

ثم تساءلتْ مرة ثانية:

– هل كانت الأنسة كريمة صائبة بعقيدتها؟

ثم استعاذتْ بروح العلم، ونفضتْ وساوس الدين.

كانت في الحقيقة فطرتها من تتحرك بقلبها وتحثُّها على ملامسة الإيمان... لكنها تأبى الانصياع والخضوع.

قهوة مُعطَّرة

إدريس الشرقاوي، شاب بالعشرين من العمر، يعيش على إيقاعات التضارب النفسي وتشنجات عصبية أصبحت تلاحقه وتستهزئ بتصرفاته لتُحيلها إرغادا وإزبادًا عند أي نقاش... حتى أن تكوينه الأخير بالشرطة المغربية كاد أن يُعصف وراء الجبال، لولا تدخل بعض معارف أبيه، فقد انهالت لكماته على وجه أحد زملائه... ثم إنه عُرف بمعاقرته للخمر والحشيش.

سابقا كان شخصا آخر، مغايرا مناقضا لتصرفاته الطائشة الآن... كان نبيها ذكيا، ينتظر منه الجميع مستقبلا واعدا، وحياة مليئة بالتفوق... كانت أسرته الصغيرة والكبيرة تنتظر أن يلج أحد معاهد التجارة العُليا أو كلية الطب، فهو دائم التفوق على أقرانه، ومعدلاته الدراسية عامة والثانوية خاصة كانت مُرتفعة متميزة، كما كانت قريحته الدراسية عالية، خاصة أن شخصه باتَ مثالا يُحتدى به، وتُضرب به الأمثال لأقرانه. قد ترك التعليم الخاص كما اقترح عليه والده، ليُكمل مسيرته بالتعليم الحكومي. اختار مسلك علوم الحياة الأرض الذي بزغ به واستأثر بالمرتبة الأولى وحده على الصعيد الجهوي، بفارق كبير عن زملائه وأقرانه.

لكن كل هذا تبخر كأن لم يكن، خاصة أنه وجد نفسه بمؤسسات التكوين المهني بعدما رسب بالباكالوريا، واستحالت حياته عتمة وصريما يغشي طريق مستقبله... كانت العطلة الدراسية التي سبقت العام الأخير بالباكالوريا، عطلة لن ينساها بحياته، فبها أَصْدِر حكم الطلاق بين والديه...

انقلبت حياته رأسا على عقب، وغدت المشاكل والصراعات بين الزوجين المطلقين واقعا معيشا لا يكاد يخبو بأي لحظة، فلم يجد حضنا ولا احتواء غير تخدير عقله وزجره عن التفكير ومقارعة الهم الذي عصف بكيانه... كانت المخدرات خليلته التي أدمن على معاشرتها، وأصناف المعجون والكيف وغيره من المسكرات أنيسا يلتجئ إليه كل حين... كان يهرب حاملا روحه على كفيه، من علاقة مهدمة بين والديه.

كنتُ بدرب الأحباس أتفقد آخر الإصدارات الفلسفية خاصة التي تُعنى بالفكر الإسلامي، كما قَلَّبتُ أرفف دور النشر هناك لعلي أظفر بكتاب نادر أو مؤلف غابر قد نفد ولم يلحظ وجوده أحد... مُختبئا بين الكتب المُهملة، في سباتٍ طويل ينتظر كفي ليلامسِ نور القراءة وضياء المطالعة. خرجتُ من المكتبات وأنا مُحمَّل بعشرات الكُتب، أقاوم اعوجاجا فطريا بعمودي الفقري. كان أول أسبوع بالشهر، وكنتُ كعادتي فرحا بأجرة غالبا ما تُقصف برأس الشهر لتستحيل بضع دريهمات جراء اقتناء الكتب والمؤلفات... وضعتُ صيدي الثمين بسيارتي، داعيا الله أن تخرج "الجرَّة" على خير مع زوجتي... وأن أحافظ على هدوء أعصابي المتشنجة أمام كلماتها المؤنِّبَة، وأسئلتها الاستنكارية: كأين ستضع هذه الكومة من الأوراق؟... هل أكملت الكتب التي اقتنيتها سابقا كلها؟... هل تلك الأوراق أهم مني ومن ابنك؟... لقد أضعت مبلغا ضخما على ورق ونسيت أن تشتري الحفاظات وعلب الحليب؟... وغيرها من موسيقى رديئة، أمرر شريطها مُنكس الرأس وعلى وجهي ابتسامة حمقاء.

وما كدت أقفل حاملَ أمتعة سيارتي الفِيَاتْ أُونُو حتى لاح لي

إدريس من بعيد، جالسا بحديقة الأحباس وقد أمسك بكأس بلاستيكي حَوَت جدرانه القهوة المُعطَّرَة بأريج صنوف من التوابل المغربية، كانت تُباع من باعة متجولين، يطوفون على الحدائق وعتبات المنازل، حاملين أباريق ضخمة تحتضنُ مجمرا قصديريا تحتها، كي تحافظ على سخونتها وطراوتها... كما أمسك بيده الثانية سيجارة رديئة مُنكسرة كأنها خرجت للتو من معركة ما. عجِبتُ... فعهدي به قبل أربع سنوات، عندما كانت أسرته تسكن بجانب شقتي في إقامة علاء، شابا لا يعاقر السيجارة، كما أن هالة سوداء تحت جفنيه حاكت إزرقاق شفتيه من كثرة الإدمان.

- السلام عليكم... كيف الحال؟ لم نتقابل منذ مدة طويلة!

نظر إلي ثم رسم على شفتيه ابتسامة خافتة... رحَّب بي ودعاني للجلوس بجانبه... لكنه كان يدعوني في الأصل إلى أن أنصتَ إليه، وأسمع لما ادلهم به وبأسرته المُفكَّكة... باشرته بالسؤال عن والديه:

- آش (ما هي) أخبارك وأخبار الوالدين؟

- الحمد لله بخير... الوالدان، راهم كل واحد فيهم عايش حياته.

أحسست أن تحت الأكمة ما تحتها، وأن كلماته تُخفي هما لا حدود له... كما كانت يداه ترتعشان مُضطربة عند جوابه على سؤالي... لم أقل شيئا سوى الحمد الله... ثم عرجتُ بنظري نحو المحكمة الابتدائية التي كانت تبثُّ في قضايا الأسرة آنذاك... أخذتُ أقلبُ نظري بين ثنايا البناء العتيق، منتظرا أن يُرسل فرس كلماته من إصطبلها، وأن يفك اللجام الذي كبح عواطفه وألجم حروفه عن الصهيل... لم ينبس ببنت شفة، فأردتُ تحفيز كيمياء عقله لتُفرز تفاعلات الحديث، وتُمازج لعاب الكلام فتنسج حروف الألم على لسانه الكليل:

- ياك لا بأس؟

أطلق شهيقا عميقا، كمن ينفض عنه الألم الذي يعتصر الصدر ويقبض بلباب الفؤاد، ثم حكى لي أن والديه قد انفصلا مؤخرا، فبعد أخذ ورد بالمحاكم وعلى عتبات القضاء، قُضي الطلاق بعد عامين طويلين من قضية أجِلت لكثرة إضرابات كتّاب الضبط آنذاك... لا أخفيكم أن الأمر وقع على قلبي فهزَّه واهتز له... كان سي الشرقاوي، أبو إدريس، رجلا وقورا، عالي الفكر، سديد الكلام والطرح. كما كانت الأسر المتنازعة، ومشاحنات أفراد الحي غالبا ما تنكسر أمام حكمته وحُسن فهمه وعلمه.

تابع إدريس كلامه الذي أضحى غزير الصبيب مليئا بالحنين الممزوج بالأسى، قال لي إن والديه عاشا متفاهمين، لكنهما وبعد أكثر من عشرين سنة من الزواج والود والحب، انقطع حبل الوصل فانبرى صرح الفصل... كان والداه قد تزوجا عن حب غُذِّيت لبناته وزرعت شتلاته منذ طفولتهما. فهما ابنا عم وترعرعت أغصان نموهما ببيت عائلة واحدة. كان مصطفى الشرقاوي أستاذا جامعيا، بلغ مكانته بعصامية فريدة وجهد مضنٍ، خاصة أن عائلته كانت تقطن بأحد دواوير جبال الريف المغربي، وتبعد عن أقرب نقطة تعليمية بسبعة كيلومترات... فتسلق بيديه العاريتين جراف الدراسة ووديان الجامعة ليقف شامخا وقد أمسك بشعلة العلم والمعرفة، واستطاع أن يلج جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، ويُوقع ميثاق القطع مع الفقر. أما مليكة الشرقاوي فابنة عمه التي أحبها منذ صغره، واختار الرجوع إليها والزواج منها فور حصوله على أجرته الأولى، فكانت ربَّة بيت وأمًّا تقليدية. وما فتئ البيت يُبنى يوما بعد يوم بلبنات الحب على أعمدة المودة والسكينة.

لم يُعرف عن مصطفى سفاهة ولا نزقا، بل منذ صغره عُرف بين أهل الدوار بالرجل الصغير، وما كان يُرى إلا وهو يحادث شخصا أكبر منه، بل كثيرا ما كان أعيان الدوار يتَفَكَّهُون بمجالسته، والإتيان به في أسمارهم، خاصة ما عُرف عنه من حسن حفظ قصائد العرب، وزجل وحكم السُياح والفقراء، وغرائب قصصهم وأساطيرهم... فما تبع قطعان الأغنام وما تسلق الأشجار أو اصطاد العصافير، بل كان أشد ما يحبُّ أن يعقف السي محمد الشاب المثقف الجامعي لبلده، فيُجالسه ويسمع فكره ومنطقه وينهل من معين علمه، حتى أنه ما شوهد إلا وهو ملاصق له، محاذ لخطواته. إضافة أن زوجته مليكة كانت كثيرا ما تفخر أمام قريناتها أن زوجها ما عرف فتاة وما هرطق بمراهقته، بل كان كالقطار يمشي على سكة واحدة لا ينظر شمالا ولا يمينا... كانت صويحباتها تتهم مليكة في مزاح ممزوج ببعض الحسد والحقد أنها سحرت له، والفْقيه تاعْها مْجْهْد.

وصل بعد مجاهدة ومكابدة للجامعة، فنبغ فهمه وبزغ نجمه، وحصد ماجستير بالقانون، ليسبك أرضيته المهنية ويحصد بعد ذلك دكتوراه الدولة بالقانون الدولي، لتسطع شمس مؤلفاته بعد ذلك، وينبري شخصه ليُصبح واحدا من أشهر المستشارين القانونيين. كانت أم إدريس ترافق أباه بكل محطة من حياته، تحيطه بكنفها وتجود عليه بحنانها... كما أن إدريس عُرف بنباهة منذ صغره كأبيه، حتى أنه يُشبهه بكل شيء، فكان يمشي مثله ويتكلم مثله ويجلس مثله. اختار له الأب التعليم الخاص منذ الصغر فأدخله لأرقى المدارس وأرفعها منزلة بالبلاد، غير أن أباه قرر فجأة، في يوم ما، أن يُكمل دراسته بثانوية حكومية.

أصبحت مليكة، بالسنوات الأخيرة كما أخبرني إدريس، كثيرة الصديقات، كثيرة الخروج والتسوق... فقد كان ذاك نشاطها الوحيد،

خاصة أن زوجها قد شُغل بالكامل بعدما أنشأ مكتبا للخبرة القانونية والاستشارات المالية. تعرفتْ مليكة على هند، الشابة الطائشة التي جاوزت الثلاثين، قادها طيشها وكثرة استهتارها إلى الطلاق ثلاث مرات... كَوَّنت مع الصديقة الجديدة التي تعرفت بها بإحدى اللمات بمنزل صديقتها مينة، علاقة قوية متينة خاصة أنها وجدتْ هند دون عمل ولا ولد... غنية، فارغة الوقت لا هم يشغلها سوى نتفِ حاجبٍ أو رسمِ شفة.

بدأ إدريس يجد الثلاثينية النضرة بصورة مستمرة ببيتهم، بل لاحظ آنذاك أن والده أضحى كثير الرجوع إلى المنزل. فما يكاد يلج بيته قادما من الثانوية حتى يجده جالسا مع أمه وصديقتها، يضحكون ويتفكهون بقصص هند التي لا تمل من الحديث، غير أنه حديث غنِج يحمل ثقلا من الدلال والتهتُّك... رمقها مرة وهي ترمي بنظرة حالمة نحو والده الذي بدأ يبادلها سهام النظر شيئا فشيئا... في يوم من الأيام أخبرته أمه أن هند ستكف عن المجيء المتكرر للمنزل. كانت تُبشره، فهي تعلم أنه لا يستظرفها ولا يستسيغها ولم يكن يطيق سماعها ولا النظر إليها، تهلل وجهه لكنه أخفى ابتسامته سائلا عن السبب، قالت الأم إن والده سيُشَغِّلها معه بالمكتب، فهو يحتاج لكاتبة، وهند تحمل دبلوم بالمحاسبة، وتتقنُ اللغتين الفرنسية والإنجليزية... لم يُعلق إدريس ولم يُعر الأمر بالا، فالمهم أنها ستختفي مؤقتا من بيتهم...

وبعد ذلك بشهرين أو ثلاثة صُدم بخيانة هند لأمه، فقد سقط خبر مضاجعة الأب للكاتبة على مليكة كالصاعقة... جاءها اتصال من امرأة سَمَّت نفسها بفاعلة خير، تخبرها بأن زوجها يخونها مع صديقتها هند، وحدَّدت لها الشقة التي اختارها لخياطة الغرام والعشق المُحَرَّم، كما هَدَتها لموضع المفاتيح، قائلة لها:

- إذا أردت التأكد فهو الآن معها... إقامة كوكب الشمال بِلاجيروند...

تعرفينها... ستجدين المفاتيح بصندوق الرسائل رقم 20، وهو نفس رقم الشقة.

خرجت الأم دون تفكير لتقف بعد قليل أمام كنبة جلدية تضم زوجها في بِرْنَسٍ أحمر وقد أدار ذراعه على خصر هند... كانت هي من اتصلتْ... وهي من دفعت الأب لتطليق زوجته واختيار النضرة عوِض العجوز المهترئة... اختار شتات العائلة... ربما هي مُرَاهَقَة متأخرة، لكنها عاصفة... فجاء الطلاق، وأسْدل معه تفوق إدريس الدراسي، فرسبَ بالباكالوريا.

سألتُ إدريس عن أمه فأجابني بمكوثها عند أختها العانس، أما هو فقد اختار ولوج التكوين المهني، لكنه لم يُكمل، فقد اختار الذهاب للشرطة المغربية... قَدَّم ملفه، وأخبر أباه عن بُغيته قصد التدخل وإيجاد واسطة تسهل عبوره لجبل المنافسة... رضخ الأب، ويسَّر له الولوج، وهو الآن قد تخرَّج وسيبدأ الخدمة البوليسية داخل مركز أمني بالرباط... هو الآن بالأحباس ينتظر الكاتب العمومي ليكتب له ورقة قانونية ما.

لم أُعقِّب على الأحداث كثيرا... غير سؤالي عن موقف أبيه الآن، فأجابني أنه لا يلقي له بالا. فالمهم أن يسكب له بحسابه البنكي مبلغا محترما كل شهر، وأن يُرسل مستحقات أمه... ثم بعد هذا لا شيء يهم... ابتسم في خُبث ثم قال لي:

- أمي ستتزوج رجلا سبعينيا الأسبوع المقبل.

لم أقل شيئا، غير أني تمنيتُ له حياة مديدة سهلة، لا يشوبها حزن ولا قرح... ثم ودَّعتُه.

لم أتصور آنذاك أنه سيُوَقِّع بعد ذلك على أهم حدث بحياة سارة.

سفور

كان صوت تقليب الصفحات يُسمع كدوي قرع طبول بساحة صماء، فيهتك سطوة الصمت، كتصريف رياح تهبُّ فجأة وتخبو فجأة... كان مراد بغرفته يقلب بعض الكتب التي اقتناها حديثا، غير أن كتابا بذاته قد شغل اهتمامه وأخذ بلبه... كان يقرأ كل كلمة فيتقلب لها صدره، ويتيه لها فؤاده... ثم يبدأ في تدوين بعض العبارات والإشكالات كي يبحث عنها بكتاب آخر، أو يستعين بشبكة الأنترنت القاصرة، التي لا تجود عليك إلا بفهم واحد... فَهْمُ القوة الغالبة!

– 1 –

الإثنين... 19:00 مساء.

أخبر إسماعيلُ صديق سمير الوفي، والشاب الضخم ذو الكرش المتهلهلة الناتئة أمامه، مرادا أن سمير يُعِدُّ كتابا للردِّ على أحد المبتدعة، ممن ينادون بالإصلاح السياسي بدولة ما... ناقشه مراد آنذاك، واستفسر عن جدوى رده على شخص يتكلم في أمور بلد بعيد، خاصة أنه تحدث عن سياسته الداخلية التي لا يفقه بها سمير شيئا... أخبر مراد صديقه الذي لم يستسغ كلامه أن سميرا لا يملك ملكة فقهية تجعله يرد على عالم مصلح أو حتى داعية يُبدي رأيه السياسي أو الإصلاحي، خاصة أن ذلك يستلزم فقها لواقعهم ودراية بحالهم...

– الشيخ عبد الصمد قد زَكَّى الأخ سمير.

قال إسماعيل لمحادثه في شيء من التنديد والاستنكار... كان مراد قد اعتاد المعارضة من أصدقائه، بل واتهامه في بعض الأحيان بالميل والحيد عن منهج السلف، بل إنه صار يقدم أقوال المبتدعة على أقوال علماء السلفية كما يدعون... لكنه بات يُعرِّف السلفية بتعريف آخر، ويرى فيها معنى آخر غير ما يراه كثير من زملائه... أجاب مراد صديقه متهكما:

– مَن عبد الصمد هذا؟... وهل هذه التزكية تُخول له زج رأسه بأمور سياسية بعيدة عنه.

– تلك أمور عقدية... لقد حاد ذاك القطبي السروري الهالك عن الجادة، وأضحى خارجيا... قد حاد عن طاعة ولي الأمر.

– عقدية؟... لقد أبدى رأيه حول أمر داخلي خاص ببلده... معذرة فما يقوم به سمير، وأنت معه، لا يعدو أن يكون ولاء لدولة أخرى... ثم أنتم تمارسون إرهابا فكريا.

– ها أنت تتكلم كالمبتدعة القطبية... بل كبني عِلْمان!

لم يكمل آنذاك مراد حديثه... فهو يعلم أن مجادلة إسماعيل لن تغني ولن تسمن من جوع، إلا المهارشة الفارغة التي لن تُخرج فكرا ولا فهما... اعتذر عن مواصلة الحديث زاعما أن اجتماعا لنادي الميكانيكيين قد شارف على بدايته.

– 2 –

الإثنين... 22:00 مساء.

طرق باب الغرفة ببطء ممزوج بثقل، ثم فتحه ليلج مراد غرفة عبد الجليل... كانت الغرفة ممتلئة عن آخرها بزملائه. كل شخص في فلك همه سابح مُبحر... فعبد الجليل يناقش تميرنا مع ثلاثة من زملائه بالقسم،

وآخران يداعبان هاتفيهما الذكيين. أما سمير، فقد جلس أمام حاسوبه المكتبي واضعا سمَّاعات دقيقة كي لا يشوش عليه أحد ويُركز في الدرس الذي يسمعه، إذ كان يُفرِّغ الدرس على دفتره.

- السلام عليكم.

حيَّا مراد العاكفين بغرفة عبد الجليل. لكن هذا الأخير لم يُبد أي ردة فعل، ربما أخذته معادلات التمرين وأحاجيه، أو ربما قد بدأ في هجر الكلام معه كما أخبره إسماعيل سابقا:

- يجبُ أن نهجره... ففي هجره ردع لما أضحى يعتقده... أتدري لقد أخبرني سابقا أن التوسل بالنبي أمر خلافي... واش الشرك أمر خلافي؟!

كان هذا ما قاله سابقا عبد الجليل لإسماعيل في حنق وغضب، فقد ناقش مراد حول كلام المهدي بولعود... خاصة قوله إن الإمام أحمد بن حنبل قد أجاز التوسل... صُدِم عبد الجليل عندما أقر مراد ذلك، بل أخبره بقول الإمام الشوكاني بجواز الأمر، وعدد له أسماء علماء من السلف والخلف ممن يجيزون التوسل بذات النبي... أخبر عبد الجليل سمير بالأمر، فأشار الأخير عليه بتجنُّب الكلام معه، وشرح له أن السلف أجازوا هجر المبتدع.

خطا مراد فوق بلاط الغرفة الذي اختفت قسماته تحت مجموعة من الأواني البلاستيكية والألمنيومية، والمقررات المدرسية، وصفحات الجرائد، وحصيرة قصيرة الأبعاد تربض في شموخ وسط الغرفة قائلة أنا الأصل وباقي المفروشات تقليد، واتجه نحو أحد المنهمكين على مداعبة هاتفه الذكي... جلس بجواره وسأله في همس:

- لقد أخبروني أنك كُلفتَ بتحرير مجموعات الأعمال التطبيقية... وأنك وضعتَ اسمي مع كل من نهاد السملالي وكريمة العواني.

نظر كريم نحو مراد مبتسما، ثم قال:

- نعم لقد فعلت... بحثتُ عنك كي أخبرك ولكن لم أجدك بغرفتك، كما أنك لم تحضر درس اليوم بقسم الميكانيكا.

- ومع من أخذت المشورة... لماذا وضعتني مع فتاتين؟

- وا صاحبي دير الخير... مجموعة كانت تضم ثلاثة ذكور، ومجموعتهن ثلاث إناث... أنت تعرف أن الفتيات لا يُجِدن التطبيقي، وقد وقع لهن مشاكل عديدة، لذا آثرتُ أن أعيد فرز المجموعتين.

- لكن لماذا أنا؟

- لشيئين... أولا وقع لنهاد وكريمة مشكلة مع تلك الفتاة المتعجرفة... سارة الصنباطي... كما إني أعلم مشاكلك مع الإخوة خاصة عبد الجليل... فقد لاحظتُ مؤخرا أنكما على تضاد وهجران... فأبدلتُك بسارة... ثم إني أعرفك جيدا... فأنتَ لا تُطيقها.

عرج كريم بنظره مرة أخرى إلى هاتفه الذكي، كي يُكمل مرحلته المتقدمة باللعبة الإلكترونية... لكن مرادا أخذه تفكيره بعيدا... خاصة عندما لامس اسم سارة وداعب أذنيه، فقد خالجه إحساس غريب خُطف معه قلبه، ودبَّ بجسمه نمل لطيف أحدث صريرا بمفاصله ورعشة بجلده... تكرَّرَ ذاك الإحساس وما يخالجه من دبيب الأحاسيس وقبضة مشاعر الفؤاد كثيرا، فكُلَّما رآها أو سمع اسمها كان قلبه ينتفض كأنه بمعركة الحياة للظفر بمحبوبته... لكنه كان يرفض ذاك الإحساس، خاصة

أن سارة فاسدة العقيدة، مُلحِدة، ثم تلك المسحة من التكبر بنظراتها تكاد تعصف بكل من يقف أمامها. لكنه تمنى تلك اللحظة لو أبدل شخصا آخر بالمجموعة، ليُشاركها نفس المحيط ولو لمرة واحدة بالأسبوع.

– 3 –

الثلاثاء... 7:40 صباحا.

– دُرتِ ودُرتِ... وسقطتِ في الظلاميين.

حدَّثت كوثر صديقتها بالمقصف... لقد ولجت الطالبتان المعهد الهندسي للتو... كان المطعم ينتظرهما بكأس من القهوة الممزوجة بحليب رديء، وقطعة من خبز باريسي أقسى من عاج أنياب الفيل، إضافة لجبنة يتيمة، لكن الشابتين لم تقصداه بل عرجتا إلى مقهى الداخلية قصد رشف قهوة جيدة أو عصير ليمون مع الخبز الصغير المُحلَّى بالشوكولاتة... لقد اختارتا أن ترجعا يوميا لمنزلهما قصد المبيت... فبعدما زينتْ سارة غرفتها المشتركة مع كوثر بأحسن فراش، وأثثتها بتلفاز وثلاجة، قررتْ أن تدعها مقفلة مقفرة... كانت توصل كل يوم صديقتها لبيتها، وتمر عليها كل صباح قصد الذهاب للمعهد.

أرسلتْ سارة ابتسامة، وقالت في مكر:

– سأقودهم إلى الجنون... لن أتركهم حتى يُجَنُّوا بالكامل.

ثم ضحكت وأرسلت قهقهتها وسط المقهى، لينظر إليها المحيطون بها في استنكار... لم تُعرهم اهتماما لتُضيف لصديقتها في همس:

– سآتي يوم الأربعاء بتنورة قصيرة، وقميص شفاف... سأرى غضهم للبصر، كما يدعون، أين سيوصلهم؟

- ألا تحشمين؟

- ولماذا الحشمة؟... أنا أتصرف وفق غريزتي التي جبلتني عليها الطبيعة... فالمرأة تحب الزينة والتدلل.

ثم أخبرتها أن أولئك الظلاميين، خفافيشٌ لا تنشط إلا على إيقاعات الرذيلة الفكرية... يدعون الإيمان والترقي الإنساني، لكنهم يعيشون أقبح تجليات العته... يدعون أنهم يملكون الحقيقة، لكنهم بالحقيقة يُعطلون عقولهم، ولا يزنون بالقسطاس السوي.

- لا أعرف كيف أمكنهم ولوج معاهد الهندسة والمرور بالأقسام التحضيرية، فمادتهم الرمادية مُعطَّلة جامدة قد عشَّشَتْ بها عناكب التراث فأحالتها مهترئة.

- هووووشْشْ... تكلمي بصوت خافت سيسمعك أحدهم.

ابتسمت سارة ثم أطلقت كلماتها:

- سترين... سأقودهم إلى العته!

وضعتا كأسيهما على المقصف ثم انطلقتا نحو قاعة الدرس... فقد أعلنت عقارب الساعة على مقارعتها للثامنة صباحا.

- أوووف... كم أكره الأستاذ العلواني.

- سارة... دعي ساعتنا هذه تمر بسلام.

– 4 –

الأربعاء... 14:00 زوالا.

كانت سارة واقفة وسط المختبر الإلكترو – تقني تتحدث مع أستاذ المادة الشاب وقد تهلَّلت أساريره وهو يشرح طبيعة العمل التطبيقي الذي ستقوم به...

لم يحضر عبد الجليل ولا العضو الآخر بمجموعتها... لكنها ستنتظرهم وتملأ يومهم غنجا ودلالا يكسر شوكتهم التي طالما أشهرتها نظراتهم القاسية لها... كانت مجموعة مراد قد بدأت عملها مند دقائق، فقد شرح لهم الأستاذ واجبهم التطبيقي بسرعة، عكس سارة، إذ بدت عليه الحكمة والتؤدة!

اختلس مراد مرة بعد مرة النظر إلى سارة... لم تكن عيناه هي من تسترق النظر أو تلوح بالبصر، بل قلبه من يرسل آهاته نحوها، ويبث نجواه، لكن بلا مستجيب. ارتعشت يداه وهو يضع المقابس والأسلاك بأغمادها. لكن التخبط والتضارب كان الوسم الطاغي على مشاعره... لم يكن يستسيغ تبرجها ولا سفورها الصارخ، لكن عينيه لم تكن تنظر لجسمها ولا لمفاتنها التي ما فتئتْ تُظهرها متحديَّة العرف والتقليد... أو ربما صار العُري عرفا، والسفور من التقاليد!

بعد ثلث ساعة جاء خالد، شاب قمحي اللون، من وجدة، تغلب على طبيعته الشدة، لكنه عُرِف باستقامته وكلامه المباشر دون تنميق للحروف أو تزيين للكلمات... كان العضو الثالث بمجموعة سارة. لم يُحس الأستاذ بدخوله إلا وقد وجده واقفا ماثلا أمامه، نظر خالد بعينين مثقلتين لسارة ومسح جسمها من صندلها الأسمر وصولا إلى شعرها العسلي المتراخي على كتفيها وظهرها... تنهد عميقا مرسلا زفيرا من فمه الضخم، ثم قال بصوت مسموع:

- الله يخرج سْرْبيسْنا على خير!

لكن سارة لم تسمعه، فقد كانت آخر كلمة خالجت باحتها السمعية من الأستاذ هي:

- ابدؤوا الآن!

ليُخطف بصرها، وتجدُ نفسها ماثلة أمام باب حصن المدينة الضخم، وقد عُلِّقتْ فوق دعامته العلوية خمسة رؤوس، فُصلت عن جذوعها، كانت تتراقص في مشهد مرعب مع الرياح... تراهم جيِّدا وتعلم شخوصهم، رغم العتمة التي لَفَّتْ المكان، وحلكة الليل البهيم الذي أُسْدِلَت أستاره ونُشِرَت ظُلمته لتطمس نور الإيمان تحت سنابك الصليب... إنهم إخوتها بالمجموعة الثورية.

- 5 -

سمعتْ عائشة صوت قرع نعل البورتوغاليين الحديدي وهو قادم من خلف الجدار، فأسرعتْ بخطى حثيثة هامسة، نحو أحد الأبواب الضخمة لديوان الشعراء الذي كان قريبا منها... ثم توارتْ بحافته خلف نتوءات الجدار البارز... بعد دقائق كانت المجموعة البورتوغالية قد اختفت واختفى معها قرع نعالها وصرير رماحها وسيوفها. أخرجت عائشة رأسها ناظرة يمنة ويسرة، ثم اتجهتْ إلى دوحة ضخمة، تَسَلَّقتها لتجد نفسها بعد حين خارج أسوار يابرة.

اتجهتْ ببطء نحو الفرس الذي كان مربوطا بجوار الحائط الخلفي، وانطلقت تعدو تسابق الريح التي أبتْ هي الأخرى أن تُذعن للغازي الغاشم، فأطلقت عويلا وصريرا لم ينكشح لأكثر من شهر، استغلها الثوار اليابريين في توجيه بعض الضربات الموجعة للصليبيين. الآن عَلِمتْ سر اختفاء الخمسة الذين كُلِّفوا باغتيال الفيلق البورتوغالي المتاخم للسور الشمالي، والذي كان يضُمُّ عشرين جنديا... لقد تأكدَّت أن جنود أبورتو قد قبضوا عليهم، بل قتلوهم ومثلوا برؤوسهم!

بعد بضعة كيلومترات، أوقفتْ حصانها، ألجمته ثم ولجت كوخا خشبيا مهترئ الأركان... لم تدر سارة ما خطب عائشة ولا التطورات التي اكَبَّت أرضة الزمن فأكلتْ مشهد العزة الأخير لتُظهر ملامح الذل والهوان الذي باتت تحس به ويخالج القلوب التي تحيط بها.

- السلام عليكم.

أرخت عائشة لسانها بتحية الأشخاص الذين ملأوا المكان... كانوا نحو عشرين شخصا، أغلبهم رجال... لكنك ستميز أن النساء قد جاوروا الأربعة إضافة لخامستهم عائشة... كانت ملابس الرجال تلتف على أجسادهم في إحكام، مسدلة أطرافها على شراويل تنتهي تحت أحذية من الجلد السميك. أما النساء فقد ترهلت الأثواب حد نصف الساقين، كاشفة عن سراويل محزمة بأشرطة سوداء تتداخل مع أحذيتهن، أما رؤوسهن فقد ضربن بها الخمار وأخفين بها الجيوب. ثم بادرت عائشة إلى الجلوس بالجهة المخصصة للنساء.

- لقد تأخرت يا عائشة.

خاطبها أحد الثوار محمد أبو لبيب وهو ممسك بسيفه يصقل حده.

- إن جنود أبورتو يملؤون أسوار يابرة... حتى أني وجدتهم بنقاط وأماكن لم يضعوا أسلحتهم بها قبلا... بل وجدتُ حراسة مُشدَّدة حول الأماكن التي قصدتها.

- لقد أضحوا يعلمون بتحركاتنا إذن.

أجابها أحد الثوار الجالسين بمحاذاة شمعة عليلة، يتحسس حروف كتاب متآكل الأطراف... لتجيب وقد قطبت حاجبيها:

- هناك خائن بيننا... لقد وجدت رؤوس الإخوة معلقة على باب يابرة... إنها رسالة تهديد منهم.

ثم اختفت الصورة من ناظر سارة... خَفَتَتِ الأضواء وانكمش الضياء ليرخي الظلام سلطته ويمسك بحبل الزمان والمكان من جديد... ثم لاحت لها الساعة النحاسية مرة أخرى... تتحرك كعادتها في تؤدة، وأضحت عقاربها تقرع الآذان بقوة كأجراس كاتدرائية ضخمة...

- ما خطبك يا سارة... أراك مرعوبة ترتجفين؟

كان الصوت النسائي الرخيم قد أرخى أصداءه بأذني سارة... لم تنبس ببنت شفة... فتابع صوت عائشة الحديث:

- لقد اقتحم البورتوغاليون مدننا، وسقطت القلاع بأيديهم الواحدة تلو الأخرى... نُكست المساجد واغتصبت النساء... قُتِّل رجالنا الأحرار... وهُجِّر الأطهار، وعُذِّب الفضلاء المؤمنون... لا لشيء إلا لقولهم ربنا الله.

ثم بدأ الظلام يترك بعض قواعده لصورة متمثلة... صورة مُرعبة تقشعر منها الأبدان، وتعصف باللبيب الثابت بدروب الارتباك والتخبط... كانت غرفة عطنة تزكم روائحها النتنة الأنوف، ذات جدران كلسية الآجر قد اختلط لونها مع لون أحمر قان... نجيع تتراقص عليه مختلف الحشرات الطفيلية... وُضعت بجدرانه شموع ضخمة تتراقص شراراتها لتزيد المكان رعبا وتضفي عليه مسحة من الخوف والرهبة... قد وُضع بمحاذاة الجدار المقابل لباب حديدي سميك، كرسي ضخم غريب الشكل مُرعب الملامح، اختفت تقاسيمه تحت دماء ملبدة وقطع من اللحم المثبت على

مسامير عديدة تخرج من قاعدته ومُتَّكَئه... كانت النتوءات المُحدبة قد أبت أن تترك من عُذِّب فوقها إلا وقد نزعت شيئا منه... غالبا ما كان ذاك الشيء، حياته.

سمعت سارة قرع نعال آتية من خلف الباب الحديدي، ثم طرطقة مفاتيح، فُتح الباب الضخم على إثرها... ولج الغرفة الضيقة رجل ضخم الجثة قد وضع قناعا أسود تصل أطرافه إلى صدره العاري المكسو بشعر أشهب مجعد، يمسك سلسلة ضخمة تنتهي بأصفاد قد أحاطت بمعصم يدي شخص أربعيني اختفت ملامحه خلف الكدمات الزرقاء والدم المتلبد، كان عاريا تماما تظهر تقاسيم التعذيب الجسدي عليه، وتحيل مشيته المتهالكة على تعرضه لصنوف من العذاب... كان جسمه يحمل آلاما ترسم قسماتها المتهالكة على جميع أطرافه. لم تسلم شعرة من عذاب وألم، لكن عينيه ظلتا تُشعان ببريق غامض كأنهما لؤلؤتان قد هجرتا صدفتيهما وتلألأتا ببحر الموت، فجعلته يُشعُّ كأنه كوكب ذري ينير درب السالك... كانت سارة تُحرك مقلتيها في توتر من المشهد... ترتعد وتتذبذب... كانت تُحس باعتصار قلب عائشة بقفصها، كانت تلمس دبيب الألم يرسل أصفاده ليكب الفؤاد ويزج به في تيه الأسى والحزن والغضب والكراهية... مزيج من الأحاسيس السوداء القاتمة تلك التي ملأت جنباتها ولمست أعصابها... تخالطت المشاعر الفاسدة فتمثلت في صرير يُسمع بين نواجدها، حتى أن أضراسها لم تَسترح من الغيض حتى كُسِرَ ضرسها الضاحك.

جر العملاق المقنع الكهل الأسيف حتى وقع هذا الأخير على الأرض، فانهال عليه رفسا وبصقا، ليحمل بعد ذلك عصا ضخمة ويُمطر ظهر المُقيَّد

بوابل من صواعق الضرب لترتسم صواعق الألم بين ثنايا جسمه... خُطفتْ الصورة فجأة، فارتسمت أمام سارة قاعة ضخمة تشهد صليبا ضخما قد وضع بعناية على الجدار المقابل للباب الخشبي الضخم الكستنائي، قد نُمقت جدرانه بزخارف أندلسية إسلامية، كما انتصبتْ بمختلف أرجائه أساطين بيضاء تدعم أعمدة دائرية وأخرى مربعة الأكتاف، وأطباق مضلعة تُشع في ضياء من تحت جامات بديعة. كما تمكنَّتْ من تمييز كتابات عربية مطموسة، وحروف قرآنية قد قاومتِ الطمس فأبتْ أن تخنس وتختفي.

جمعٌ من الناس يقفون في خطوط مستقيمة ومتتابعة، يُثبِّتون نظرهم نحو منبر عال تاخم الصليب الضخم... يقف عليه رجل قد دنت روحه من معانقة الثرى، تَقَوَّسَ ظهره وتساقط جُل شعره الذي استحال صحراء قاحلة تحت قلنسوة صوفية رمادية حاكتْ طبيعة ملابسه التي انحصرت في جلباب صوفي أسود، كُسِّرَت حلكته بحزام أبيض قد استدار على خصره، وصندل جلدي يُظهر أصابع رجله الضخمة، ملأتها تشققات سوداء وتصدعات على أظافرها الميتة سلفا... كان القس جبرائيل يُمسك إنجيلا أسود ويقرأ تراتيله اللاتينية على جمع من المستوطنين الجدد ليابرة. إنه مسجدها العامر قد استحال كنيسة للأهل أبورتو... كان يُذكر فيها اسم الله وتُتلى آياته ويُتدارس الفقه المالكي وحديث نبي الله محمد ﷺ، كما اختلطتْ ذرات هوائه مع زفرات حروف اللغة والأدب العربي. لكن ها هو الآن نُكستْ آهات المصلين ودعاء المنيبين وما سُمع من تراتيل، لتستحيل تلاوات ورفع بالأصوات لكلمات الإنجيل... لم تكن سارة لتُلقي بالا لتحويل المسجد كنيسةً، فهما سواء عندها... بيوت تُكرس العته الإنساني الخالد، واحتياجهم الروحي الذي حاك نسيجه المتسلطون لكي يُذعن

لهم المحكومون... فباسم الرب يسوع قاد ملوك أبورتو وقشتالة وليون جيوشهم ليطردوا شعبا قد عَمَّر بالبلاد لقرون... لكن سارة أحستْ بشيء بقلبها، أحستْ أن فؤادها قد اضطرب من هذا المشهد، كانت تريد أن تتفلت من قيودها الزمنية وتنقض على الماثلين أمامها المغتصبين لأرضها!

كانت هذه المرة الأولى التي تُحس هي... سارة... أن يابرة أرض لها... وأن دينهم هو دينها!

- آمين.

ردد الأبورتيون الكلمة خلف القس الذي رسم الصليب بين كتفيه وناصيته، ثم قفل الكتاب الأسود، وتحرك بخطى متثاقلة نحو باب صغير مخصص له، وما كاد يتجاوزه حتى ولج سرداب طويل قد أظلمت سرادقه، يقبع بعُمقه درج ينتهي بقبو موصود... حمل قنديلا بيده وهبط الدرج، حتى بلغ بابا حديديا آخر، كان مفتوحا شيئا ما، وقد انبعثت منه أشعة من الضوء الأصفر... دفعه بتؤدة ليتمثل أمامه كرسي حديدي قد كُسِي بالكامل بنتوءات فولاذية محدبة كمسامير، يجلس فوقه كهل، أخفت الكدمات والدماء المتلبدة وجهه، غير بريق قد انطلق من عينيه فور ولوج القس المكان... كان الأسير مربوطا بإحكام على الكرسي وقد وُضعت عليه أثقال وشوالات ضخمة، صُفِّدت يداه بخشبة مثبتة على أطراف الكرسي، وعنقه بأخرى قد شَلَّت حركته وجرته إلى جدار الكرسي كي تنغرس النتوءات الحديدية بظهره وفخذيه... كما جُرَّتْ يداه ورجلاه المربوطة بالمعصم والكعب بحبل أدير حول أسطوانيتين ضخمتين، ثم جُمعت أطرافه لتتقاطع بعجلة ضخمة...

اتجه القس نحو الأسير وانتزع بطريقه قضيبا حديديا محدبا... وقف

بجانبه وهو يبتسم ويُتمتم بعبارات غير مفهومة... لكن الأسير أدرك أن فصلا جديدا من العذاب سيبدأ... أكمل القس عباراته ثم ضغط بالقضيب على جرح غائر بكتف المُقيَّد، ليتعالى صياحه مع تجاوز الأداة الحديدية اللحم البائن وتوغله بعضلة كتفه الأيمن... لكن صراخه استحال بعد حين لكلمتين اختلطتا بحشرجة العذاب... كان يقول:

- الله أكبر.

أدار معها الرجل الضخم العجلة لتتمدد يداه وتُسمع طرطقة مفاصله، وتمزيق جلد ظهره وفخذيه... وما كاد الإغماء يرسل دبيبه بعقله، حتى سكب المُعذِّب ماء نتنا عليه، ليستفيق لحصص أخرى من العذاب.

سمعت سارة أصواتا أخرى وآهات تُتلى خلف الجدران... كما أن اسم الله كان مفهوما وسط عبارات القهر والأسى... اتجهتْ دون وعي منها إلى الجدار المزيَّن بالشموع، ثم اخترقته لتجد مشهدا زاد رعبها اتقادا، وغضبها حنقا واشتعالا. غرفة كسابقتها، شديدة النتانة، كما كانت رائحة شواء نافذة قد زكمتْ جيوبها الأنفية.

كانت جدران الغرفة تَحُفُّ عجلة ضخمة، لكنها ذات محور أفقي، يجعلها منتصبة كناعورة سقي... قد حملت على حافتها جسما مُمَدَّدا ومقيد الأطراف، وقف بجانبها رجل قد أخفيتْ تقاسيمه تحت قناع أسود مدبَّب الرأس، يتصل بجلباب أسود ترتخي أطرافه مُخفية قدميه... كان يمسك بمقود العجلة ويديرها ببطء حول محورها المثبت بدعامتين خشبيتين، ليدور معها الشخص المُثَبَّت على حافتها الدائرية، ويلامس نارا مُشتعلة بفحم خشبي أسود أسفل العجلة... كغزال شارد يُشوى فوق نار هادئة!

كان صياح المُعَذَّب يصل إلى كل شيء، إلا طبلتي أذني المُعذِّب... يدير

في بطء يتلذذ في تعذيب المسلم على العجلة الدائرية، كانت حفلة الشواء السادي تُقام على ظلال الشموع المُتذبذبة والمُتموجة على عتبات الألم، كأنها تسانده في صمت... تقول له اصبر يا أخا الإسلام، فموعدك الجنة.

أوقف المقنع عجلته بعدما دخل أحد القساوسة إلى المكان... اتجه نحو الرجل الذي سقط جلده وشُوِيَ اللحم الذي تحته، حتى اختلط شحمه مع عرقه المتساقط، انحنى ليقارب نَفَسَه، انتظر قليلا ثم عرج بنظره نحو الجلاد، أطلق عنان بضع كلمات، ثم خرج من المكان... كانت الكلمات كافية في فك ربطه من العجلة، لكن المقنع الأسود جر الرجل العليل من رجله، واختفيا خلف الباب الضخم، كانت رأسه تُسمع من أثر ارتطامها بالأدراج، ثم عم السكون المكان... نظَرَت سارة إلى الأعلى ثم أضحت روحها لطيفة، ففارقت الأرض واخترقتْ السقف، لتقف أمام مقصلة ضخمة، هوتْ فجأة على رأس الرجل الذي كان يُشوى قبل قليل، قرقع نصلها المدوي، ثم قُذِف رأسه نحو المشاهدين، وانهالت عليه بعد ذلك الركلات من المستوطنين البورتوغاليين والمستوطنات.

ثم خنس المشهد، وعمَّتْ البهيمية... تفطَّر قلب سارة وامتزج بفؤاد عائشة العليل... كان الصوتُ الرخيم قد بدأ في نسج جمله بفكرها، وبدأت الساعة النحاسية الضخمة في شق الظلام وتحطيم قطعه بضجيج عقاربها المُدَوِّي... قال صوت عائشة:

- هذا ما يسمى بمحاكم التفتيش، بل هي محاكم التعذيب... كان كل من نضح جسمه رائحة موسومة بالإسلام يُحمل إلى أقبية الكنائس ويُعذَّب أشد العذاب... تفنن القساوسة ورجال الدين الصليبي في اختراع أفتك الآلات

وأكثرها تعذيبا وإيلاما، كانوا يمسكون المؤمنين ويسومونهم سوء العذاب، ثم يجزون رؤوسهم لتُعلَّق على أبواب يابرة، أو يصلبون بالساحة العامة، ثم تُشعل النيران من تحتهم، حتى الموت. كنَّا عشرين شخصا اخترنا الجبال وفجاجها، والتلال وتخومها كي نجاهد الغازي الغاشم، وننتزع أرضنا منهم انتزاعا... لكن ما كدنا نحقق فوزا أو انتصارا مرحليا حتى يجتزوا رؤوس رجالنا ويُدنِّسوا بصلبيهم إيمان قلوب أهال آخرين تحت التعذيب والإرهاب من قساوستهم ورجال دينهم... كان بيننا خائن يُحرك منسأته ليدل على عملياتنا، بل يشير لمن حافظ على إيمانه صافيا، أو من ظل يرسل جبهته إلى الأرض خاشعا لرب السماوات، أو ترك الأكل والشرب حتى الغروب... كان ذاك الخائن يتحسس سكان يابرة، من بقيَ على دينه فاقتلوه.

بدأت صورة أخرى تتكون أمام نظر سارة، بعدما تشكلتْ جسدا في شخص عائشة... كانت الأندلسية واقفة أمام مشهد لم تقدر أن تحرك ساكنا كي تمنعه... كما أنها حاولتْ أن تتحرك لمد يد العون للمرأة المثقلة بالكدمات فما استطاعت لها ركز القول أو المعونة... كانت حبيبة امرأة أندلسية من سكان يابرة، قد قتل الأبورتيون ابنها... قالوا إن الكنيسة قد حكمت عليه بالإعدام، وذلك لمعاداته للرب يسوع وهرطقته ضد معتقد الدولة... لقد خوزقوه بالساحة العامة عاريا، ثم رسموا على صدره صليبا أسود... لم تتحمل حبيبة الأمر، غير أن تدخل عائشة حال دون وصولها له... حاولت عائشة أن تُصبرها خاصة أن لها ثلاثة أطفال آخرين... لكن أصداء حنقها عليهم، بل وتفلها بوجه أحد جنود البورتوغال قد جز بها بدوامة العذاب. لقد تدخلتْ لافتكاك إحدى بناتها من يد البورتوغاليين، كانت ابنتها جميلة تضع خمارا يواري كل جسمها ما عدا وجهها البهي، تناثر الكلام من أفواه الجنود العطنة والتي مُلئت نتانة وخبثا...

مد أحدهم يده لينزع عنها خمارها، فقاومت ليرسل الآخر عصا رمحه ويرفع طرف الخمار لتبدو عورتها عيانا لهم... صاحت جميلة التي كانت محاذية لبيتها... تدخلت أمها... لكن جنودا آخرين بدأوا في محاولة كشف عورة الأم كذلك... قاومتا بشدة... تركوهما... ليعودوا بعد ذلك بمباركة الكنيسة مع القس جبرائيل، وتُحملا قصرا، إلى الميدان العام، كي يقيموا عليهما حد الساحرات كما زعموا... عَلِمتْ عائشة أن الجنود رجعوا... سابقتْ الرياح نحو أسوار يابرة... لتجد النيران قد خمدتْ وقد نشرت قتامتها على خازوقين ضمَّا جسدين متفحمين... كان جسدا الأندلسيتين قد بدآ في التفتت ومجاراة الرياح، لكن مشهد سبابتيهما كان واضحا، فقد أعلنتا الشهادة، لقد ماتتا وهما ترددان: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

كان العفاف الذي وسم القتيلتين، أو الشهيدتين، عجيبا غير مفهوم عند سارة... إنهما لم تُريدا أن تكشفا عن ساقيهما، أو شعرهما... آثرتا الموت عن إظهار ما تعتقدان حرمة إظهاره... كانت ضحكة وغنج من جميلة وإبداء شيء من شعرها بل ولا ضير في إبداء ساقيها سيجعل لعاب الأبورتيين يسيل، يبتسمون، ثم تنساب من بين أيديهم في دلال... معادلة واضحة وسهلة عند كل النساء... لكنها لم ترد ذاك، وآثرت الموت والقتل شر قتلة... الموت حرقا بالنار!

– 6 –

كان الأستاذ قد انتهى من شرحه، وأعطى أمره ببدء الدرس التطبيقي... كانت سارة تدير رأسها يمنة ويسرة، وما شعرت بيديها إلا وهما تمسكان بطرف تنورتها القصيرة محاولة أن تغطي فخديها البارزين...

– أستسمح سأعود بعد قليل.

قالتها لخالد الذي أعرض عنها وبدأ في إيصال المقابس بأغمادها... لكنها انطلقتْ خارج المختبر التطبيقي متجهة إلى مكان ما... لم تكن تعرف أين، إلى أن وجدتْ نفسها بغرفة الداخلية التي تقاسم كوثر سكنها... كان قلبها يدقُّ بشدة، وفؤادها مضطربا يرتعش كعصفور قد ابتَلَّ من زخات مطرية... لأول مرة قد أحستْ بهذا الشيء، هذا الشعور المبهم... لقد أحست أنها عارية.

ثم تذكرتْ شيئا ما... قلَّبتْ لسانها بحنكيها مُتحسِّسة أضراسها، ثم اتجهت نحو مرآة ضخمة قد ثبتتها سابقا بجوار دولاب ملابسها الحائطي، فتَحَت فمها محاولة أن تقتفي أثر ضرسها الضاحك... ثم سكنتْ فرائسها... لقد وجدته مكسورا!

– 7 –

جلستْ على كرسي مبطَّن أبيض، طَلَبَتْ عصير ليمون أخضر، ثم استنشقت بعمق عليل الصباح الذي داعب خصلات شعرها المتناثر... كانت كوثر تنظر لصديقتها في ريبة، فهي لم تحضر المعهد منذ أسبوع، كما أن هاتفها ظل مغلقا طيلة هذه المدة... منذ يوم الأربعاء زوالا لم ترها، آخر ما تذكر أنها غمزتها ملقية بإشارة ماكرة إلى ملابسها الفاضحة قبل أن تلج مَحْرَف الأعمال التطبيقية، ثم بعد ذلك علمتْ أن سارة تركت الحصة لتختفيَ بعد ذلك... لقد رمقتْ يوم الخميس أمها نعيمة حسون وهي تلِجُ إدارة المعهد... انتظرتها أمام باب الإدارة الخشبي، لتسألها عن حال صديقتها، أخبرتها أنها مريضة ولا تريد أن تقابل أحدا هذه الأيام. مرة أكثر من أسبوع على اللقاء، لتتفاجأ بسارة تهاتفها مساء يوم الجمعة، سألتها إن كان لديهم امتحانا صباح يوم السبت، فأجابتها بالنفي، لتطلب منها اللقاء في هذه القهوة بحي شريفة... أحستْ أن سارة على غير عادتها،

كما أنها شاردة الذهن كأن روحها انفصلت عن جسدها وجاورت البرزخ زمنا. حاولتْ أن تكسر الشرود الذي مسح قسماتها الضاحكة، فقالت لها:

- أراك بخير وعلى أتم صحة.

حركت عنقها كأنها تحاول قراءة عنوان الكتاب الذي وضعته سارة أمامها وأضافت:

- There is God... Antony Flew.

ابتسمت سارة ثم قالت بلسان متثاقل:

- إنه كتاب لأحد عرابي الإلحاد الجديد... أنطوني فلو... وقد اشتهرت كتاباته حول فلسفة الأديان.

- كعادتك يا سارة تقرئين كثيرا... الصراحة، عقلي لا يستوعب أننا أبناء قردة كما قال داروين.

- الأمر أعقد من ذلك حبيبتي... لكن هذا الكتاب حول الإيمان وليس الإلحاد... لقد انتقل فلو من الإلحاد فصار ربوبيا يؤمن بإله أرسطي، قوي وذكي، وقد تكلم كثيرا حول التصميم الذكي.

- لا أفهم كثيرا مما تقولين يا سارة... لكن أظنك لا تؤمنين أصلا بإله أو خالق.

- وفلو أيضا... فهو لا يؤمن بإله على شاكلة إله المسيحيين أو المسلمين... المهم كيف حالك أنت؟

أحستْ كوثر أن صديقتها لم ترد أن تُسهب بالموضوع أكثر من هذا، فبدأت تُحدثها عن الصدام الذي حصل بين عبد الجليل وكريم لإلحاقها بمجموعته، ثم عرجتْ حول الإشاعات التي رافقتْ غيابها، وكيف أسمعها خالد سيلا من التقريع حول لباسها آنذاك:

- على فكرة، لباسك اليوم جد طويل ويخفي أغلب جسمك.
- تبديل وكسر روتين... ثم خالد لم يقل لي شيئا... أنا من انسحبتْ.
- لماذا؟
- ظروف خاصة.
- المهم... مراد حبابي أخبر الجميع أن خالدا لم يُكلمك وأنك أنتِ من انسحبتِ.
- وكيف عرف بالأمر؟
- لقد كان ضمن المجموعة الثانية التي كانت بجانبكم.

حكَّت سارة حاجبيها، وأمالت شفتها السفلى في اعوجاج، كأنها تريد أن تقول شيئا لكن التردد يمنعها... إلا أنها أطلقت حروفها من بين شدقها:

- أتؤمنين بتناسخ الأرواح؟

عم الصمتُ هنيهة بعد كلماتها لتنفجر كوثر ضاحكة حتى كاد كرسيها أن يعانق البلاط، ثم قالت وهي تلملم كلماتها المتساقطة من وقع القهقهة:

- أأصبحت تشاهدين الأفلام الهندية؟... الظاهر أنك تمزحين.

صمتَتْ سارة ورفعتْ نظرها نحو السماء، كأنها تبحث عن حل أحجية مستعصية، أو فك ألغاز خاصيات غَالْوَا المبهمة... ثم أغمضتْ عينيها، فمن سيعطيها جوابا شافيا وسط هذا العالم المُتهالك؟

ثم بدأت تدير لسانها وسط فمها تتحسس الضرس الضاحك الذي رجع إلى مكانه كما كان!

تونس

– 1 –

– مختلف عمليات التشكيل الميكانيكي بالأداة القاطعة تتلخص في هذا الرسم البياني.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة ليلا، لكن الأقسام بالمعهد الهندسي مازالت تتلألأ بمصابيح النيون الزرقاء، ويمكنك أن تتحسس كلمات تقنية تتوزع بين الأروقة والطوابق بالمبنى المُخَصَّص للدروس النظرية بالمعهد الهندسي... كان مكتب الطلبة ونادي الميكانيكيين بالمعهد ينظمان دروسَ تقويةٍ لزملائهم قصد فهم ما أُشْكِلِ من طلاسم وتعقيدات المواد التقنية، خاصة أن الامتحانات الأولية قد أظهرتْ عجزا كبيرا في استيعابها وأغلب الطلبة المهندسين قد وَقَّعوا صك التيه والنقط العليلة. كان أغلب الطلبة القادمين من مسلك الرياضيات والفيزياء بالأقسام التحضيرية يجدون صعوبة كبيرة... فهم لم يقارعوا وحدات المواد التقنية قبلا، لكن الدروس تأخذ بعين الاعتبار أن الطلبة قد أهِّلوا سابقا لاستيعاب مختلف المفاهيم التقنية الأولية، وأن لديهم مكتسبات أولية بالعلوم التقنية... لذلك كان الطلبة القادمون من مسالك تقنية أو طلبة السنة الثانية والثالثة يقومون بملء ذلك العوز، وإعانة زملائهم.

كانت أروقة وسرادق بناية الدروس النظرية تتكدس بالطلبة المهندسين... بين متكئين على سور الحماية يتبادلون ثرثرتهم ويرشفون قهوة سوداء تَعِد بليل

طويل، وبين جالسين على الدرج يتجاذبون أطراف أحاديث مملة... وثنائيات من ذكر وأنثى اختاروا أن يتواروا بين ثنايا الظلال قصد لفظ محظور الحديث، وبث وجد زائف سرعان ما يختفي أثره كسراب ببيداء يتفتتُ فور لمسه.

إن أنصتَ بتمعن أو إن مررت بجانب كل هؤلاء ستجد كلماتهم تتهادى بين أربعة مقامات... أولها الدراسة الرتيبة التي زُجَّ فيها خيرة أبناء هذا البلد فهما واستيعابا وعبقرية، حتى أن سيرورتها تتمثل في شكل دوامة موت عقلي بطيء، يُفتِّتُ ذاك القدر القليل من المادة الرمادية الناجية من فكَّيْ سنتي الأقسام التحضيرية...

سنتان خُلِقتا لتفترسا!

أما ثانيها فالمقام الطابوهي... ذاك المقام الذي أنهكته أوتار الكلام ودفوف الحديث من الشباب... العلاقة بين الجنسين... فيمكنك سماع أزيز الكلام حول علاقة محرمة حاكتها ظلمة الخيانة بين الأصدقاء... صديقة قد قنصتْ رفيق صديقتها، وآخر قد تلاعب بأوتار أحاسيس فتاة صديقه... كما ستتمكن من فك تشفير مزايداتهم أو مزايداتهن في الإيقاع بفلان أو فلانة... من سيوقع الفريسة أولا!

أما أصحاب اللحى وتقصير الثياب، فلن تجد مجمعهم خالٍ من رسم حدود فتاة الأحلام... ووضع ملامح ليلة الدخلة وكيفية التعامل مع الزوجات وفق الكتاب العلاني أو الدرس الفلاني... بل كانت بعض الأحاديث الرائجة عليلة المبنى سقيمة الفهم والفقه.

- أتدري؟... يجب أن تكون منقبة مسبقا كي أتزوج بها.

وَجَّه عبد الجليل كلامه لأحد أصدقائه وهو يرشف من شاي عَلَتْ رُزَّتُه البيضاء على سائله الأحمر... ثم أضاف:

- العفاف أيها الأخ... العفاف.
- لكن هناك من الأفاضل من زوجته سافرة الوجه؟
- شُف يا أخي... ذاك ليس بأخ... بل ليس من الأفاضل... ديوث لا يكترث أن ينظر الناس لوجه زوجه!

أما النقطة الثالثة التي كانت هَمَّ بعض الطلبة، فهي الهروب من الواقع إلى الخيال... خيال يتمثل في المسلسلات الأمريكية والأنمي الياباني والأفلام الغربية الحديثة...واقعٌ، يرون أن به الكثير من خِرِّجي معهدهم قد قارعوا البطالة... أما من ولجوا سوق العمل فالكثير منهم قد رضخ لأجرة هزيلة لا تتعدى أجرة تقني متخصص. بل وتجد بعضهم قد ابتدع نقاشا رُسِم موضوعه على لوحة العبط:

- أيهما أذكى... الحصان أم الحمار؟

كان هذا مبتدأ النقاش بين صديقين، ربما لم يجدا موضوعا فرتبوا واحدا بتراضٍ مُضمر، ثم بدأ كل واحد منهم يقرر اختياره ويُمنطق كلامه ويدافع عن أفكاره!

- الحصان طبعا... ألم ترَ أنه رفيع القدر بديع المرأى!
- معذرة فالحمار أذكى... إنه يحفظ السُبُل عن ظهر قلب.
- لا أوافقك... كمثل الحمار يحمل أسفارا... إنه لا يفقه شيئا... أما الحصان فلقد كُرِّم أيَّما تكريم.
- لا بل الحمار...

كان عدد هؤلاء الذين فضلوا ملء الأروقة أكثر ممن جلسوا وسط القاعات وألصقوا ألاييهم على مقاعد خشبية باردة، كانوا يحركون أقلامهم

على الصحف في طقطقة كنقار خشب ينقر شجرة مجوفة بالية.

لم يكن حديث الأروقة جافا كعادته، فقد ترنمت سمفونيته على مقام رابع هذه المرة... لقد حادت الكلمات والمفردات عن غرزها المعتاد... إذ يمكنك أن تتحس حرارة من نوع آخر بأفواه الطلبة، وتلمس مقطوعة جديدة تبث أنغامها على أوتار نبسهم وكلامهم، فقد علت فوق شفاههم كلمات كـ

ثورة... مظاهرات... عدل... حرية... تونس... نضال... البوعزيزي...

نعم صدقت... لقد فهمتَ مناط حديثهم وموضوع كلامهم... الثورة التونسية أو ما سُميت بثورة الياسمين. الحراك الذي أشعل حماسه وأطلق شرارته الشاب محمد البوعزيزي الذي أضرم بنفسه النيران قبل أيام... كان ذلك بيوم الجمعة السابع عشر من ديسمبر، السنة العاشرة بعد الألفين، بمدينة سيدي بوزيد التونسية... لقد سرتْ احتجاجات البوزيديين وانتفاضتهم الشعبية التي اجتاحت جميع مدن المحافظة، ثم بعد ذلك أرسلت أناملها لتعانق أفئدة الشعب التونسي بكافة مدن الدولة الخضراء بعدما أطلِق الرصاص الحي على متظاهري مدينة منزل بوزيان... كان الكل يتابع الحراك التونسي بعين قلقة وجلة مترقبة، خاصة أن الرئيس التونسي قد ألقى خطابا يتوعد فيه المتظاهرين بتطبيق القانون عليهم بحزم، فما زاد التونسيين إلا اشتعالا وتوقدا.

لم يكن مراد حاضرا بدروس الدعم، ولا واقفا بردهات المعهد وأروقته يتجاذب أطراف الحديث مع أصدقائه وزملائه... لقد كان معتكفا بمقهى المعهد وقد ألقى بصره وبصيرته نحو الشاشة المعلقة الضخمة بحائط أبيض متاخم لصالون مغربي قد مست دعائمه البلاط الهندسي

حديثا... فقد اشتراه المعهد كقربان نُحر على صرح إضراب الطلبة الأخير... قدمته الإدارة لفتح باب جديد نحو الإصلاح الذي نادى به الطلبة قبل أسبوع من الآن... ربما رياح الحراك التونسي ورائحة الياسمين التي فاحت من حناجر المتظاهرين، قد وصل أريجها الذي حرك قلوب الطلبة المهندسين، فخاضوا إضرابا عنيفا آخر ضد الإدارة.

– 2 –

كان ذلك أول إضراب يشارك فيه بكل حواسه، ويتتبعه بكل خلايا فؤاده، فمساء يوم الإثنين العشرين من ديسمبر سيبقى خطا فاصلا بحياته... كان قلبه ينبض بشدة بقاعة الندوات الضخمة التي ضمت بين كراسيها وبمحاذاة جدرانها طلبة وطالبات تاقت نفوسهم لمعانقة التنديد والشجب... الجمع العام المُعلن سلفا قد بدأ قبل قليل والقاعة قد ملئت عن آخرها، فأطت أرضيتها من شدة وقع الخطوات... كان الشاب اليافع الذي توشح عنقه بكوفية صحراوية بالية، حاكت بِلى ثيابه وحذائه المهترئ، يقف بخشبة الإلقاء وهو يمسك بقوة وعصبية لاقطا براحته اليسرى... كان يتحدث في حماسة مفرطة وعصبية وتشنج ومشاعر متضاربة جامحة تمثلت في زبد قد بدأ يحبو من جانبي شفتيه، ورذاذ اللعاب الذي بلغ الصفوف الوسطى:

– أخواتي الطالبات، إخواني الطلبة... إدارة المعهد مازالت تتماطل، بل تهمل ملفنا المطلبي الذي قدمناه بأول العام إثر إضرابنا المبارك... قاموا بتعديل طفيف بالقانون الداخلي الجديد والمجحف، فبادرنا باستئناف الدراسة كحسن نية متبادل... لكنهم خانونا وخانوا ثقتنا... لقد نكثوا عهدهم في إصلاح

الداخلية. إننا أضحينا نعاني من الانقطاع المتكرر للماء الساخن، بل وصلت بهم ديكتاتوريتهم إلى توفيره لساعتين فقط باليوم!... أما وجبات المقصف فحدث ولا حرج، من قائمة أسبوعية لا تُرضي وجباتها حتى القطط!... وإن عرجت على المقهى فلن تجدد إلا اليباب وصوت الرياح تعوي كأننا بفلم وسترن رديء... لا طاولات مستقيمة ولا كراس معتدلة، حتى التلفاز فقد أُجبِرت أعيننا على متابعة مشاهد مشوهة الألوان مشوهة الصور. لن أجرد على مسامعكم حالتنا المزرية... فأنتم ترون كل شيء أمامكم... وما عاد للخنوع أرضا بقلوبنا. سأدع اللاقط الآن لكم كي تُدلوا بآرائكم ومقترحاتكم حول الشكل التنديدي المزمع استعماله في مواجهة الإدارة المستهترة الديكتاتورية التي ما فتئت تتسلط وتتجبر علينا... عاش مكتب طلبة المعهد... عاش الطلبةُ المهندسون... وما ضاع حق من ورائه طالب.

تحدث سعيد رئيس مكتب الطلبة ثم وضع اللاقط على طاولة طويلة حمراء نُصبت على حافة الخشبة أمام صفوف الكراسي المختفية تحت أجساد الطلبة... كان أحد أعضاء اللجنة التنظيمية قد بدأ في تدوين أسماء المتدخلين الراغبين بإبداء رأيهم ومقترحاتهم. رفع مراد يده ملوحا بها قصد تدوين اسمه، نظر نحوه العضو فأومأ له بإشارة الإيجاب ليصيح مراد باسمه قصد إدراجه بالقائمة... بعد بُرهة حمل طالب من مكتب الطلبة اللاقط متحدثا:

- سنكتفي بهذا العدد الآن... بعد التدخلات سنقوم بعملية التصويت على القرارات المتفرعة عن تدخلاتكم ومقترحاتكم... ثم سنخرج بنود الملف المطلبي والشكل التنديدي الذي سنحمل حِربته اتجاه الإدارة.

كان مراد يقلب مقلتيه بين وجوه جموع الطلبة. كان يبحث عن شيء ما... عن ملامح بذاتها... ملامح كانت هنا قبل قليل... لقد رآها، كان حضورها الأول بجُمُوع مكتب طلبة المعهد العامة. عرج بنظره إلى المتدخل الأول الذي أمسك اللاقط وبدأ يرسل كلماته الهامسة، التي لم تُخف عصبية تتشكل في اختياراته البذيئة للمصطلحات... كانت عيناه تناوب النظر تارة نحو الطلبة وتارة أخرى نحو شاشة هاتفه الذكي التي كانت تُسطر أهم النقاط التي سيتكلم عنها... لكن شيئا ما أدار وجه مراد اتجاه مدخل القاعة الضخم... حقل مغناطيسي قوي قد عقف عنقه كي يُلامس عينيها وهي تلج القاعة مرة أخرى... ورغم أنها كانت مقطبة الجبين ترسل شرارة حارقة من عينيها، إلا أنه كان يرى الكون يرخي تباريح حبوره مع كل خطوة ترسمها على أرضية قلبه، ويسمع سمفونية الوجود مع كل نسمة متشكلة من حركة جذعها المنحوت على فؤاده... تحسس نظراتها الصارمة التي كانت على غير منوال سخريتها الدائمة، كما تحسس تغييرا في هالتها، بل إن لباسها كان محتشما، عكس ما ألفه منها من سفور وإظهار لمفاتنها التي تلقي باللبيب في بحر العته، بل وصل نسيجه ليغطي نحرها الذي ما استحيت قبلا في إظهار تقاسيمه التي أذابت برودة القطب المتجمد، لكنه الآن يختفى تحت قميص أسود، أقفلت أزراره حد العنق، وقد أرخى أطرافه المتهلهلة فوق سروال جينز أسود حالك كليل بهيم انطفأت به مشكاة القمر، وقناديل النجوم... اتجهت سارة نحو مكانها الذي تركته لتجد أحد الطلبة جالسا عليه. لكنها لم تبد أدنى ردة فعل، بل اتجهت إلى الخلف لتحادي الواقفين المتجمهرين هناك... كان مراد يتتبعها بعينيه سارحا في مشيتها وخيلائها كفرس أصيل يُثير نقع الوله من

وقع حافره... نكز حسن بمرفقه جانب صديقه الأيمن ثم قال وهو يزاحم وجنتيه بابتسامة ماكرة:

- غَضُّ البصر... غَضُّ البصر يا صاح!

عرج مراد ببصره نحو صديقه الذي بدت أسنانه الصفراء المميزة لسكان مدينة خريبگة المغربية، لكنه ما إن أطلق ابتسامة متبادلة حتى انطلقت أذرع أفكاره تسبح بأمواج التفكير المتلاطمة، وبدأ في سبر غوار عقله الذي ظل يضرب أخماسا في أسداس... لقد كان بريق عينيها مميزا، بل أنس منها حبالا لمشاعر أحاطت بعقله قبل فؤاده، كانت مشاعر لم يألفها! لقد تخلت عن غنجها البوهيمي... عن ضحكاتها اللامبالية... عن نظراتها اللاذعة الساخرة... عن تكبر ترميه بكل مكان... بل من تَأَفُّفٍ عَهِدُوهُ بأنفاسها المستعلية...

لقد تخلت عن نظرتها الحالمة اللامبالية.

كانت أفكاره ما تفتأ تخرج من دهاليز الشتات الذي طالها حتى تدخل إلى أخرى، وما استفاق من عتمة التيه حتى اكتسح صوت رفيع أذنه، فنشر صداه بجبال عقله وفجاجه... لقد كان صوتها، ونبرة شفاهها... لقد أمسكت باللاقط وبدأت تتكلم إلى جموع الطلبة بحماس ثابت... كانت شفتاها تَنْحُتُ على أمواج الهواء كلمات رزينة محبوكة الفهم... كلمات ثورية تتحسس رفع الذمم وبذل الهمم، بميزان كَفَّتَاه تتأرجح بين السداد ودقة القول... كان يتابعها بكل ذرة بكيانه، أدهشته وأشعلت بداخله نارا أخرى اتحدت مع خليلاتها التي ما كادت تستقر حتى تلتهب عند كل لقاء... استقرتْ حروفها بكينونته، بل بفؤاد أكثر الحاضرين، فانعكس

على الجو العام كتصفيقات وصياح مشجع... لقد أطلقت رصاص الكلمات من رشاش صام عن معانقة النضال منذ فُطم، أرسلتها نحو الإدارة فَعَلَتْ موافقة الطلبة على مقترحها فور انتهاء حديثها. لقد أَيَّدتْ فكرة الإضراب المتواصل دون سقف محدَّد... لكن مع القيام بمسيرة بشارع محمد الخامس بالرباط وصولا إلى قبة البرلمان المغربي... كانت تزرع بين كل فكرة تُحيك أطرافها كلمات تحفيزية ثورية... حتى أنها ألحت على أن يقوموا باعتصام هناك، فالواجب تحسين وضعية الطالب المهندس، بل والمهندس بشكل عام، ولا مكان لحلول ترقيعية! قالت إن الطالب المهندس يعيش بتخبط يستلزم حلا جذريا، فالنظام التعليمي عليل ومقرراته لا تواكب ركب الحضارة، فمازال المهندس يجتر مقررات وقفت عقارب زمنها بستينات القرن الماضي. أما منهجية التدريس فطامة لوحدها... منهجية لا تنتج إلا عاملا بالسخرة لا ينتج أفكارا ولا يُبدع نهضة... عبدا بُعث من العصور الوسطى لكنه يتحلى بلباس أنيق وربطة عنق زادتْ هوة انفصال عقله عن قلبه اتساعا... فأضحتْ الهندسة نيشانا يُعلق على الصدور ولا ينفذ تحتها نحو القلوب ليُحيي الهمم.

انتهتْ سارة من كلمتها ووضعت اللاقط بسرعة ثم مسكت بصدرها كأنها تتحسس قلبها الذي انفطر من وقع حماسها... لم تكن هي التي تتكلم، ولم تكن عائشة أيضا، بل كانت سارة أخرى تحرك فؤادها وانبعث من تحت تراب فهمها، فصاغ كلمات لم يعاقرها لسانها قبلا... كان قلبها يقرع بشدة من تحت صدرها النحيل، كان يدق طبول الحرب على سارة القديمة... كان يُنشئ المقاليع والمجانيق لتدمير شخصيتها المعتادة... أم ربما لم تكن تلك هي شخصيتها الحقيقية، ربما اختارتها قسرا كرد

فعل لمجتمع عليل... ربما هاته الشخصية التي أضحت تُرسي قواعدها بخلاياها وعصبوناتها هي سارة الحقيقية، وليست تلك الفتاة المستهترة اللامبالية، والتي لا ترى في الحياة إلا المتعة اللامحدودة بملذاتها، لا تعرف إلا إشباع نفسها التي كانت تتألم تحت خيام العته وتحيك الأسى على مناويل الشهوات!

تحركت بخطوات متثاقلة من شدة الموقف نحو قاع القاعة بالخلف مخترقة التصفيقات التي رافقتها... لم تكن تسمع أصوات تَعَانُق الكفوف ولا التشجيعات المنفلتة من ألسنة زملائها، غير هجيج ألسنة نار مشتعلة بكيانها، تلتهم بقايا مشاعر منبوذة بين ثنايا روحها. نار تلتهم يابس الاستهتار وتُحيي أخضر أحاسيس ثورية تزداد ريعانا مع كل نار تتقد. وقفت بجانب صديقتها كوثر التي آثرتْ الوقوف بجانب زميلتها قبل هذا، وترك مقعدها هي الأخرى... لقد أضحتْ تتفاجأ بطباع سارة التي تشتعل وتَيْنَع مع كل يوم... خاصة أن سارة قبل ثلاثة أيام اختارت الانتماء إلى حزب سياسي... حزب محضور يُسمى بالقوى التقدمية الشيوعية... لم تستسغ كوثر فعل صاحبتها التي عللت ذلك بتردي الأحوال الاجتماعية واتساع الهوة الطبقية وكلام لم تفهمه. لكنها وعتْ أن سارة قد انقلب تفكيرها تماما، كيف لا، وصديقتها ما رأتْ الفقراء قبلا إلا عالة على طبقة الأغنياء، وأنهم لا يفقهون إلا الصياح كي يُغطوا على قصور فهمهم وإدراكهم... لقد قالت لها إنها تهدف لإرساء العدالة الاجتماعية وبسط المساواة الطبقية... كان هذا كافيا لحجب فهم نفسية سارة عن كوثر، فقد اعتادتها متوسلة للمرح والفرح... لا تريد غير السهر والسمر... أما الآن فهي تهتم بالطبقات الكادحة!

أكمل المتدخلون كلماتهم ومقترحاتهم... لقد تحسست أن جلهم يدعون لإضراب عن الدراسة... بل الإعراض بعض الشيء عن تلك الدقائق الرتيبة التي يقضونها وسط أقسام المعهد. غير أن أغلبهم لم يُرحبوا بمقترح سارة حول المسيرة والاعتصام... إنهم يوافقونها ويصفقون لطرحها، لكن خوفا قد زُرِع بأفئدتهم أعرض ترحيبهم وتسليمهم عن مقترحها الثوري... كما أن رد فعل الإدارة الغالب على إضراب لأكثر من يومين يكون بإقفال مقصف الداخلية، فينعكس ذلك على جيوب أغلب الطلبة المنحدرين غالبا من أسر فقيرة.

بعد تصويت صاخب، تعالت به حناجر الطلبة بين منددين على طريقة التصويت، ومستهجنين على استبعاد مقترحاتهم من لائحة التصويت، استقر الأمر على خوض إضراب لمدة يومين مع وقفة على شكل حلقية أمام إدارة المعهد، ومسيرة داخل المؤسسة، كما قُرئ على الطلبة الملف المطلبي الأولي الذي سيُقدم للإدارة غدا بعد تنقيحه.

- 3 -

جلس حسن بجانب مراد وهو مُتكئ على فراش المقصف الجديد، نظر إلى الشاشة التلفازية الضخمة التي احتل علم تونس خلفية الصحن الإخباري المُخصص للحراك التونسي... ثم قال:

- لم أرك بدروس الدعم التي نظمها نادي الميكانيكيين رغم أنك عضو مستشار معهم!... لقد استفدنا كثيرا، كما أن أشرف رئيس النادي قد حَضَّر معنا امتحانين سابقين للمادة... لقد أشار إلى أن الأستاذ لن يخرج غالبا في اقتراحه هذا العام عن أسئلة هاذين الامتحانين... إذ ذاك ديدنه غالبا كل عام.

ابتسم مراد ورشف من كأس بلاستيكي قهوةً سوداء، ثم أجاب وعيناه لم تفارقا الشاشة:

- لا أحبِّذ صخب تلك الدروس، الكل يتكلم... فوضى كلامية... ثم إن أغلب المتطوعين لإلقاء الدرس وتفهيم الطلبة لهم هدف واحد... التعرف على فتيات السنة الأولى، خاصة أن الإدارة منعت هذا العام طلاب السنة الثانية والثالثة من تنظيمهم للمقالب الدورية للسنة الأولى (Bizutage)، فقد كانت تُسْتَعْمَل من بعضهم مطية لتكوين علاقات مع الطالبات الجديدات...

اعتدل في جلسته ثم أضاف:

- هل تدري أننا استقبلنا عددا كثيرا من المتطوعين... لكن الرئيس استأثر بهذا الدعم لنفسه...

همس مراد في أذن صديقه:

- لقد وضع عينيه على تلك الفتاة المسماة كوثر... إنها معي بنفس القسم... أنت تعرفها... بلغني أنه يهيم بها.

ثم أرسل ضحكة صامتة.

أجاب حسن:

- نعم لقد كانت هي الأخرى من بين الحضور...

صمت قليلا ثم أضاف في خبث واضح، مناغما كلامه مع ابتسامة نصفية ماكرة:

- كانت مع صديقتها... سارة!

لم يحرك مراد ساكنا وظلت عيناه مثبتتين على المذيع الذي كان يُحاور أحد المتصلين... كانت الشاشة تعرض إطارا قصير الأبعاد بالأسفل يُظهر

بعض المشاهد من المظاهرات العارمة التي اجتاحت البسيطة التونسية... لكن تلك المظاهرات ما فتئت أن تحولت إلى فؤاده الذي أخذ في الالتهاب بنار تلتهم كل ذرة بكيانه العليل... لم يعرف كيف يجيب وما سيقول... تدارك صمته المريب وتساءل في تلعثم واضح:

- من سارة؟

بدأ دبيب التعرق اللاإرادي ينشر سخونته بالجوف قبل الجلد... لقد حاد قلبه عن طريق العفاف وهتك بكارة عذريته فسال دم العشق على صرح واضح، زادت شمعته وهيجها مع كل محاولة للإخفاء... لقد تفلتت منه الكلمات وخانته كل الحروف، فما استطاعت تحمل حرارة ولهيب الوله، فشق قلبه صدره الواهي وفرد جناحيه ليطير كيمامة شاردة قد استقرت بين راحتي محبوبته... بين يدي سارة. كان اسمها كافيا لإرباكه، وضرب جدار ضخم بينه وبين المعقول... جدار له باب باطنه فيه الوله والحب، وظاهره من قبله الرزانة المقنعة، لكن سرعان ما تفتت القناع لتظهر مشاعره عيانا... جهارا نهارا أمام الكل.

- واش تاتْبوهْل عليا؟!... نظراتك لا تُخطئ قصدها، ولا تفتر عن مداعبة مشيتها. عيناك تُشع مع كل حركة منها كأنها تطأ بقدميها على مقلتيك!... هل تعلم أن الكثير من الفتيات قد لاحظن ذاك؟

لم يُجب مراد ولم يُبد أدنى تعليق على كلام صديقه... كان قلبه ينتفض ويصرخ بتنديد عال، لا تسمعه إلا ذرات الهواء المُحِبَّة... كما أن تفكيره ما خفتَ عن ملامسة هيامه الذي أصبغ عصبوناته بلون الولع والغرام... تحرك لسانه زائغا عن كلام الوله، لكنه ظل يحوم بفلك محبوبته:

- عجيب!... غالبا لا تبدي أي اهتمام بالفعاليات المنظمة بالمعهد!

- لقد رأيتَها بالجمع العام السابق!... قل لي إنك لم تكن تُتابع أنفاسها!... أو قل إن ثوريتها لم تسلبك قلبك!... باز آ أخي باز... لقد بَزَّتني مراوغاتك.

رطَّبَ حسن حنجرته برشفة من مشروبه الغازي ليُضيف:

- أتعلم؟... لقد حاول سعيد رئيس مجلس الطلبة أن يحوم مؤخرا بفلكها.

تعالت قهقهة مراد عاليا حتى طغتْ على صوت المتظاهرين بالتلفاز... كان يعرف فساد سعيد... كان سكِّيرا ماجنا، كثير التنقل بين الفتيات... غالبا ما يقضي ليالي نهاية الأسبوع بين أحضان البغايا والمومسات... ولم يكن مراد يحترم إلا شيئا واحدا به، نضاله وشفافيته في التعامل مع عموم الطلبة... فلن ينسى أحدٌ مَوْقِفَه إبان إضراب أول السنة المُطوَّل الذي دام أكثر من عشرين يوما... فقد أظهر مقاومة لتهديدات الإدارة بالفصل والطرد تارة، ولإغراءاتها بتيسير عمل له عند التخرج تارة أخرى... لكن لم تكل عزيمته ولم تنكشح بسالته. في حين أن بعض الأعضاء بالمكتب، ممن كانوا يُجعجعون بلزوم مكارم الأخلاق، قد انهاروا أمام الإدارة، وانسلوا من المكتب تباعا بين مرهوبين وطامعين، فعلق بهم عطن الخنوع ثم نُبذوا إلى اليوم من أغلب الطلبة... كان سعيد علمانيا لا يُخفي ميولاته الفكرية، شرس في مناظراته لمخالفيه، لكنه كان عكس أشباه العلمانيين ممن أُبتُليتْ بهم الساحة السياسية والفكرية المغربية والعربية، الذين لا يتورعون عن لمز المقدسات الدينية الإسلامية وإلصاق كل نقيصة دنية بمخالفيهم. فقد كان سعيد مُبَجِّلا للمقدسات، بل قد شارك في آخر مسيرة نُظمتْ نُصرة لرسول

الله ﷺ من طرف إحدى الحركات الإسلامية. كان يقول دائما أن علمانيته هي من علمته أن يحترم الآخر، وما فعل أولئك المتقافزين على حبال العلمانية إلا وصمة عار عليهم وعلى توجههم. أما الإسلام فقد كان يراه ملكا له قبل أن يكون لغيره. لم يفهمه مراد ولم يستطع سبك فكره وإحاطته، لكنه ظل يحترمه ويهزُّ له قبعة التوقير.

- ما بالك ترسل ضحكاتك هكذا؟

- لا شيء... فسعيد يحوم على كل فتيات المعهد... ويرمي صنارته بأي مكان، حتى بالبحيرات الضحلة!

- أتدري ما فعلته به؟

- نعم، لذلك ضحكت... لقد ندم على يومٍ قد ولِد فيه!

عرج مراد بنظره نحو الشاشة وهو يُلملم ضحكاته المتفلتة من بين نواجده.

إيفورا

قبل أسبوع... السبت 18 ديسمبر 2010

الساعة: 19:32

حي كاليفورنيا... الدار البيضاء

- هنا أمامنا الفارق... هنا في هذه الانطلاقة... وهذه أمامنا المهارة من اللاعب بيدرو أحد اللاعبين صناعة نادي برشلونة... هنا أمامنا الاستلام من ميسي... ميسي... العرضية... مش ممكن الكرة... في الأولى تروح، في الثانية ما تروحشِ لأن هناك اللاعب شافي.

صفر الحكم بملعب بارو مشيرا إلى الهدف الثاني للفريق البافاري بشباك الفريق المستضيف، إسبانيول برشلونة. فَعَلَا صوت المعلق المصري علي محمد علي ليتخطى الباب الضخم للمنزل وينكث العقد الذي أبرمه الجو الممطر مع الصمت بين شوارع وأزقة الحي الراقي... الكل قد اختار منزله للهروب من صقيع الطقس وبرودة الهواء. كان نعمان الصنباطي يشاهد مباراة كرة القدم على شاشة تلفازه الضخم الرابض بالصالون الرومي بالطابق الأرضي، المخصص بالأساس لجلوس الأسرة الصنباطية الصغيرة. لم يكن نعمان متابعا نهما لكرة القدم ولا من محبي النادي البافاري أو متتبعي نتائجه، وحتى أنه لم يكن ممن يتحسسون النتائج الكروية بجلسات المقاهي أو السمر... غير أن أصدقاءه بالنادي الراقي الذي يشترك به، والذي يضم جمعا من أرفع الشخصيات الاجتماعية وأرقاهم

طبقة، في مزيج من أصحاب السلطات السياسية والعسكرية والاقتصادية، بالإضافة لبعض الكتاب المعروفين ورجال الإعلام، قد اختار بعضهم مشاهدة المباراة بالمنزل والهرب من برودة الأجواء، وآخرين اتجهوا باكرا نحو دول أوروبية وأمريكية وخليجية قصد إحياء أعياد الميلاد هناك!...

كان ديدنه هو الآخر كل عام السفر بآخر أسبوع بشهر ديسمبر نحو فرنسا أو إسبانيا، كان يحجز غرفة الفندق والتذاكر مسبقا لكن التخطيط للرحلة فاته لاعتبارات العمل الذي تراكم فأثقل تحركاته العضلية والدماغية معا، حتى أنه أضحى يلج منزله متأخرا ويخرج باكرا، أصبح كشبح يسكن مع أسرته، شبح لا تتبقى منه إلا رائحة عطر حَيِيَّة يتركها كل صباح، أما جسده فيتيه في الأرض قصد إنجاز عمل أو قضاء حاجة... لم يحادث زوجته ولم ير ابنته منذ زمن، إذ أن نهايات الأسابيع الماضية غالبا ما كان يقضيها برحلات الصيد بين أقرانه... ضَخَّم كل هذا حدة التوتر السائد بينه وبين زوجه، بل زاد الهوة العاطفية اتساعا بينها.

خفتتْ حدة العمل هذا الأسبوع كما أن رفاقه بالصيد اعتذروا بحجة الاضطرابات الجوية، فجلس قسرا أمام هاته الشاشة واختار مشاهدة المباراة المنقولة على أن يُتابع الأخبار التي أضحتْ بوقا لمظاهرات لا جدوى منها كما كان يرى... كان يرى كأقرانه أن تلك القنوات تُؤجج من مشاعر الشعوب وتدفعهم للجعجعة الفارغة، ولا تقصد إلا إشعال النعرات الصامتة وتأجيج الفتن وسط الشعوب الراكدة.

كانت نعيمة تجلس بأريكة أحادية المقعد بعدما حَضَّرت لها الخادمة الصينية براد شاي ووضعته أمامها على الطاولة الزجاجية، عزَّزته ببعض

الحلويات المغربية المصنوعة باللوز. كانت عيناها مثبتتين على صفحات الكتاب الذي تمسكه بكفها الأيسر، أما الكف الآخر فتتبادل مهامه بين حمل كأس الشاي وقطف الثمرات اللوزية من الصحن الذهبي... كانت تقرأ كتابا باللغة الفرنسية... سيكولوجية الجماهير (La psychologie des foules) لغوستاف لوبون...

تحسس نعمان بعينيه الجاحظتين وجه جوزته المختفي وراء غلاف الكتاب. لم يجتذبا أطراف الحديث منذ أن جلستْ، كأنها تقوم بـ«الصْوابْ» معه، كضيف غير مرغوب فيه ولكن العُرف يُحتم الجلوس معه.

– هذه انطلاقة ميسي، ومرور ميسي من الأول... من الثاني... استلام... فرصة، ممكن يطَلَّع الكرة لزميل... لكن هو يعطي فرصة هنا للاعب بيدرو أن يتابع ويسجل.

رفعت نعيمة مقلتيها اتجاه الشاشة، رامية بعض سهام النظر نحو زوجها، الذي رمقها بطرف بصره. استغل نعمان تحرك مقلتيها اتجاهه، ليرسل خيطا رفيعا من الحرف عساه يمسك بمنوال فؤادها ويعيد حياكة بعض الدفء بينها... أمسك بالريموت وخفَّض من صوت المعلق المصري... رتب حروفه برفوف اللسان وقال:

– ما أخبار برنامجك الجديد؟

– الحمد لله... هناك بعض الصعوبات لكن الطاقم الفني استطاع أن يتجاوزها.

رغم كلماتها المتقطعة المُتسمة باللامبالاة، إلا أن صنارته التي رماها ببحر مشاعرها غمزتْ وكشفتْ عن استعدادها للحديث، لا يفصله إلا

جهد بسيط من الحرف المنمق بعبارات الحب والحنين كي يُذيب الجليد المتراكم، فقبل كل شيء هو يريد السفر الذي لن يتأتى إلا بمباركتها.

- حبيبتي... أعتذر عن غيابي المتواصل... لقد اشتقتُ لك فعلا.

- لقد أبْعَدَتْكَ عنا أعمالك زمنا ليس بقليل... و...

قاطعها نعمان قائلا:

- نعم... نعم... وما كان بيدي شيء... لِمَن أعمل طول الوقت؟... لمن أُجهِد نفسي وعقلي؟

- لا أعلم؟... أنظر أنت لمن؟!

- كل ذاك من أجلك يا بؤبؤ عيني ومهجة فؤادي.

- سبحان الله!!... ألم أكن أمامك سابقا... أما وجد العشق بابا بقلبك إلا الآن؟

سكتَ نعمان قليلا يُقلب بين رفوف كلماته ودروب خلجاته عسى أن يجد دفة الكلام كي يُوجِّهها وفق مراده... كان يعلم أن نقاشا كهذا سيوقفهم على شاطئ الخذلان، لذلك قال وهو يصبغ كلماته باللون الوردي:

- حبيبتي... لقد ألغيتُ جميع أعمالي... أريد أن أكون معك هذين الأسبوعين.

صمتَ كي يَجُس وقع حرفه عليها... ثم أضاف بعدما أدرك أنها بدأت تلين:

- ما رأيك أن نترك هذه الأجواء الكئيبة؟... يجب أن نرسل مصل حياة جديدة بعلاقتنا... ما رأيك أن نسافر كعادتنا نحو فرنسا أو إسبانيا؟... لكن هذه المرة سيكون السفر مطولا من أجل عيون حبيبتي.

- والعمل؟... لا تنسى أن عملي يستلزم...

أعاد مقاطعتها وهو يبتسم:

- لقد هاتفتُ وائلا... المخرج... قال لي إنكم صورتم خمس حلقات لن تُبث إلا في مستهل العام القادم.

- كعادتك... إن خالجك شيء وقررته ستبذل كل شيء قصد بلوغه!

- إذن ما هي الوجهة التي تريدين... فرنسا أم إسبانيا؟

- لقد زُرنا هاتين الدولتين مرارا وتكرارا... الصراحة لقد ضاقت نفسي من إعادة زيارتهما.

- وما تقترحين؟

- أُفَضِّل دولة آسيوية... لقد زارت صديقتي هند، إنك تعرفها مقدمة الأخبار المشهورة، زارت بالصيف الماضي دولة كوريا الجنوبية... لقد حكت لنا مدى جمال وسحر الشرق الآسيوي... أو الملديف... لا لا ستكون باردة بهذا الجو... لا، لا إنها دولة استوائية... نعم جزر الملديف... واو ستكون رحلة رائعة!

كانت عيناها تشعان مع كل كلمة تخرجها من بين شفتيها المكتنزتين... كأن سدا جارفا من الأفكار قد هُدِّم لتوه، فأغرق سمع نعمان وفهمه... كان الزوج يُفضل أوروبا أو أمريكا على دول الشرق... فهناك الحانات الفاخرة والكازينوهات الفارهة. وضع شفته السفلى بين سبابته وإبهامه وأمال رأسه بعض الشيء كأنه يفكر في مقترحها، لكنه كان يُفكر في طريقة تُعْرِضُها عن مطمحها، فهو يعلم تعنتها وتشنج فكرها حول عزمها، وقوة شيطانها في انتزاع مبتغاها...

كانت شخصيتها هذه أساس مشاكله معها، فهو معروف بقوة شخصيته وهي أيضا، فكل نقاش يدور بينهما يُكوِّن ثيرانا غير مروضة من الأفكار، لا تعرف إلا النطح والمهارشة. لم يجد ملاذا إلا في ابنته سارة، ملاذٌ لا ثاني له... كان يعرف ميولاتها، فهي كانت تقترح دائما باريس أو لندن كوجهة لسفرهم... فهناك تلتقي مع أغلب رفاق دراستها ممن اختاروا أوروبا كقبلة لإكمال دراستهم الجامعية والعليا.

- لماذا لا نسأل سارة عن رأيها؟... أعتقد أن ذلك سيكون حافزا لإخراجها من دهاليز الحادثة التي ما زالت تعيشها.

نظرت نعيمة نحو رجل الأعمال بحيرة، مصمصت شفتيها كأنها تسأله عن سر اهتمامه المفاجئ بسارة... حركت رأسها موافقة على مقترحه، ثم قالت في تحسر بادٍ:

- ألا ترى أنها قد اضطربتْ نفسيتها منذ الحادثة؟

- ما رأي طبيبها النفسي في ذلك؟

- إنها لا تذهب إليه... بل لم تذهب بتاتا!... وكيف لك أن تعلم وأنت تغوص بعالمك، وقد حاد فكرك عن حياة ابنتك وزوجتك؟

زفر نعمان زفيرا عميقا عساه يطرد خاطرا ثوريا سيهدم الحوار الذي ما فتئ يُبنى لبنة لبنة... ثم قال مرجعا دفة شراع الحديث لوجهته:

- أين هي الآن؟

ما كاد الزوج يُكمل كلماته حتى فُتح باب المنزل الضخم. ولجتْ سارة الصالة وقد خلفت وراءها قُلْتًا مائي من جراء تبلل ملابسها بالكامل... كانت ترتعش من شدة الماء الملتصق بها كعصفور خرج لتوه من بركة مائية

باردة... اتجهتْ مباشرة نحو الدرج المرمري، وما كادت تضع قدمها على درجه حتى فاجأها أبوها على غير عادته:

– سارة؟!... مرحبا... تعالي أريد محادثتك.

نفختْ سارة بتجهم كأنها تحاول إخماد نار المجوس بنفخة واحدة، حتى رسمتْ ضبابا سُرعان ما أذابه الهواء الساخن بفعل المكيف الذي قطع كل تبادل حراري بين داخل المنزل وخارجه!

- Oui, d'accord... une minute pour changer mes vêtements.[1]

ثم صعدتْ الدرج. بعد دقائق معدودة كانت تُلقي بجسدها المتعب بأريكة أحادية أخرى مقابلة لتلك التي تجلس عليها أمها التي مازالت تتحسس حروف الكتاب الفرنسي... كانت جلستها العبثية تُحاكي لباسها البوهيمي من سروال رياضي أسود، كُسرتْ حلكته بخطين من أزرق سماوي فاقع على جانبي طرفيه، وقميص أزرق ضخم متراخي الأطراف، حتى أنه ما استطاع تغطية كتفيها معا، ليُظهر منكبها الأيمن ويرخي جانبه على حدود مرفقها... كانت عبثيتها هاته قد حفزت جيوش الغضب لدى نعمان، فكادتْ أن تُنْصِبَ مجانيق التنديد ورمي كراتها الملتهبة نحو سارة... لكنه نأى بردة فعله التي لن تغني ولن تسمن من جوع مع ابنته!

– هنا أمامنا انطلاقة... المحاولات مازالت مستمرة... هناك وعد بالأهداف جديدة... هنا أمامنا ڤيا... الوعد... الوعد خلاص... وعد الحر دين عليه... وڤيا حرٌ في الشوط الثاني، في هذه المباراة يسجل ثنائية له، هي الثانية.

(1) حاضر... دقيقة كي أبدل ثيابي

كان علي محمد علي يُعلن عن الهدف الخامس لبرشلونة في مرمى إسبانيول... لكن نعمان لم يسمعه جيدا، بل إن باحة فهمه كانت تريد فك لغز اختيار سارة... لقد أخبرها عن عزمهم السفر ابتداء من الأسبوع المقبل، حدثها عن مقترحه هو في الذهاب لأوروبا وعن وجهة نظر أمها واختيارها لدول آسيا.

- يابرة... أريد الذهاب إلى يابرة!

فاجأت سارة أباها باقتراحها هذا... بل كانت مفاجأته الأكبر في طريقة حديثها كأنه أمام شخص آخر... فقد اشتعلت عيناها بريقا، وأرسلتْ حُنجرتها حشرجة عميقة بين ثنايا حروفها، كأنها تُرسل كلماتها من داخل بئر غويط بعيد القرار... إنها ليست سارة... حتى نعيمة التي كانت هائمة بأفكار لوبون قد عرجتْ بعينين مرعوبتين نحو ابنتها فور سماعها لتلك الدولة أو المدينة التي لم تسمع بها قِبَلا!... ما هذه «اليابرة»... ثم من هذه التي أرسلت ألفاظها؟... حركَّتْ نعيمة شفتيها في رعب متمتمة:

- سارة؟!... ما بك ابنتي؟!... لا بأس؟!

لم تكن سارة هي من تكلمت، بل روح أخرى قد قاسمتها الجسد منذ شهور... أو ربما منذ قرون!... روح نبتتْ في داخلها وأنبتتْ قلبا آخر تحت صدرها... روح انبعثت من بين رفات التاريخ وانتفضتْ كي تحيك أحداثا منسية على منوال الحاضر... روح تسلقتْ دوحة الحياة عساها تكشف ما استتر من همومها وأنَّاتِها... كانت هذه المرة الأولى التي تُحدثُ شخصا آخر غير سارة... لم تستطع هاته الأخيرة كبح زمام آهاتها المُتَفلِّتة... لم تستطع كبح أنينها المتدفق بين اللسان مُتخطية النواجد والأسنان ومعانقة الآذان... بل قد انسلتْ من بين

أغلال الروح وهمس الخيال لتستحيل واقعا، وكيف لا وهي ما كلَّتْ التأثيرَ بنفسية سارة وقناعاتها؟... لقد داعبها الحنين لبلدتها... حنَّتْ عائشة لأرضها التي غادرتها لقرون، وبيتها الذي مازالت تحتفظ بمفتاحه حتى الآن، مفتاحٌ قد أخبأتْ بريقه تحت أرضية صومعتها قبل أن تلفظ آخر أنفاسها وتتحرر من جسدها الفاني وتحوم روحها بالعوالي. كانت تُحس بمنزلها، تراه جاثما على صدور قوم أبورتو لا ينقله من مكانه بربوته الشامخة، لم يهن ولم يستكن لسيوف البورتوغاليين الصدئة. كانت ماتزال تُحس بنفحات يابرة ومسك ترابها، كانت تُحس بأريج بخورها وتسمع صرير أقلام أهلها وحناجرهم التي تغرد أبيات الشعر وحروف الأدب... كانت تشتاق لمدينتها التي مازالت تشم عبقها مع كل صباح تُرسل به تُويجاتها نسيم هواء ينفذ إلى روحها فيُغديها ويُنعش لهيبها... تَحِنُّ إلى سمفونيات الشعراء والأدباء تنشر مقاماتها بين جدران يابرة وديوانها... تصبو إلى معاقرة خمر القصيد وإلقاءها كما كانت... كانت الأشواق تتقد بروحها فتُثير آلامها وأفراحها، مسراتها وقروحها، أناتها وأشجانها، أوصابها وبشاشتها وأنسها... كان يُحفز كل المشاعر فتتضارب بإيوان الفكر حتى تنتزع عرشه وتظهر على قريناتها بفؤادها العليل.

تلقفتْ سارة بعد وعيها قلق والديها وارتباكهما، فأخذت بزمام الأمور من عائشة وروضتْ اللسان حتى خضع واستسلم لها ثانية... تصنعت كُحة قوية، وقالتْ مشيرة لحنجرتها:

- أعتقد أن زُكاما قد أصاب حُنجرتي وأمسك بتلابيب عافيتي فأسقطها في علته، وأيقظت المرض وعترته، فأينعتْ خباثة ورقته، وتضخمتْ رقته.

كانت سارة تتكلم بكلام موزون منظم الأركان مما أدى إلى استفهام الأبوين وإطلاق سهام القلق نحو ابنتهما... فَطِنتْ سارة أن لسانها مازال مُنْفَلِتَ اللجام، فَجَرَّتْ زمامه قائلة بتلعثم بَيِّن:

- أقصد مدينة أيفورا... لأنها مدينة بغرب الأندلـــ... أقصد أبورتو... لا لا أقصد البرتغال!

حرك نعمان أنامله على أزرار الريموت يتحسس زرا أحمر... أطفأ التلفاز ثم وجه حديثه لسارة:

- يمكن أن نذهب إلى إسبانيا؟

- لن أسافر إلى أي مكان سوى إيفورا.

عرج نعمان بنظره نحو زوجته التي هزتْ كتفيها إيذانا بخروجها الاضطراري من المناقشة، خاصة أن سارة أضحت عصبية شديدة المراس مؤخرا... فكر الصنباطي قليلا ثم قال على مضض:

- نعم موافق... لكن بشرط... سنذهب إلى لشبونة.

نهض من أريكته كي لا يدخل في نقاش جانبي عقيم... ثم أضاف وهو يتوجه نحو الدرج:

- سأذهب إلى غرفتي، بدأ النوم يتسلل لعينيَّ.

بدأ صعوده على السلم. وقف على الدرج الثالث وقال:

- بالنسبة للفندق والطائرة، فسأتدبر أمر الحجز يوم الإثنين بالأسبوع المقبل... أما بالنسبة للتأشيرة فسأقوم بالإجراءات الاستباقية قصد سحبها بأسرع وقت ممكن.

- سأتكلف بها أنا.

قالت نعيمة وهي تُقفل كتابها وتقف... ثم أضافت:

- لي صديقة بالسفارة البرتغالية... سأتصل بها قصد ملاقاتها يوم الإثنين... أظن أن جوازاتنا ستكون مختومة في ظرف يومين... أما ملف التقديم فتقريبا كل الأوراق جاهزة.

- كيف فعلتِ...؟

- أوراق تقديم التأشيرات السياحية تتشابه بين الدول الأوروبية، غير الطلب فسأقوم بتضمينه هناك بالسفارة... سيكون كل شيء على أتم خير.

أجابت نعيمة وهي تتجاوز نعمان صاعدة على الأدراج نحو الطابق العلوي.

- أما غياب سارة عن الدراسة فسأتكفل به أيضا... تصبحين على خير يا حبيبتي سارة.

قالتها الأم، ليُرسلها الأب هو الآخر بلسان غير مبال ويكمل صعوده.

كانت سارة آنذاك بعالم آخر... تتجول فيه مع عائشة بمدينة أشبونة وتلج قلعة المغاربة... كانت تُريها سلسلة أخرى من الأعمال الوحشية بمحاكم التفتيش البورتوغالية!

نحو الجنوب

– 1 –

كانت الطائرة التابعة للخطوط الملكية المغربية تضع عجلاتها على مدرج مطار لشبونة الدولي... قاربت سارة محياها من زجاج نافذة الطائرة السميك، مُلقية ببصرها نحو جسر فاسكودي غاما المعلق الذي يربط بين ضفَّتيْ مصب نهر تاجة بالمحيط الأطلسي:

– إنه ماء خالد نبتتْ به أجساد الأندلسيين... منه ارتوتْ ذرات جسمي حقدا على قوم أبورتو المُغتصبين... منه ارتشفت أفواه الأشبونيين والشنتريين والطلبيريين وغيرهم من أهل الأندلس الأبرار... إني أسمع أنينه يخالج النفس والفؤاد، يُحدِّثني عن فردوس قد فلَّتته سفاهة حكام الطوائف المشتَّتة، وعته أمرائهم بعدما ركنوا للسلطة وأَحُّبوا كرسي الحكم.

كان الصوت النسائي الرخيم يتكلم بين ثنايا صدر سارة، كانت عائشة تئن من وقع ملامسة قلبها لأرضها الغابرة. وجهت عائشة نظر سارة قليلا إلى اليسار من الجسر:

– هناك غير بعيد تجثم قلعة المغاربة على ربوة نَضِرة، كليث الأطلس الجسور يُبرزُ أنيابه لكل غازٍ صليبي.

ابتسمتْ سارة في استهزاء وكلَّمتْ فؤاد عائشة بحروف غير منطوقة:

– لقد انقرض ذاك النوع من الأسود، حتى أنه لم يتمكن من إرجاع

المستعمر الفرنسي عن المغرب...

أرسلت سارة نظرة خاطفة إلى هاتفها الذكي المُفعل بوضعية الطائرة، ثم أضافتْ:

- أما القلعة فاسمها الآن قلعة القديس جورج.

- 2 -

- لقد أوصتني صديقتي مروى أن أشتري لها سلال الدانتيل المزركشة والمطرزة، فلشبونة معروفة بها.

قالت نعيمة لنعمان وهما يسلكان ممرا أبيض بمطار لشبونة الدولي. رمقها نعمان بعينيين مُتعبتين وهو يرسم على شفتيه ابتسامة راضية. كان يعتبر البرتغال كقرية أوروبية صغيرة لا طائل من زيارتها، وذاك ما جعله يقبل الوجهة على مضض، غير أن رفاقه بالنادي باركوا له اختيار ابنته وأشادوا بوجهته الجديدة.

- إن لشبونة مدينة جميلة وفريدة... تجمع بين حداثة أوروبا وأصالة منشآتها وتاريخها الضارب في الزمن.

قالها نعمان بفخر كأن يديه هي من شيَّدت مبانيها، أو على الأقل هو من بارك حجر أساسها... أضاف بفخر زائد مُبرزا صدره كمغنيي الأوبرا الإيطالية:

- سنزور قلعة ساوجرجي التي ترجع إلى العصر الفينيقي، وبرج بيليم وكنيسة جيرونيمور.

أطلقت نعيمة ضحكة مصطنعة وقد غَطَّتْ فمها بكفها، ثم نزعتْ منديلا من حقيبتها اليدوية المُذهَّبة ومسحت جبهتها من التعرق الذي أصابها من جراء الهواء الساخن المنبعث من المكيفات، حتى أنك تحسب

أن الفصل صيفا، وأن الجو بالخارج لا يمُتُّ لفصل الشتاء بصلة، لولا تلك الأمطار القوية التي كانت تقرع زجاج نوافذ المطار الضخمة، كأنها تُذكِّر القادمين أنها تنتظرهم عند الخروج.

ظل نعمان يتحدث عن لشبونة ومآثرها، ثم عرج بحديثه إلى وصف قرية كاسكايس الساحلية، لقد أخبر نعيمة أنه حجز بأحد منتجعاتها لَيْلَتَيْن، كي يقضوا هناك ليلة رأس السنة الميلادية. لقد أوصوه بأنديتها الليلية ومطاعمها الفاخرة. كان يتفاخر تارة بتمكنه من حجز مكان بأرفع فندق بالبلاد وتارة أخرى بنصائح زملائه المهمة والناجعة حول السياحة بالبرتغال!

كانت سارة تمشي بجانب أمها في سكون، لا تجاريهم في حديثهم سوى بابتسامة خافتة عندما يوجه نعمان نظره نحوها، ربما كان يشير لها أن كل هذا من أجلها، لكنها لم تكن تهتم لحوارهما... بعد قليل كانوا قد أنهوا إجراءات عبورهم، ثم اتجهوا نحو مخرج المطار الزجاجي الضخم. ما كادوا يتجاوزونه حتى أشار الصنباطي إلى سيارة أجرة سوداء مخاطبا نعيمة بفخر زاد ريشه انتفاشا:

- إن هذه السيارة من أجلنا... لقد أرسلها لنا الفندق خصيصا.

اتجه نحو السيارة مقاوما المطر الذي أرسل زخاته الكبيرة كرشاش ضخم لا يُخطئ فرائسه... وما إن اقترب حتى خرج السائق مُحيِّيا المغربي بلغة إنجليزية متكسرة، دار بينهما حوار قصير، ثم اتجه نحو نعيمة وسارة قصد أخذ أمتعتهما ووضعها بصندوق السيارة. بعد دقائق كانت الأسرة في غرفتها بالفندق اللشبوني.

- سأرجع بعد قليل... سأجلس قليلا بباحة الفندق، فصبيب الواي فاي هناك جيد، وأحتاجه الآن بشدة.

أرسلت سارة كلماتها ثم خرجت من الغرفة. استقلت المصعد الكهربائي، ثم اتجهت إلى مكان شاغر بالباحة. فَعَّلت خدمة الواي فاي بهاتفها، ثم ولجتْ خدمة خرائط غوغل. بضع نقرات، كانت كافية لتجد خطَّ سفر مناسب نحو يابرة، كانت تفصلها ساعتين عن لشبونة عبر القطار. كانت محطة القطار التي حدَّدتها لها الخِدْمَة غير بعيدة، فمحطة أنتروكامبوس (Entrocampos) لا تبعد إلا بعشر دقائق من محلِّ إقامتها إن استقَلَّت الميترو من محطته القريبة من الفندق. أعادت مسح كلماتها البحثية، ثم كتبت شيئا آخر... ابتسمت سارة ثم أقفلتْ خدمة الخرائط.

– 3 –

كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا... لم تستطع سارة النوم، بل كانت عائشة هي التي لم تدعها تنام. فما استطاعت أن تقفل جفنيها طيلة الليلة، فقد أبتْ عائشة إلا أن ترسم مشاهد من ألوان التعذيب الذي قاساه المسلمون هنا... بهذه الأرض التي تنام عليها الآن. نهضتْ، غسلت وجهها وشطَّفت نفسها، ثم لبست ملابس شتائية ثقيلة، ووارت شعرها تحت قلنسوة صوفية قد تراخى جانبها الأيمن فغطَّى نصف جبهتها، وغطَّتْ عنقها بوشاح صفيق ثم خرجتْ من الفندق.

وجدتْ الميترو واقفا يستعد لمتابعة مساره، وما هي إلا دقائق حتى كانت تستقل القطار المتوجه نحو يابرة. كان قلبها يخفق بشدة حتى كاد يتجاوز قفصها الصدري، أما مقلتاها فكانتا تتحركان يمنة ويسرة كضرير لامس النور حديثا... كانت سارة وعائشة تتحسسان يابرة، وتشمان عبقها من بعيد... وفجأة تسمَّرَتْ عينا الرفيقتين... كانت عائشة تنظر إلى تلال بعيدة وقد اعترتْ

سريرتها قرحة، وغمر فؤادها حزن حارق... تسلَّلت عبرة مخترقة معين دمعها حافرة أخدودا من الأسى على خديها البارزين... تحرَّكَت يد سارة مشيرة إلى التلال وهي ترتعد من وقع دق قلبها الذي نشر قرعه كزلزال يضرب الجسم كله... لم تكن سارة هي من أشارت نحوها، بل عائشة.

نعم بتلك التلال هناك خلف الأفق... هناك قد تجرعنا الخيانة حنظلا بحناجرنا... فجُزَّت كلها ولم ينج من سيف الخائن إلا أنا... فبعدما ضُيِّق على مجموعتنا الثورية وأضحى استشهاد أفرادنا أمرا يوميا، أشار أبو لبيب، أحد الثوار اليابريين، إلى حلٍّ أرضى الثوار الذين اجتمعوا بمكان جديد حدَّدتُه لهم قبل اللقاء بقليل...

قال محمد أبو لبيب وقد انتفختْ أوداجه من وقع قتل أخيه من الغزاة الأبورتيين:

- لا مناص لنا سوى الرحيل.
- أتفكر في الهروب يا محمد؟

قال مسلمة وهو يزفر نارا مشتعلة من فمه تحرق قلوب الحاضرين.

- لم أقل ذلك!
- دعه يا مسلمة يتكلم... أكمل يا محمد ماذا تقصد؟

قالت عائشة وهي تشير لمحمد أن يكمل حديثه.

- هل سمعتم بالقائد البحري الحسين بن علي الزيري؟

نظر الثوار المجتمعين نحو بعضهم البعض مستفهمين... لم تكن أصداء القائد البحري المسلم الحسين بن علي الزيري قد وصلتْ إلى يابرة بعد، ربما لأجواء الحرب والأوضاع المشتعلة هنا بالأندلس الغربي... أضاف محمد:

- لقد سمعتُ به عند تسللي الأخير لأشبونة ولقائي بثوارها، كي أجلب عُدَّة إضافية.

- انتظر... متى فعلتَ هذا؟

استفهم أبو حاتم مسلمة مُستنكرا حول ذهاب أحد أعضاء المجموعة لأشبونة دون علمه.

- لم نُعلم أحدا من مجموعتنا... حتى عائشة لم تعلم بذلك إلا بعد رجوعنا... أنت تعلم الحالة المضطربة التي تعيشها مجموعتنا... بل نظن أن خائنا مازال يقبع بيننا... نحن عشرة أفراد فقط وبيننا خائن... لذاك لم نُخبر أحدا بنقص عدة أسلحتنا وقمنا بتحركنا في صمت.

أجابت ولادة بنت خالد اليابري، ابنة الحاكم السابق ليابرة، والمسؤولة عن العدة والسلاح بجماعة الثوار اليابريين. كانت كلمتها شديدة قوية الوقع، حتى أن من سولت له نفسه المعارضة، انكشح وأضمر قوله، كما سكنت فرائس أبي حاتم وأرخى أذنه يُنصتُ لمحمد الذي أضاف:

- هناك أصداء تفيد أن مجموعة من المجاهدين قد اجتمعوا بجزيرة ما ببحر الروم... قال لي أحد مجاهدي أشبونة إن مجموعتهم تقوم بشن غارات بحرية على سفن مملكة أرغون وقشتالة، إضافة لموانئ عديدة للصليبيين. قائدهم يُدعى الحسين بن علي الزيري ويُعتقد أنه أخو أبي الحسن بن علي آخر ملوك مملكة بنو زيري التي ضمها الموحدون لأراضيهم.

- الظاهر أنهم مجموعة من القادة العسكريين الهاربين من المناطق المفتوحة من الدولة الجديدة بالمغرب الأقصى... فقد أخبرنا المجاهدون الأشبونيون أنهم مزيج من قادة جيوش المرابطين وبني خرسان وبني الرند

وبني الورد والحماديين ممن أُبِيدَتْ دولهم وضمها الموحدون لهم.

أكملتْ ولادة كلام محمد، ليحكي هذا الأخير عن الأخبار المتداولة حول شنهم لهجمات بحرية على ثغور أرغون كبلنسية وطركونة، بل وما يُشاع أنهم بلغوا ثغر لاكورونيا ببحر الظلمات لقشتالة الصليبية. ثم نقل خبرهم فيما بلغ مجاهدي أشبونة أنهم خاضوا معركة بحرية مع الأبورتيين غير بعيدة عن مرسى مدينة أبورتو.

– أعتقد أن فكرة التحاقنا بهم سديدة، بل وسيكون هذا عونا لنا في استرجاع ثغور الأندلس ونزعها من يد البورتوغاليين.

قالت عائشة وهي تلقي بكلامها اتجاه أبي حاتم الذي لم يُبد رضى ولا موافقة على المقترح، بل قطب حاجبيه وأمال بجانب شفتيه. أضافت عائشة:

– أنا أوافق على الرحيل.

ثم رفعت عائشة يدها اليمنى ليتبعها محمد وولادة ثم خمسة أعضاء آخرين، غير أن مسلمة وعضوين آخرين أبدوا الرفض.

– وأمركم شورى بينكم... إذن سنرحل بحثا عن مرسى المجاهدين... سألتقي لاحقا بأبي حاتم لنحدد مكان تجمعنا وموعد رحلينا.

ثم التفتت عائشة نحو مسلمة المجريطي مضيفة:

– أم إنك تفضل البقاء وعدم مرافقتنا؟

أرسل مسلمة ابتسامة خافتة، ثم أشار بإيماءة موافقة من رأسه. أبدتْ عائشة سرورا بموافقة رفيق عمرها، ثم عرجت ببصرها نحو العضوين المعارضين الآخرين، كأنها تستفهم عن موقفهم وما سيفعلون بعد هذا الجمع:

- سنبقى هنا... سنؤسس مجموعة مجاهدة أخرى ولن ندع الأبورتيين ينعمون بالأمن.

قال المجاهد بعينين متقدتين وهو يضع كفه على كتف صديقه الذي أبدى موافقة صديقه بشرارة انطلقت من عينيه وحاكت ابتسامة زاحمت وجنيته.

تحدث بعد ذلك أعضاء المجموعة عن الطريق التي سيسلكونها، كان محمد أدرى المجاهدين بالأماكن المحيطة بيابرة، وأسلمها عبورا، بعيدا عن أعين الصليبيين الذين يتربصون بكل من سولت له نفسه الهروب. أكملوا رسم خطِّ سيرهم الأَوَّلِي ثم قالت عائشة:

- فلينتظر كل واحد منكم خبر المكان والزمان، لكن احذروا فكلنا على مرمى رماح البورتوغاليين.

وضع المجاهدون الذكور أكفَّهم بعضها فوق بعض، وصافحت عائشة ولادة، ثم خرج كل واحد منهم من الكهف الضيق، لا يعرف وجهة الآخر.

- 4 -

كانت الأيام التالية عسيرة على المجموعة الجهادية، فقد قُتل منهم عضو آخر بعدما أمسكه الأبورتيون بتهمة الهرطقة، كان مُتخفيا بالسوق العام يشتري بعض فتات الدقيق المخبوز، ليمسكه عسس البورتوغاليين فجأة، اختفى بعدها لمدة يومين، ليعاود الظهور... لكنه كان مُخَوْزَقا وسط الساحة الكبرى أمام دار القضاء التي أضحت حانة يجتمع بها العسس وأفراد جيش الصليبيين.

كان مسلمة أبو حاتم المجريطي واقفا بجانب الحي الغربي حديث

البناء، كان يضم بين ثناياه مستوطنين بورتوغاليين وبعض المرتدين من الأندلسيين ممن دعموا الغزو الصليبي وباركوا الحكم الكَنَسي، فخانوا دينهم وإخوانهم وحكامهم... كان مسلمة هادئ الملامح، أغلب أحاسيسه لا تجد موطئا بمحياه، فلا يُبدي ما يشعر به إلا لماما، غير أن عائشة لمستْ به لمسة رعب عندما وقفتْ بجانبه دون علمه، كأن الأرض انشقتْ وأنبتتها فجأة... كان يُودِّع شخصا سرعان ما توارى بين الأزقة الحديثة للحي، وما كاد يدير جذعه مبتعدا عن مرآه حتى وجدها أمامه.

- لقد عرفتُكَ رغم جلبابك وقبِّك ذاك... ماذا تفعل بتخوم الحي البورتوغالي، ومن ذاك الذي كنتَ تُشير له بيدك.

نظر مسلمة إلى عائشة بعينين مُجهدتين، كأنهما تتحسسان معانقة النوم، حاول إخفاء ارتباكه، فتَّش بين خلاياه الفكرية فما وجد طريقة للدفاع سوى الهجوم:

- وماذا تفعلين أنت هنا؟

- أرى أنك تحاول تطويع الحوار لوجهتك... لا ضير... أنا هنا في دورية... ربما نسيتَ أن اليوم هو دوري في تقسِّي حال الأبورتيين وأحوالهم... وهذا الحي واحد من أهم تجمعاتهم.

صمتَتْ قليلا ثم أضافت وهي ترفع حاجبيها المستفهمتين:

- وأنت؟

نسي مسلمة أمر الدورية تماما، وما فطن أنها نوبة عائشة... ضحك أبو حاتم حتى بدتْ نواجده وسقط القبُّ من رأسه. نظرتْ إليه عائشة باستغراب، فما كادت تصيغ تساؤلها حتى انطلقتْ قهقهته تهزُّ المكان... أمسكت بتلابيبه

وجرَّته بمحاذاة الحائط كي لا تجذب انتباه أحد... قالت وقد بدأ الغضب يُهيمن على قسماتها، حتى أن حُمرته صبغتْ وجنتيها البارزتين:

- ماذا دهاك؟... ما بالك تضحك هكذا؟

حاولتْ أن تتلقف رائحة فمه من بعيد، حتى تأكدتْ أنه ما عاقر نبيذا ولا خمرا. أرختْ قبضتها، واعتدلتْ تنتظر أن يهدأ من عتهه... بعد حين كان يُلملم ضحكاته المتبقية، ويطلق كَحَّة عساها ترخي حنجرته المتشنجة من كثرة الضحك. قال وهو يمسح قطرات من العرق المتصبب من جبينه بطرف كم جلبابه الأيمن:

- عندما كنتِ تتكلمين تذكَّرتُ غضبك حينما عاقبك الفقيه بالمسجد بعدما علم أنك السبب في طلي لوحة الحفظ بالسواد، كنتِ تريدين الذهاب المبكر دون حفظ، فسكبتِ المداد الأسود على لوحتك، فكان عقابك أن تنظفي كل لوحات طلبة الحفظ... شككتِ آنذاك أنني أنا من أوشى بك، فطار عقلك غضبا، حتى أنك من شدة غضبك حاولتِ ضربي فما كدتِ تصلين إلي حتى وقعتِ في طين متجمع من أثر المطر... أتذكرين؟

سكتَ مسلمة ثم أضاف وقد غدتْ ملامحه فجأة جدِّيَّة قاسية:

- أتظنين أنني خائن يا عائشة؟

- لا لم....

- لا تتكلمي... أنا هنا عند صديق كان بجيش يابرة، كان بيته هنا قبل أن يبني الأبورتيون منازلهم، وظل محافظا عليه... هو الآن يُبدي تعاطفا معهم، لكنه يُزَوِّدني بأخبارهم بين الفينة والأخرى... رافقتك السلامة.

قالها ثم تجاوز عائشة ذاهبا ولم يُعقِّب... اشتعلتْ نار بقلب عائشة

آنذاك... ليس نار التأنيب، بل نار عدم الثقة... فكلامه لم يُقنعها بتاتا... ليس ذاك بمسلمة، طريقة كلامه، حركات عينيه، تلعثم لسانه، غضب لا مبرر له، بل حتى أنفاسه وصدره المختنق، كل هذا جعلها تفكر أنه يُخفي أمرا جللا، وأن قوله وتبريره العقيم حاد عن الصدق ولامس الكذب... لم تبتلع الأفكار التي عصفتْ بها آنذاك، فهي لم تُرِد أن يكون مسلمة هو الخائن الذي بينهم. كانت تقول لنفسها إنه يقوم بعمل لصالح المجموعة لكنه لا يُريد الإفصاح عنه، ربما التكتم والمواربة التي باتت تنشر خيوطها بين أفراد المجموعة الأيام الأخيرة هي السبب، أرادت إخباره بموعد رحيلهم ومكان تجمعهم المقبل، لكنها ألجمتْ لسانها، واختارت الصمت، حتى ترى ما ستفعل بهذه الخاطرة المرعبة...

أما الشخص الذي أتى مسلمة لرؤيته فقد كانت تعرفه جيدا... لقد اشتهر أنه خائن صابئ عن دينه.

– 5 –

كانت الساعة النحاسية الضخمة مُعلقة بسلسلة صدئة، طرفها معقود إلى الساعة والطرف الآخر إلى الفراغ. كانت تتأرجح يمنة ويسرة ببطء شديد يُحاكي تحرك عقاربها التي تدور دون قصدٍ مُحدَّد. كانت سارة واقفة بجانبها مرسلة بنظرها نحو الفراغ المظلم الذي أمامهما، كأنهما، الساعة وسارة، تنظران إلى شيء قد رُسم بالصريم الحالك الذي أحاط بالمكان وبالزمان.

– ماذا وجدت لاحقا؟... هل كان صديقكِ خائنا؟

تحرَّكت شفتا سارة راسمة حروف التأثر على أثير الهواء... كانت حروفها قد زعزعتْ الساعة النحاسية رغم طبيعتها الهامسة... ثم بدأ وجه

عائشة يتشكل من خلف الظلام، حتى ظهر جسدها الهزيل، كانت عبراتها تسقط من معين دمعها حارقة، حتى أنها استحالت إلى لون الدم الأحمر.

- لا أذكر شيئا!... لكنني أشعر بحرقة تشتعل بصدري، لا أعرف مغزاها ولا سببها، لكنني أحسُّ أن أمرا جللا قد عصف بي!

- ربما ذاك بفعل علمك بخيانته.

- لا أعتقد... مسلمة لن يخون قومه... لن يخونني، فقد تربينا معا، وترعرعت قلوبنا بين جدران يابرة وروابيها.

- فمن إذن؟

- لا أعرف... قلتُ لك لا أتذكر!

وضعتْ عائشة كفيها على صدغيها، وعصرت على رأسها كأنها تقاوم ألما قد بدأت أجراسه تدُقُّ وسط جمجمتها... جلست على ركبتيها وخفضت رأسها حتى لامست ناصيته الأرض.

- ماذا بك يا عائشة؟

لم تُجب عائشة... عمَّ السكون المكان، ليزيد الغموض غموضا... حتَّى أن عقارب الساعة قد توقفت وتوقفت معها الأرجحة... ثم فجأة أطلقت عائشة صرخة أسيفة عالية، تُقَطِّع الحناجر وتُمزقها، اجتاحت المكان حتى صدَّعته، وشقَّقَت الظلام فبدأت قطعه تتساقط بين سارة وعائشة، ثم بدأت أشعة مضيئة تتلألأ فوق سطح الساعة، تنشر لألأتها على خدود سارة ثم على المكان ككل، حتى أنها أعمت عينيها.

وضعت ذراعها أمام مقلتيها كي تحجب الشعاع القوي من أن يُعمي نظرها، جاهدته كي تتلقف ما تُبصره، إلى أن تبدَّد البريق شيئا فشيئا. ضَيَّقتْ جفنيها،

ثم بدأ مشهد آخر يتكوَّنُ أمامها... كانت تقفُ بين المجموعة الجهادية وقد بدا الحُزن على مُحيَّاهم، تحسَّسَت خدودها فوجدتْ نفسها تبكي في صمت...

- لقد أمسك به الأبورتيون... لقد رأيته بدوريتي البارحة بالحي الغربي... كان يقف يتحدث مع أحدهم، ثم فجأة جاء العسس وأمسكوا به.

كان أحد المجاهدين الثوار يحكي لمجموعته عن اعتقال أبي حاتم مسلمة من طرف الأبورتيين، فبعد ما تبعهم وصولا إلى المكان الذي وضعوه به، سارع إلى لَمِّ إخوانه وإخبارهم بالأمر، خاصة عائشة التي قد وقع قلبها حتى لامس أرض الحزن والأسى. لقد شكَّتْ به قبل أيام، بل وتعقَّبت خطواته تتجسس على تحركاته وسكناته. وها هو الآن أسير عند المغتصبين، ولا شك أنهم سيجدونه بعد مُدَّة مصلوبا أو مقتولا بساحة أو سوق.

- أين وضعوه؟

سألتْ عائشة.

- إنه بالمسجد الذي دنَّسوه، وأرجعوه كنيسة... فكما تعلمين هناك يُعذِّبون الأسرى بمباركة القس جبرائيل، ويفتشون في أفكارهم قبل إعدامهم.

أدارت عائشة جسدها، ثم توجهت نحو المخرج.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

صاحتْ ولادة.

- إلى إخراج مسلمة.

أجابت عائشة دون أن تلتفت... لكن بعد خطوات وجدتْ محمد قد وقف وسد بجثته الضخمة مدخل الكهف.

- لن أدعك تخرجين يا عائشة... هل تريدين أن تُلقي بنفسك إلى التهلكة؟
- أزح عني جسدك هذا، واتركني يا محمد أخرج!
- عائشة!... أنت صاحبة عقل راجح.

جاء الصوت من خلفها، صاحبته كفٌّ رقيقة وُضعتْ على كتفِها الأيمن، ثم تابعت ولادة الحديث:

- أنت تعلمين أنك إن ذهبت هناك فلن ترجعي، وستُقتلي لا محالة... لدينا مهمة أسمى وهي إنقاذ الأندلس كلها من يد الصليبيين... نحن نُقدم أنفسنا قرابين لإعلاء راية ديننا وعقيدتنا الإسلامية. قُتل منا الكثير، وأسر الكثير... سنتحرَّك غدا بعد صلاة الفجر بحثا عن مقرِّ المجاهدين البحريين، لقد جاءنا خبر من إخواننا بأشبونة أن بعض علماء سبتة تربطهم علاقة بهم، ويستفتونهم بنوازلهم، سنربط بعزيمتنا على قلوبنا ونهاجر إليهم.

أكملتْ ولادة حديثها ثم أزالت يدها من على كتف عائشة التي أكملتْ خُطاها وتجاوزت محمد خارجة من الكهف المخصص لتجمعهم... ظل محمد يتتبع عائشة بنظره ثم عرج به نحو ولادة التي قالت:

- لا تخف... لن تذهب عائشة إلى أي مكان... ستأتي غدا بالموعد.

بعد الفجر بقليل كانتِ المجموعة الجهادية تنطلق في هجرتها... عددهم خمسة فقط... كان رحيلهم بغسق، اتخذوا طريقا غربيا وعرا نحو أشبونة، وذاك لتضليل الأعين، بعد بضعة أميال عرجت خيولهم جنوبا، لم تكن عائشة معهم، رجتْ ولادة محمد أن ينتظروها لكن سِرِّيَّة الأمر والحيطة في تنفيذه جعل المجموعة ككل ترفض، مما اضطرها للاذعان والرضوخ لرأيهم... بعدما عرجوا جنوبا، وعند ربوة مرتفعة، كانت الشمس التي أضحت تُرسل أشعتها على استحياء، يتلألأ ضياؤها على ظل بعيد...

كانت الأشعة تسقط خلف شخص يمتطي جواده، وتتمايل أهداب ملابسه مع الرياح الربيعية.

- إنها عائشة!

تعالت صرخة الفرح على محيًّا ولادة وانطلقتْ مسرعة إليها، كانت تنكز فرسها بقدميها مرارا وتكرارا كي تصل إليها سريعا...

جذبت ولادة لجام فرسها بشدة، فرفعت هذه الأخيرة رجليها الأماميتين ليتجاوز طولها المتران، كفَّت الفرس جريها وأضحتْ تدور حول عائشة وجوادها.

- لقد أصابني غم لعدم مجيئك... لم أستسغ تركك وراءنا.

- لقد خرجتُ قبل الفجر... شعرتُ بأن أحدا يراقبني فآثرتُ الخروج ليلا قبل عودته، وأحمد الله أنكم سلكتم الطريق المتفق عليه، ولم تغيِّروه.

ثم انطلقت المجموعة متجهة إلى سبتة... كانوا يفكرون في الوصول إلى الحدود الإسلامية الصليبية أولا... لقد أحكم الموحدون سيطرتهم على جنوب الأندلس وهناك سيتحسسون طريقة للوصول إلى سبتة وملاقاة من لهم معرفة بالمجاهدين البحريين.

- 6 -

كانت سارة تترجل من القطار، خرجتْ من المحطة. بعد أمتار قليلة كانت تلج حديقة غناء، خرجت منها لتجد نفسها بالحي اليابري العتيق، اخترقت أزقته الضيقة ومنازله البيضاء المحفوفة بأشرطة صبغية صفراء... ثم وقفتْ لتجد نفسها أمام مبنى روماني مرتفع عن سطح الأرض، تحُفُّه أساطين منمقة بنتوءات بارزة من الأعلى إلى الأسفل منحوتة حولها في شكل عمودي، وترفع بلاطا قد فقد أغلب قسماته وتهدم من جراء القدم... كانت أمام معبد ديانا.

خيانة

- 1 -

قبل أيام قليلة:

- لقد كان الإيوان هنا... إيوان الأدباء ومجمع الشعراء.

حدَّثت عائشة قرينتها الآدمية، مُحيلة نظرها نحو كاتدرائية ضخمة... نظرتْ سارة نحو الخريطة الإلكترونية ثم قالت:

- إنها الكاتدرائية اليابريَّة... لقد شيدها البرتغاليون بعد سقوط يابرة بعشرين سنة.

وفجأة، بدأ صريم من الظلماء يُسدل تقاسيمه، ثم أضحت حواف الكاتدرائية وجدرانها تتلاعب وتهتز كأن مسا من الشيطان قد ادلَهَمَّ بها، ثم ناغم اهتزازها اهتزاز الأرض من حولها... كان التوتر والتذبذب عنيفا، أظلمت معه سماء يابرة، وبدأت الأرض من تحتها تتكسر وتتشقق، لترتفع شظاياها الصخرية بجانب سارة كأن الجاذبية قد تعطَّلت فجأة فأخذ كل شيء يتوسل الطفو بالفضاء البهيم، ثم بدأ التصدع يقذف بتشققاته على جدار الكاتدرائية المهتزة، لتختلط تموجات جدرانها مع تصدع أحجارها التي باتت تحاول الانفلات من الحائط ومعانقة الفضاء المظلم هي الأخرى... لم يلبث المشهد المرعب طويلا، فقد بدأت بوادر الاستقرار من الاهتزاز، وأضحى التصدع ينكشح ويلتئم كأن يدا شفائية طالته بالخفاء... وسط كل هذا كانت سارة ثابتة لم تهتز أطرافها لتشوهات

الفضاء المحيط بها، لكن فؤادا تحت أغصان صدرها المتلاحمة، كان يهتز كأنه يعزف سمفونية مرعبة اهتز لها المكان وتصدع من وقعها... كان فؤاد عائشة مضطربا متفلِّتًا لا يستكين. ضغطت سارة بكفها على صدرها بشدة، كأم تريد من طفلها أن يسكن ويهدأ من وقع الفطام. ثم عَمَّ السكون وخفتت الفوضى، لكن الكاتدرائية اختفت واحتل مكانها بناء آخر، كما أن الظلام ظل جاثما على مناخ الزمان والمكان، ظل متسلطا متجبرا على نفحة الضياء... كان كل شيء مظلما ما عدا البناء المقابل لها، كان مضيئا لامعا، لكنه لا يخطف الأبصار، بل يحمل بضيائه حنينا غريبا وراحة وصفاء سريرة... اتجهتْ سارة نحو بابه الخشبي الضخم الذي كان مقفلا. وضعت كفها على ظاهره فاستجاب وانفتح على مصراعيه. كان يُحيل مباشرة على قاعة ضخمة، تشملها كَرَاسٍ خشبية عديدة منتظمة في صفوف أفقية متساوية العدد. وبقاعها كانت تنتصب خشبة عالية بنصف متر عن البلاط تقف عليها طفلة يافعة تُلقي كلمات أمام حشد من الناس:

- تلك انا.

كانت الحروف التي نطقتها عائشة تحمل ألما وحنينا أَنَّتْ معه جدران الإيوان.

إنها عائشة... كانت آنذاك يافعة لا تتعدى الثانية عشر، تقف متوسطة الخشبة، كان أمامها كراس مصفوفة قد جلست بها شخصيات يابريَّة تظهر عليها سمة الرفعة، كما أن أطفالا آخرين قد جلسوا بصف خلفي، كانوا بعمر عائشة... كان مسلمة المجريطي بينهم. كانت عائشة وجلة خجلة، فتلك المرة الأولى التي ستلقي قصيدتها أمام هذا الجمع من الناس. كان الحفل تكريما لمجموع أطفال يابرة ممن أتقنوا القرآن حفظا وترتيلا،

وكتاب الشفا للقاضي عياض، وبرعوا في نظم القصيد والأدب. كانت عائشة تلقي قصيدة نظمتها. عرضتها سابقا على ابن سِيدَه المُرسيّ لما أعاد زيارته ليابرة، فأوصى قاضي القضاة بالاعتناء بها، مما فتح لها إيوان الشعراء على مصراعيه، وها هي تُنشد أبياتها أمام شخصيات يابرة الكبيرة. لم يكن أبوها حاضرا، كان بأشبونة، يعمل في الصيد ببحر الظلمات.

تبدَّدَتْ صورة عائشة وهي تُلقي أبياتها... لترسم صورة أخرى لها وهي تُلقي أبياتا أخرى. كان عمرها آنذاك أربعة عشر عاما إلا قليلا.

ثم اختفى كل شيء من أمامها لتعيد الظلمة سيادتها وسيطرتها وترسل تباريحها فأنَّت منها ذرات الهواء، ثم ظهرت من بين ثناياه الساعة النحاسية الضخمة مُعلنة عن معانقة الواقع، فحطَّمت الظلام وشقَّت صريمه، لينبلج الضياء ويعيد مملكته السليبة... ثم تشكلت أمامها الكاتدرائية من جديد.

– 2 –

الآن... رحلة بدروب التاريخ الخفية:

كانت عيناها جاحظتين، تتوسلان الخروج من محجريهما... كما أن عضلاتها كانت متشنجة كأنها تتصارع مع كائن غير مرئي، كأن جاثوم قد تسلل بليل كي يجثم على صدرها ويفرض حضر تجوال على ذرات الهواء، فما تستطع ولوج الأنف وبلوغ الرئة!... كان صدرها يرتفع وينخفض كأنها تتوسل بلوغ قمة جبل عبر سفح شديد الميلان، يضيق تنفسها ثم ينقطع، فيستحيل حشرجة مكتومة، كانت تحاول الصراخ لكنها لم تتمكن من فك عقدة اللسان، ولا إطلاق لجام حبالها الصوتية... لم تشعر نعيمة بابنتها وهي تصارع الفراغ، فقد كانت سارة بغرفة ملحقة بغرفتهم الفندقية الجديدة...

كانت إجازة سفرهم تُقارب على الانتهاء، كان نعمان راضيا عن أيامهم بالبرتغال، فقد كان يقضي نهاره متجولا زائرا لمختلف معالم العاصمة، إضافة لزيارته لمدن أخرى خاصة أن الفندق اللشبوني اقترح بعض الرحلات السياحية لنزلائه بثمن مغر، فسجل أسرته كلها، لكن سارة غالبا ما كانت تعتذر عن الذهاب معهم، فتختار زيارة يابرة، وملء رئتيها برفات الأندلسيين.

كانت سارة تصارع الفراغ بالفندق الواقع على مشارف شاطئ كاسكايس البرتغالي، تدفعه بكل ما أوتيت من قوة... كانت هذه من المرات القلائل التي يتداخل فيها واقعها مع أحداث يابرة الغابرة، أو ذكريات عائشة المتجسدة!... فقد كانت عائشة هي من تصارع، تصارع شخصا لم تستبن ملامحه... كان يحاول قتلها... دفعت عائشة الشخص الذي كاد أن يُدخل سيفه بعنقها وهي نائمة، لكن يد الله أنقذتها، وفتحت عينيها لتخطف خنجرا بجانبها ويلتحم نصلها بسيفه، ويرسل دويًّا قويا.

كان يدفع بكل ما أوتي من قوة كي يصل سيفه إلى عنقها ويفصل رأسها عن جسدها الدقيق، لكنها استطاعت أن تُفلت منه، فضربة من قدمها نحو مركز ثقله، كانت كافية في أن يسقط بجانبها وهو يتلوى من الألم. كان المهاجم يلبس جلبابا متراخي الأطراف، وقد أرسل بِقِبِّه فوق رأسه حتى وارى قسمات وجهه، عزَّزَ لثام أسود قد غطَّى جلَّ وجهه، إخفاء ملامحه ومعرفة شخصه. لم تتمكن عائشة من رؤية عينيه المتوارية تحت القب، لكنها أحست بأنفاسٍ قد خَبِرَتْها وعرفتها قبلا... رمت بيدها الممسكة بالخنجر نحو فخده فغرسته حتى تطاير الدم عليها وعلى وجهها، وأطلق

المهاجم صرخة ضجتْ منها الأركان... سمعتْ جلبة خارج الخيمة التي كانت تنام بها هي وولادة...

ولادة؟! لقد تذكرتها الآن، لاحتْ ببصرها نحو المكان التي كانت تنام به، لتجدها مكبلة اليدين والرجلين، مكمم فمها بخرقة قد شُدت بقوة...

اتجهت عائشة نحوها بسرعة مشوبة بخوف، اقتربت منها، فوجدتها غارقة في بحار البرزخ، مُوشحة بالدماء، قد غُرِس ناحية صدرها الأيسر نصل بلغ القلب. نزعته وقد ملأت عينيها دموع الحزن والرعب.

وقف المهاجم مقاوما الألم غير أن عائشة قفزت عليه مخترقة صدره بالخنجر الذي قتل به ولادة. أدخلت الخنجر بشدة كأنها تتأكد من أنه اخترق قلبه، فما زاد من المهاجم إلا صراخا وحركة من وقع الألم، سقط معها قِبُّه الرمادي، فتمثلت أمامها عَيْنا المجرم...

جحظتْ عيناها رُعبا، ثم جرَّت اللثام من على وجه المهاجم!

فرسمت لها مُقلتاها بريشة ساخرة ملامح أبي حاتم مسلمة المجريطي... ملامح صديقها وهو جاحظ العينين فاغر الفم... يُطلق حشرجة الموت من قعر صدره، عميقة مرعبة. سقط أمامها، وأخد شريطا سريعا من الذكريات يمر من أمامها...

لم تستطع استيعاب الأمر!

ظَلَّت سريرتها تُتمتم على غير هدى:

- كيف له أن يخون دينه؟
- كيف له أن يخون بلده؟
- كيف له أن يخون قومه؟

- كيف له أن يخونني... أنا؟

اقتربت الجلبة من خيمتها، كانت أصوات البورتوغاليين ترتفع شيئا فشيئا، أخذت سيفه المُلقى بجانب جثته، ثم حملت خمارها، شقت الخيمة من الجانب المقابل للباب، وتسللت هاربة من جيش الأبورتيين الذين تعقبوهم بمساعدة خائنٍ كان بينهم، خائن لم يكن إلا صديق طفولتها!... صديقها الذي قتلته بيديها الآثمتين!

قتل البورتوغاليون كل الثوار المجاهدين... قتلوا أصدقاءها ورفاقها... وهي الآن وحيدة تكابد وقع سقوط أرض الإسلام من جهة، ومرارة الغدر واستئصال شوكة المجاهدين من جهة أخرى. ظلت تمشي الليل كله، حتى تراءت لها أنوار الصباح. سلكت مسالك وعرة، وأخفت معالم نعلها كي لا تدركها أيادي البورتوغاليين، لكن تفكيرها ما كان يرى إلا صورة مسلمة وهو مخضب بدمائه أمامها...

لقد قتلته بيدها... اختلطت أنفاسها مع رائحة الدماء، وبياض وجهها مع دمه الأحمر.

نظرت بوجهها المنعكس على صفحة الماء الصافي لبحيرة صغيرة، كانت عبراتها مازالت تتوسل الخدود فاختلطت مع دم مسلمة الذي تفجر كأنه عين حمئة خضبت وجهها... ما عرفت أهذا دم أم دمع؟!...

بل الأسى الذي تفلتت شرارته بالفؤاد قد جعل الدمع أشد مرارة من مفارقة الدماء...

غرفت من الماء مرسلة قطراته نحو وجهها عساه يُزيل بعض المرارة التي عصفت بها. ثم غسلت يديها... كانت تفركهما بشدة كأنها تحاول

سلخ جلدها الذي مس النجيع المحرم. أعادت غسل وجهها ودلكه بقوة... كانت تحاول نزع الخطيئة عن وجهها البريء:

نَفْحَةُ شَكٍّ،

تَعْصِفُ بِوَجْهِ البَرَاءَة.

دَنَّسَتْهُ

أَوَّلُ ما دَنَّسَتَه،

أَنامِلُ أَحْبَابه.

لا ضَيْرَ الآنَ،

يا بَلَدِي،

فَكُلُّ مَغْرَسٍ

قَدْ تَاهَ صَوَابه.

كُلُّ مَشْرَبٍ،

فَقَدَ سَدَادَه.

الكلُّ

كلُّ القَوْمِ

مُدَنَّسُون،

في وَجْهِ شَيْطَانِه.

ولا مَلَاكَ بَيْنَهَم،

بِعَيْنِهم،

فَالكُلُّ، مُدَنَّسٌ

يَحْمِلُ أَوْزَارَه.
مَا عَلِمُوا أَنَّ مِقْصَلَة الزَّمَن
قَدْ حَدَّتْ حَرْفَها
مُسْتَعِدَّة
أَنْ تَضْرِبَ لِسَانَه.
عُذْرًا يا زَمَنَ الصِّبَا
فَقَد دَنَّسَتْكَ يَدُ الرَّدَى
وكَشَحَت بَرِيقَ عَيْنَيْك.
خَاطَتْ شَفَتَيْك،
وَمَا تَرَكَتْ مَرْتَعًا
إِلَّا تَلَقُّف غَرْزِ خَنَّاسِك.
وَسْوَاسِك.
فَيَا وَيْحَ
القَلْبِ الصَّافِي
والأَنِينِ الشَّافِي،
وَرَبْوَة خَضْرَاء
يُزْهِرُ بها فُؤَادك.

لم تعرف كيف قادتها قدماها نحو شلب، المدينة التي كانت تحت حكم الموحدين. كانتا حافيتين متورمتين من وقع المسير الذي دام أكثر من يومين وليلة، لم تكن تتغدى إلا على بعض النباتات الصالحة للأكل،

وتملأ معدتها بمياه الوديان الأندلسية العذبة.

دخلتْ شلب... حاضرة صغيرة قريبة من بحر الروم مرتفعة على ربوة تُوجت بقلعة عظيمة، تتلألأ تحت نجوم ليل الأندلس. كانت أزقتها الضيقة تزحف كأفاع دقيقة متوسلة قمة الربوة، لتعانق بعد حين بستانا خَضِرا، وَشَّحت حشائشه القلعة الشلبية. جابت عائشة الدروب والأزقة عساها أن تجد نبراس نور أو نجما يُرشد مسيرها... لكن عقلها أبى إلا أن يفكر في شيء واحد...

خيانة مسلمة.

– 3 –

بعد أربعة أيام.

ترجَّلَتْ سارة من درج مطار محمد الخامس الدولي، ثم توجهتْ مع والديها إلى السيارة التي كانت تنتظرهم منذ أن سافروا بمرأب المطار... كان نعمان ونعيمة يسيران بخفة ترسم بريشة وقعها لوحة من الرضى التام عن الوجهة البرتغالية. أما سارة فقد تلاطمت بفكرها أمواج عاتية، عصفت بها ببحر لجي لا قرار له... مرت أربعة أيام على استحضار عائشة لخيانة مسلمة، لكن قلبها ما طاوعها وما أراد أن يستكين.

زجَّت سماعات أذن هاتفها بأذنيها ولمستْ زِرَّ التشغيل، ثم انطلق صوت المغنية الأمريكية «إيمي لي» يُداعب عصبوناتها السمعية. كانت مجموعتها الموسيقية «زوال» (Evanescence) ترسل كلمات أغنيتهم المشهورة «احملني إلى الحياة»(Bring me to life):

Wake me up, wake me up inside I can›t wake up,

أَيْقَظْنِي، مِنْ أَعْمَاقِي أَيْقَظْنِي، فَمَا أَسْتَطِيع الاسْتِيقَاظ

Wake me up inside, save me,

مِنْ أَعْمَاقِي أَيْقَظْنِي، أَنْقِذْنِي

Call my name and save me from the dark, wake me up

نَادِي اسْمِي وَأَنْقِذْنِي مِنَ الظَّلَام، أَيْقِظْنِي

Bid my blood to run, I can>t wake up

حَاوِل أَنْ تَجْعَل دَمِي يَجْرِي، فَأَنَا لَا أَسْتَطِيع الاسْتِيقَاظ

Before I come undone, save me

قَبْلَ أَنْ أَهْلَك، أَنْقِذْنِي

Save me from the nothing I>ve become

أَنْقِذْنِي مِنَ العَدَم الَّذِي أَصْبَحْتُه

Now that I know what I>m without

الآن وَبَعْدَمَا عَلِمْتُ كَمْ أَنَا مُحْتَاجَة

You can>t just leave me

لَا يُمْكِنُكَ تَرْكِي بِبَسَاطَة

Breathe into me and make me real, bring me to life

تَنَفَّسْ بِدَاخِلِي وَاجْعَلْنِي حُرَّة، احْمِلْنِي إِلَى الحَيَاة

حوار
– 1 –

الآن.

كانت الأيام الأولى بالسنة الحادية عشرة بعد الألفين قارسة، زادها إضراب الطلبة الأخير صقيعا وظُلمة... لكن دفئا خاصا بدأ يُرخي ظلالَه على المعهد الهندسي، وأزيزا مميزا أضحى يُسمع بداخلها، زادها حياة وطرد الملل الجاثم على أغلب الطلبة... فقد دَنَت الأيام الثقافية التي أعلن عليها مكتب الطلبة وباقي النوادي العلمية بالمؤسسة منذ شهرين. كان البرنامج يضم فعاليات ثقافية ولقاءات مفتوحة مع فاعلين مدنيين وثقافيين وسياسيين من مختلف المشارب والإيديولوجيات، إضافة إلى سهرات موسيقية وفقرات ترفيهية، على مدى ثلاثة أيام، تُختم بسهرة احتفالية بأحد فنادق الدار البيضاء الفارهة... كانت لجنة المسجد تشارك هي أيضا ببضع محاضرات ذات سِمة دعوية، ومسابقة للتجويد كانت معروفة النتائج مُسبقا!

كانت لجنة المسجد تضم أعضاء متبايني التوجه، بين صوفي جلد وسلفي متشدد وحركي متعصب، وبضع اعتدال انكشح بريقه وسط العتمة... لذلك تجد أن اللجنة قد انقسمتْ إلى ثلاثة أقسام، الأول صوفي أحيى حفلا في المديح على الطريقة الصوفية، والثاني سلفي تكلف برعاية محاضرة الشيخ عبد اللطيف العماري، وثالثهم الحركي فقد استقدم أحد

المفكرين الحركيين ذائعي الصيت... أما مسابقة التجويد فقد أوكلت المجموعات الثلاثة أمر التنشيط لشخص محايد، وهو حسن.

غصت المدرجات عن آخرها بمحاضرة المفكر الإسلامي، فقد اختار موضوع الحراك التونسي ودور الإنسان المسلم به... كان الاختيار متعمدا خاصة بعدما حملتْ له الرياحُ النقاشَ الحاد الذي شمل محاضرة الشيخ السلفي عبد اللطيف العماري، ونَعْت هذا الأخير للجُمُوع المتظاهرة بالخوارج، وإنكاره الشديد عليهم، ووصفهم بالمروق عن الحاكم وعن طاعته الواجبة شرعا، كما برَّرَ تدخل الشرطة العنيف والقاتل ببعض الأحيان، بأن الخوارج قد وَجَب ردعُهم ولو بقوة السلاح.

امتلأت القاعة وأَطَّ بلاطها من وقع الأقدام واشرأبت الآذان لتلقف الكلام. كان المفكر الحركي خطيبا مفوها ومُلقيا بارعا ومُجيدا لنسج تراكيب بسيطة المبنى عميقة المعنى، متمرسا باللغة العربية دون استعمال للمبهمات ونوادر الكلام. لا يكتفي بلغة الحرف فقط في محاضراته، بل يتعداها للغة غير كلامية... لغة الجسد... لقد ألقى محاضرته وهو يتحرك بين الصفوف، سائلا هذا ومشاركا آخر... يوجه نظراته بين أعين الحاضرين حتى كأنه يُخيل لك أنه لا يتكلم إلا معك... أضحى الكل مشدوها صامتا يرقبُ كل حرف سيخرج من فم الحركي، ويتحسس كل كلمة ستنبتُ من بين نواجده ويلقي بها لسانه، بل تظن عند رؤيتك للجمع أن أنفاسهم قد تناغمت مع أنفاسه، فيبتسمون عندما يبتسم، ويضطربون عندما يضطرب، كأنهم بحفلة مِيمِيَّة ضخمة يحاكي بها الحضور قسمات المُحاضر.

- أخواتي... إخواني... نشكر أستاذنا على هذا الطرح الماتع، إذ رمى سهمه بالقلوب فأصاب لُبَّها وأسال فهمها...

ثم عرض المنشط تلخيصا مقتضبا لأهم النقاط التي طرحها المفكر، وأضاف بعد ذلك:

- أمَّا الآن فنفتح باب الأسئلة، وسيتكلف الصديق بلمختار في تحرير الأسماء.

ثم بدأت الأيادي ترتفع تباعا قصد قنص مكان بلائحة المتدخلين... كانت سارة تجلس بالمقاعد الأمامية للجهة المُخَصَّصة للإناث، يضم كل صفٍّ بها خمسة كراسي... كانت هناك جالسة منذ البداية... بل قبل البداية... قبل أن يحضر المفكر والحاضرون كلهم.

- 2 -

قبل ساعتين.

دخلت سارة لقاعة المحاضرات وجلست بمقعد أمامي بالصف الأول الطويل الذي كان يضم أكثر من عشرة كراسي، ثم فتحت كتابا ضخما أصفر موسوما بـ: الكتاب الكبير حول التناسخ، كان العنوان يحتل الجزء العلوي من الصفحة الأولى، ومكتوبا باللغة الإنجليزية. تتبعت دليلا أزرق يُحدِّد لها موضع وقفها السالف بالقراءة، ثم بدأت مقلتاها تتبعان حروف الكتاب وأسطره... وما كادت تُنهي سطرا ثالثا حتى وقف أمامها خالد، زميلها بمجموعة الدروس التطبيقية، وأحد أعضاء لجنة المسجد الغير منتمين لأي تيار والمُعينين في تنظيم جميع الفعاليات... لم ترفع سارة عينيها في الشخص الرابض أمامها كأبي الهول يحرس هرم خوفو في تكبر... تجاهلته ولم تُلقي له بالا رغم أنفاسه الساخنة التي كادتْ أن تحرق خدودها الرقيقة... انتظر الوجدي بضع ثوان ثم بادرها الحديثَ قائلا:

– آنسة الصنباطي... معذرة فالأماكن الأمامية مخصصة للرجال... أما النساء فمكانهم المخصص يبدأ من ذاك الصف.

ثم أشار إلى أحد الصفوف المتأخرة... رفعت عينيها بتؤدة نحو خالد حتى لامست مقلتاها مقلتيه... ثم عرجت بهما متثاقلة نحو محل إشارته، ثم رجعتْ إلى وضعية قراءتها كأن قولا لم يُذكر... أطلقتْ ابتسامة ساخرة ماكرة... انتظرتْ قليلا ثمَّ ألقت كلامها بنبرة غير مكترثة:

– أنا سأجلس هنا.

ثم تابعتْ قراءتها لأسطر الكتاب... احتقن وجه خالد واعتَلَتْه حُمرة كادت أن تتفلتَ شرارتها نحو سارة... دافع الوَجْدِي هجوم لسانه الذي أضحى يتلوى كأفعى مُستعدة لشن أعتى كلمات السباب واللعن للخرقاء التي تجلس أمامه... خرقاء متعجرفة هكذا كان ومازال يراها.

بلع خالد أصفرَيْه، قلب قد عُقِلَتْ فرسه فما استطاع بلوغ حدوة الغضب... ولسان اعتقله خلف نواجده كي لا يرمي بشرره هنا وهناك... بلغ غيضه أطراف أضراسه فضغط عليها حتى سُمعت طرطقتها، ثم مصمص جدار فمه الداخلي ليفرز لعابا سرعان ما ابتلعه. أطلق شهيقا وزفيرا مُدَوٍّ ثم قال:

– الصنباطي... الله يرحم الوالدين... لا نريد مشاكل... يمكنك الجلوس هناك... فلا معنى لجلوسك بين الذكور.

– رَحِمَتْكَ أمنا الطبيعة صديقي... لا معنى لجلوس المرأة بالخلف بينما تجلسون أنتم أماما.

صمتتْ قليلا ثم أضافتْ:

- آه فهمت... أنتم تخشون الفتنة... قوم مكبوتون همكم في فروجكم.

كانت تغلب على أهل الشرق المغربي الحدة وسرعة الغضب... فرَبَتْ واشتدَّت هذه الشدة بعدما سقتها سارة بكلماتها الأخيرة، حتى حجبت عقل خالد ورمتْ به بيم الغضب. أراد أن يمسك نفسه لكن عقال الغضب قد انقطع، فأطلق لسانه يصول ويجول بين السباب واللعن. كان صراخه يملأ الأروقة المجاورة، مما دفع بعض أصدقائه وأعضاء لجنة المسجد للإسراع نحو القاعة، لقد ولج خالد منطقة الغضب مرة أخرى. ما إن خَشَّ القادمون حتى وجدوه يُرعد ويُزبد، يمشي يمنة ويسرة وقد بدا ودجه وانتفخت شرايينه، وارتقى زبد أبيض حدود شفاهه التي استحالة بيضاء لا حياة فيها... كان يرسل كلماته الصارخة التي لا تبين غير بضعة مصطلحات كـ: مشاكل؛ مصيبة؛ الكافرة؛ عدوة الله... أما سارة فكانت عيناها مثبتتين على صفحات الكتاب، غير مكترثة لصولات وجولات لسانه، لم تنظر إليه إلا كردة فعل أولى عند بدأه الصراخ، ثم تجاهلته بعدما زرعت كلمات مستفزة قليلة أخرى قصد إضرام نار أخرى بداخله.

اتجه عبد الجليل نحو صديقه وأحاطه بذراعيه بقوة وهو يرمي بشرر غاضب نحو سارة، ثم جرَّ خالد بقوة مُخرجا إياه من القاعة كي لا تتأزم الوضعية أكثر... اتجه أحد القادمين نحو سارة، لكنه وقف على بعد ثلاثة أمتار منها، ثم هاتفها بلين الحرف، مع ثقل ووزن ظاهر بنبرته:

- معذرة آنسة... هل هناك خطب ما؟

- خطب؟!... لا طبعا... اسألوا صديقكم فهو من ألقى ضراطه هنا وانسحب.

- أعتذر عما بدر منه... كما أعتذر عن ألفاظه نحوك... لا تنسَيْ أنه أحد زملائك بالأعمال التطبيقية.

رفعت سارة عينيها بتثاقل نحو محاورها الجديد... صندل بلاستيكي أزرق مُخطط بالأبيض، سروال قصير قد أبدى من تحته جوارب كستنائية حاكى لونها لون قميصه، وكوفية فلسطينية قد رُتبت بعناية حول عنقه وفوق كتفيه، متوسط الطول متوسط الضخامة، ذو أنف أخنس يرفع ذؤابته وسط وجهه المثلث الذي ضم لحية قليلة الشعر غير مهذبة قد فارقة الموسى ردها من الزمن، أو ربَّما لم يلمس ذقنه أداة حادَّة قطُّ...

ستكذبُ سارة إن قالت إنها لم ترتح لنبرة صوته، ربما هي هالة قد أرسلتها روحه، فالأخنس يمتاز عُموماً بروح مرحة محبوبة تبعث الطمأنينة بنفوس مُحدثيه.

- هل يُمكنني الجلوس؟

ألقى مراد بطلبه لتومئ له سارة برأسها إيجاباً... اتجه إلى كرسي يبعد عن مكانها بمقعدين... ثم قال متابعا حديثه:

- أنا مراد أحد زملائك بالقسم...
- نعم أعرف...
- هلا حدثتني عن مشكلتك مع خالد؟... معذرة... مشكلة خالد معك؟

كانت هيئته سلفية رجعية ظلامية كما تراها سارة، إذ اجتمع اللباس القصير، واللحية المهملة المعفية بعشوائية، مما يُحيل على توجهه الإيديولوجي، غَيْرَ كوفيةٍ قد أقْحِمتْ كنشاز أخلَّ بمقام غنائي... أقفلتْ سارة الكتاب ثم عرجت ببصرها نحو مراد. وضعت رجلا فوق أخرى، ثم قالت بعصبية مكتومة:

- لقد جاءني صديقك ذاك يأمرني بترك مكاني هذا والالتحاق بالصفوف الخلفية... ذاك المعتوه يدعي أن الصفوف الأمامية مخصصة للذكور... ذاك المتخلف يحتقر المرأة، لكن لن أنصاع لغروره الذكوري.

لم يقاطعها مراد، وترك سارة تُنفس عن غضبها الذي ألجمته سالفا... أكملتْ كلامها ونَفَّست عن غضبها حتى أن صوتها كان يبلغ الأروقة... لم يُجب مراد عن انفعالاتها ولم يُعقب على لمزها لمجموع الملتزمين أو من يُظهرون غرز النبي ﷺ، بل قفز على كل هذا وقال لها في تؤدة لسان وسداد نُهى وحصافة:

- إذن ماذا تقترحين؟

- أن يدع كل شخص وشأنه!

- وإن قلتُ لك أن الفصل بين الجنسين هو العرف المتداول بمثل هذه المحاضرات؟... فاللجنة التنظيمية قد اتفقتْ على...

- لكن...؟!

قاطعت سارة مراد...

لكن لم يدعها تأخذ بزمام الحديث، فأكمل:

- لا تنسي أن المحاضرة مُنَظَّمة من لجنة المسجد، وهي تُسَيَّر وفق قوانينها الخاصة، وكل من يريد الحضور وفق الإطار المتفق عليه فَنِعْمَ أهلا وسهلا... يمكنك أن تُسَمِّيه بروتوكولا مُصاغا لمثل هذه اللقاءات.

- لكنها رجعية... تخلف... وهضم حقوقي.

- ربما؟!... كلامك يحتمل الصواب وفق توجهك... وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا... لذلك لدي اقتراح.

خالجت سارة خاطرة مظلمة اتجاه هذا السلفي الذي يُبدي الوداعة ورجاحة العقل، فرغم ما أحسته براحة معه إلا أنها تحسست كهرباء صاعقة سيقذف بها لا محالة نحوها، كأنقليس مجنون يتحسس صعق كل من صادفه... وكل الأنقليس يَصْعق...

تابع مراد حديثه قائلا:

- سأقترح على اللجنة المنظمة أن تُقسم الصفوف إلى جهتين عموديتين، يضم كل عمود مجموعة من الصفوف التي تضم بدورها خمسة أو ستة كراسي، عمودين متوازيين، يمينهما للإناث ويسارهما للذكور.

ثم أضاف مبتسما:

- ما رأيك في هذا؟

لم تُجب سارة... اعتدلت بجلستها ثم نهضتْ من مقعدها، خطتْ بضع خطوات اتجاه الباب الخشبي الضخم للقاعة، وما كادت تجاوز مراد، الذي ظل جالسا بمكانه، حتى وقفتْ، وقالتْ له دون أن تنظر اتجاهه:

- احجز لي مكانا بالمقاعد الأمامية... سأرجع بعد قليل.

ثم حركتْ جسمها كي تُكمل مسير خطواتها، وهي تهمس في صوت مسموع نافذ، كان سهما ناريا انغرس طرفه بقلب مراد:

- المرة القادمة، أُحِبُّ أن تحدثني وأنت تنظر إلي... وشكرا لحديثك اللطيف.

ثم زاحمتْ وجنتيها ابتسامةٌ خافتة، لترسل نفحاتها نحو مراد وتمتزج دماؤه بزفرات حارقة سرعان ما زعزعت قلبه ووسمت فؤاده بنيران العشق...

ثم أطلق بدوره ابتسامة خافتة لكنها تحمل بين أكنافها جبالا من الوله!

الآن.

أمسكتْ سارة اللاقط ثم قالت موجهة حديثها إلى المحاضر، المفكر الإسلامي والحركي المعروف الذي كان يلتحف جلبابا أحمر قانيا يُظهر من فتحة جَيْبِه جابادورا أبيض منمقا ومطرزا بنفس اللون، وقد وضع على أعلى رأسه طربوشا مغربيا بنفس لون الجلباب:

– أستاذي المحترم تحياتي... لدي تعقيب بسيط حول طرحك، والبناء الفكري الذي حاولتَ أن تُصيغ الحراك العربي وخاصة التونسي وفق قواعده، بل وتنسب إليه سبب التحرك والمظاهرات القائمة ضد الظلم... أولا أحيطك علما أن الشرارة الأولى كانت من طرف البوعزيزي الذي أضرم النار بنفسه وانتحر، والإيديولوجية المحمدية تمنع ذلك بل تدعي أن المنتحر سيلج النار خالدا مخلدا فيها، فلا داعي للمراوغة ومحاولة إرجاع أسباب الثورة إلى إرادة الشعب التونسي المُتبني للإسلام، كما تدَّعي، وأنهم يتحسسون عدله بعدما تجرعوا الظلم... بل إن تحسستم، سيادتكم، خطاب التيارات الأخرى لوجدتَهم أيضا يبنون صروحا متخبطة من الأوهام في أن الشعوب معهم وتساندهم. إن شعوبنا العربية خاصة والشرقية عامة ما فتئتْ تستخدم الدين لأغراضها السياسية، فمنذ ظهور أول دولة عربية منظمة الدواوين ظهرتْ معها حركات معارضة لسلطتها السياسية منازعة لها على العرش، فالدولة الأموية عاشتْ صراعات مستمرة، فما وجدتْ في تهميد الثورات وكسب الشعوب إلا أن تلبس عمامة الدين، التي لبسها أيضا المعارضون ممن أقاموا دولا بعد ذلك كبني العباس والفاطميين

وغيرهم. كلهم تكلموا باسم الدين وخدَّروا مُواليهم بنسبهم الشريف كما زعموا... ثم توالى هذا العته والتيه إلى أن وضع أوتاده بيننا، ليستغله كل عدو وصولا إلى الأمريكان الذين دفعوا رجال الدين إلى تهييج الشعوب العربية ضد الإصلاح الشيوعي مثلا... فما نُكِسَتْ راية الشيوعية إلا لأن العرب اختاروا الانصياع للذئب الغربي الإمبريالي المتربص...

- معذرة أختي فالوقت...

أراد المنشط أن يقاطع سارة التي استرسلتْ بكلماتها رغم محاولة اللجنة في زَمِّ حديثها:

- لقد أقامت حكومة أفغانستان سابقا نظاما شيوعيا رزين الأركان صافي الطريق، لكن الأمريكان لم يتوانوا حتى دفعوا بالجهاد الإسلامي كي يحارب بالنيابة عنهم... وفي إيران وحكومة الشاه مثال آخر...

توجه المنشط نحو سارة كي يسحب منها اللاقط بدعوى مجاوزتها للوقت المحدد بكثير، لكن المحاضر أشار له بيده كي يتركها.

- بنظري يجب على العرب أن يبنوا عقلهم دون الرجوع إلى تراث بال... وأن يُقيموا دولا على أساس حرية المعتقد، وأن تُنشَّأ المجتمعات على كونية القيم والمبادئ والأخلاق، أما السياسة فالواجب تركها إلى الأحزاب كي تقيم قلعة الديموقراطية وفق قواعد حداثية متينة.

أكملتْ سارة كلماتها... وضعت اللاقط على منصة التدخلات وعادتْ إلى مكانها دون الْتفاتةٍ أو نظرة إلى الوراء... كان المحاضر يأخذ نقاط مداخلتها الأساسية على مذكرته، بينما حمل المنشط اللاقط ولفظ اسم متدخل آخر.

– لقد زاد سُعارها عندما أَذْعَنَّا لطلبها... كل هذا بسبب ذاك المبتدع مراد.

أسر عبد الجليل إلى خالد. كانا واقفين بجانب باب القاعة، يرميان بسهام الغضب نحو سارة ومراد، كل منهما قد أخذ نصيبه من هالة الغضب المنبعثة من عيني الطالبين.

– عبد الجليل يرميك بنظراته المخيفة...

ضحك حسن وهو يحادث مراد في همس... ثم أضاف:

– ربما يقول إنك السبب في جرأتها... خاصة أنها أطلقت رصاص كلماتها نحوكم.

لم يُجب مراد... كان يفكر في هذا التغير الصارخ في شخصيتها... حدث نفسه أنها أضحتْ شخصا مسؤولا... فرغم ميولاتها اليسارية البادية بكلامها إلا أن مراد لمس أنها أضحتْ بابا مفتوحا ينهل من معين المعرفة وينبوعها السخي... تحسس ذلك بحواره السالف معها، بمداخلتها بجمع الطلبة العام وها هي الآن تؤكد نضجها الفكري... حدث صديقه حسن قائلا:

– لقد أضحتْ بابا مفتوحة... لقد بدأت تقرأ وتفكر فيما تقرأ... ذاك كافٍ بالنسبة لي.

نهض من مكانه متوجها إلى خارج القاعة وهو يتلقى صنوف السب واللعن الصامت من عبد جليل... لكنه كان يفكر في شيء آخر... يفكر أن أي شخص يبحث عن الحقيقة بتجرد، ويتحسس طريق الخلاص، فسيهديه رب العزة إلى مبتغاه... كان يبتسم... فقد خالج نفسه قُرب وصولها للحق ولو كان صِرَاطُها محفوفا بالشبهات القاصمة....

تقلد مراد درج الداخلية، ولج غرفته ثم بدأ في مراجعته لصيغة بحثه النهائية حول الأعمدة المعدنية قبل موعد تقديمه... كان يُقلب الصفحات الإلكترونية ويفكر في سارة تارة وفي الحركات الإسلامية تارة أخرى...

لقد قرر بعد المحاضرة شيئا...

قرر أن يزور مقر الحركة الإسلامية بمنطقتهم...

بل عزَمَ على تحسسُ خطِّ الثورة عند الحركة.

كلمة سواء

– 1 –

تحرك بخطوات متثاقلة نحو مقر حركة النهج والإصلاح المغربية، كان يخيط أزقة قرية الجماعة، اجتاز شارع الحارثي أو الشجر كما يحلو للبيضاويين أن يطلقوا عليه، اتجه نحو حي جميلة أربعة، فهناك يوجد مقر الحركة. ولج إلى الزقاق المنشود، ثم بدأ يقلِّب مقلتيه بين المنازل إلى أن وقعتْ على لافتة زرقاء ضخمة قد كُتِب على طرفها الأيمن بخط رباطي أبيض بديع حزب الوحدة الحُرَّة المغربي، ليُتبع باسم الحزب باللغة الأمازيغية. أما سطراها الباقيان فهما يُعرفان على التوالي باسم حركته والتي تشكل الذراع الدعوي للحزب الإسلامي، واسم ذراعه النقابي: الاتحاد المغربي للشغل الوطني.

كان مراد لا يعتبر الجناح السياسي للحركة حزبا إسلاميا، بل لم يعترف قط أنهم ذوو مرجعية إسلامية... فهو مازال يتذكر أن أمين حزبهم صَرَّحَ قبل سنوات أنه لا حرج في تحالفه مع أحزاب اليسار الراديكالي إن هي أرادتْ ذلك، فالتحالف الحكومي مُتاح لكل من أراد خدمة الوطن... كان الحزب المحافظ قد أنهكته المعارضة وأراد أن يلمس المقاعد الحكومية، وأن يُعاقر خمرها وعُسيلتها... تلك المستنقعات السياسية، والميكافيلية الحمقاء. كان الحزب مؤخرا قد بدأ في رسم خُطَطه الانتخابية مع قرب

موعد الانتخابات الحكومية، كان يهدف لانتزاع المرتبة الأولى التي تخول له تشكيل الحكومة واقتراح رئيسا لها. كان الحزب يعلم أنهم لا يُشكلون أغلبية ساحقة، وأنهم سيضطرون إلى تشكيلٍ هجين، يتشكل من أطراف متباينة، كانت الإشاعات تقول إن الحزب الإسلامي سيتحالف مع الأحزاب المحافظة اليمينية، فهي أقرب التيارات فكرا له، غير أن إشاعةً عن تحالفه مع أعداء الامس، حزب اليسار الشعبي، قد وجدتْ مكانا بأعمدة الجرائد والمجلات.

لم يتوقع مراد أن تحمله أفكاره نحو مقر هذا الحزب، خاصة أنه كان شديد الانتقاد لهم ولمنهجيتهم الضبابية كما كان يزعم، كما أنه قد اعتزل السياسة منذ زمن، بل ما أدلى بصوته بالانتخابات السالفة. تذكَّر أن نقاشا قد نبتَ بينه وبين سمير، الطالب المُنتمي لجمعية السنة النبوية المشهورة، والتي تُحكم سيطرتها على دور القرآن بالمغرب. كان ذلك قبل شهر، قبل قيام الثورة التونسية، عندما عَلَّق أنه لا يُصوت ولا يوافق على الطريقة الانتخابية الحالية ولا الأحزاب التي تخوضها.

– 2 –

– أخي الواجب الشرعي يُحَتِّم عليك التصويت.

قال سمير موجها كلامه لمراد... كان سمير أحد كوادر الجمعية، وعضوا فعالا بإحدى تنسيقيَّاتها، لا تكل عزيمته عن القيام بالأعمال الاجتماعية الملحقة بالجمعية، حتى أن صيته قد بلغ الآفاق، خاصة ما قامت به الجمعية من خدمات لسكان المناطق الجبلية المنكوبة، وقيام تنسيقيته بالمشاركة بعدة حملات إغاثية خارج البلاد، حتَّى أن الكثير

أضحى يُطلق على سلفية الجمعية بالسلفية الحركية، عوض وسم السلفية التقليدية. حدَّثَ مراد صديقه حسن قبل مدة عن رأيه الصريح بسمير، قال له إن الأخير لا يحمل أي صفة لطالب علم شرعي حقيقي، وما يفقه إلا نقلا جامدا لآراء فقهية حجازية، يدور معها أينما دارتْ، ذكَّره أن سمير كان ينبذ العمل الانتخابي، لكن مع الفتوى الأخيرة لأحد شيوخ الجمعية في وجوب المشاركة الانتخابية، بات منافحا مدافعا شرسا عنها، قال له مراد إن تفوق سمير الجمعوي قاده بوعي أو دونه إلى تقلد الطلبية ولبس عباءة طالب العلم، حتى أنه أضحى يقارع بعض آراء العلماء بلا علم ولا دراية سوى الجعجعة الفارغة المُنمقة ببعض عبارات أهل العلم والأحاديث التي لا يضعها غالبا بمحلها، فيفرض فرضا فَهْمَه، فهما واحدا كأن الحقيقة جُمعتْ ووُضعتْ بين كفيه.

- أيُّ فتوى هذه؟... ألم تكن تبغض سابقا العمل السياسي؟!

أجاب مراد مستنكرا.

- لكل مرحلة فتواها... وهذه المرحلة تستوجب منا المشاركة.

- لكن ما هو طابع هذه المرحة؟... فالأجواء كسابقتها لم تشهد أي تغيير... أو أن كوادركم قد نسقوا مع مسؤولي حزب ما ووعدوهم أن يمنحوهم صوتهم مقابل تيسير عمل دوركم ومقرَّاتكم!

احتقن وجه سمير، وقطب حاجبيه، ثم نهض وخرج من غرفة مراد دون أن يُضيف شيئا؟... كان هذا سببا إضافيا في ابتعاد أغلب السلفيين عن مراد وهجره.

- 3 -

وقف مراد أمام المقر ذي الطوابق الثلاث، ثم ولجه بخطوات متسارعة كأنه يدفع نفسه غصبا إلى داخله، فقد تثنيه نفسه بآخر لحظة عن ولوجه. بعد بضع خطوات داخل باحة استقبال متوسطة الحجم، وجد نفسه أمام مكتب دائري مرتفع تتوسطه شابة لا تتجاوز الثلاثين بعمرها، كانت تضع على رأسها طرحة مزركشة ملفوفة بعشوائية تتوافق مع عشوائية ملامحها وعشوائية مساحيق التجميل التي تضعها والتي لم تستطع مواربة قسماتها الذميمة.

- السلام عليكم.

بادرها مراد بالتحية. رفعتْ رأسها من أمام شاشة هاتفها الذكي الذي أعيته نقرا بأصبعها القاسي ظُفْره... كانت حركتها ترسل معها روائح المساحيق والعطور التي تضعها، كأنها تقوم بالترويج لمحل تجميل، قد وضعت بنفسها عيِّنات من كل نوع به، مساحيقٌ على وجهها وعطورٌ بين ثنايا ملابسها. كان هذا كافيا، عادة، لصد مراد عن الانتساب إلى حركة أو تنظيم ما، لكنه تحامل على نفسه ورمى بسهام بصره نحو المكتب عوض اللوحة التشكيلية التي صنعتها عاملة الاستقبال بوجهها... كانت آنذاك تُخالج نفسه خاطرة ماكرة، كان يحدث نفسه أن ذمامتها لن تفرق شيئا، فغض بصره ورؤيتها سواء... لكنه احتراما لها سيغض بصره!

- أهلا.

أجابته وقد رسمت على شفتيها ابتسامة صفراء متصنَّعة... أو ربما ضخامة شفتيها توهمان الرائي أنها تبتسم، خاصة أن وجنتيها النحيلتين بارزتان.

- أريد أن أقابل أحد مسؤولي الحركة.
- مرحبا.

وقفت من وراء مكتب الاستقبالات الأبيض، ثم انخرطت في البحث عن شيء ما بين أكوم الأوراق المتناثرة... وأضافت بعدما دفعتْ بورقة وقلم نحو مراد:

- لماذا؟

أمسك مراد الورقة وأخذ يملأ خانات فارغة حول اسمه وبعض المعلومات عنه وعن مستواه الدراسي. كانت ترمق السلفي الواقف أمامها. ماذا جاء به عندنا، هذا ما كانت تحدث به نفسها. كان لباسه القصير الذي يبلغ نصف ساقه وقلنسوته الماليزية تدُلُّ على انتمائه... سلفي... غير كوفية يضعها حول عنقه تشوِّه الانتماء... كنغمة ساقطة بلحن متكامل. كانت ليلى موظفة الاستقبال تستفهم عن سبب مجيئه ومقصده، خاصة أنه أجابها أنه يريد الانضمام للحركة إلا أنه يحمل عدة أسئلة يريد أن يأخذ إجابة عنها... هم جماعة معتدلة، ولا تضم بين أطيافها سلفيين تقليديين... أما مراد فقد كان يسأل نفسه عن اعتدال يدعونه وسط بهرجة لمساحيق التجميل!

ظلت ليلى ترمق السلفي وهو منحني على الورقة يملأ استمارة تعريفية به. كانت ترسل نظراتها المتعجبة المختلطة بقلق متسائل!... فهي على كل حال لا تستقبل كل يوم شخصا يريد الانتماء للحركة، هكذا وبلا مقدمات، بل ولم يُشَاهَد قبلا ضمن المتضامنين أو المتعاطفين... بل لم يُحَدِّد باستمارته أي اسم لعضو حركي يعرفه وقابله قبل هذا!... كان عملها الروتيني يتمثل في استقبال الجرائد والمجلات المختلفة المشارب، وتتبع

جدولة مختلف الفعاليات والمهرجانات الحركية قصد إرسالها للمختص بإعداد الملصقات الدعائية... لكن أن تستقبل شخصا يريد الانخراط ويحمل بجعبته أسئلة يتحسس الإجابة عنها فذاك ما لم تقم به أبدا... لا يوجد اليوم شخص بالمقر، فالواجب إذن أن تسمع له وتُجيبه عما يسأل!... لكن المشكل الأكبر لديها أنه سلفي... وستعاني معه!

طلبت من مراد الجلوس، لعلها تربح بعض الوقت... لكن ما إن عرج مراد بجذعه يتوسل مقعدا، حتى أطلقت ابتسامة صادقة من فمها... كانت ابتسامة فرج أغمضت على إثرها عينيها الجاحظتين... لقد أتى الفرج... كانت تتتبع الشخص الداخل من مدخل المقر، نظرتْ ليلى اتجاه الفتاة العشرينية وقالت:

- زارتنا البركة... أختي صفاء، إن هذا الشخص يريد أن يستعلم حول الحركة... كما إنه يريد الانضمام أيضا.

وجَّهت صفاء بصرها نحو مراد الذي جلس على مقعد غير بعيد، ألقتْ سلاما مقتضبا عليه، ثم أمسكتْ بورقة بياناته التي أعطتها ليلى. كانت صفاء من الأعضاء الأكثر حركية ونشاطا، كما أنها من الوجوه المألوفة والمعروفة بالشبيبة الحركية والحزبية أيضا. كانت مؤلفاتها الشعرية قد بلغت ثلاثة دواوين، فأخذت زخما بين أقرانها الحركيين، وأضحتْ شعلة معروفة الضياء وسط الحركة والحزب. كما أضاف لها تخصصها بالعلوم السياسية بجامعة الحسن الثاني، وعمودها الدائم بجريدة الحزب، رفعة واحتراما أكثر.

أرجعت الورقة لليلى التي جلست وأرسلت يدها لتلقف الهاتف، عذاب جديد تحت وقع الانامل، ثم اتجهتْ نحو مراد:

- مرحبا سي الحبابي.

أحس مراد بعبق عطرها الطيب يداعب جيوب أنفه الشمية، ويرسم بهاء أنوثتها بقلبه. اسْتَغْفَرَ الله ثلاثا دون صوت ثم قال:

- مرحبا.
- صفاء الباكروري... رئيسة الشبيبة الحركية فرع سيدي عثمان.
- مشرفين... مراد... مراد حبابي.

تمتم مراد بصوت يكاد أن يكون مسموعا، كان يقول بنفسه أي عطور هذه التي تضعها عضوات الحركة... قام من على كرسيه وهو يحاول كف بصره عن النظر في عيني صفاء. لقد ألقى بصره نحوها عند تحيته الأولى، كانت مليحة بهية، تضع طرحة خضراء منمقة بصور زهور وورود تتفاوت نصاعتها، وملفوفة على الطريقة التركية، تظهر بضع خصلات عسلية على جانبي شحمتي أذنيها ترنو إلى الحُمرة، خاصة بالظل... وقميص أخضر خفيف الثوب، ذو كم طويل حاذى أطراف أصابعها، مفتوح الوسط، يُظهر قميصا أبيض صفيقا يَضُمَّ أزهارا خضراء ورمادية وسمراء فاتحة، تنكشح أطرافه أمام تنورة مُوَرَّدة ذات طبقات متموجة، تنتهي بحذاء أبيض، ناغم لونه لون الحقيبة اليدوية التي كانت تحملها.

كانت تتلألأ كزمردة لُفَّت في ثوب صفيق. كانت الألوان الخضراء قد زادت اخضرار مقلتيها بريقا يعمي الأفئدة فضلا عن الأعين، غير أن نظراتها الحالمة كانت تُظهر حزما وشدة يُخالج كل من يراهما.

- فضلا، تعال معي.

تقدمته صفاء مرسلة كمية أخرى من عبقها العَطِر، كان تحركها كافيا

لتملأ المكان برائحة عطرها... عطر بارد، لا يزكم بل يداعب الأنف، لترسل باحة الشم الدماغية سمفونية غَنَّاء عوض تعريف مقتضب للرائحة!

كانت صفاء أنيقة في كل شيء، في مشيتها التي تُناغم وقع فرسٍ عربية أصيلة، مسحة التكبر الجميلة التي يتحدث بها وقع حذائها ذي الكعب العالي، وثقتها التي ترسل حقلا مغناطيسيا تُزلزل قلب مرافقها، هالة أضحتْ ترسل بريقها بعين كل ناظر متفحص. اقتربتْ من باب من الألمنيوم المغطى بطبقة صبغية بيضاء، ثم أشارت لمراد بالولوج لقاعة الاجتماعات المُخصصة للشبيبة الحزبية، اتجه نحو كرسي محاذ لطاولة دائرية متوسطة الضخامة وجلس، أما صفاء فاتجهتْ إلى مُدرَّج خشبي، أخذت منه أوراقا بيضاء معدودة ثم جلستْ مقابلة له، أخذت قلما بنفسجيًّا من حقيبتها ثم قالت:

- مرحبا بك أخي بمقر الحركة... أنا رهن إشارتك.

- حضرتُ محاضرة للأستاذ زيد الطَّالب، وبعد سماعه اهتممتُ بحركتكم.

أجاب مراد بتردد واضح... لم يكن مطمئنا لحديثه معها...

أرادت صفاء أن تقذف بعض الثقة بالهواء المحيط بهما، فقالت:

- الأستاذ مفكر مشهود له وعضو برابطة العالم الإسلامي، كما أنه عضو مُسَيِّر بالحركة، ونائب برلماني بحزبنا.

- نعم أعلم.

- عن أي موضوع كانت المحاضرة؟

- الحراك التونسي، وموقع الشاب المسلم منه وفيه.

قَطَّبَتْ صفاء حاجبيها قليلا عند سماعها لموضوع المحاضرة. كانت تعلم أن المفكر الطَّالبْ قد حاد بهذا الموضوع عما اتفق عليه مجلس أمناء الحركة، والمكتب المُسَيِّر للحزب، فقد اختار المفكر المساهمة الفاعلة بالحراك، وأن ينزل التيار الإسلامي بكل ثقله بالمظاهرات، موازاة مع بيانات شجب وتنديد بالأوضاع الاجتماعية، كما أن المفكر كان يدعو لتنظيم وقفات تضامنية مع الشعب التونسي أمام السفارة التونسية والبرلمان المغربي باسم الحزب والحركة، لكن كوادر الحزب رفضوا، كانوا يتوسمون الظفر بالانتخابات المقبلة، فقرروا الاكتفاء بدعم معنوي لتونس، مع عدم القيام بأي مسيرة أو تنديد هنا بالمغرب، كانوا يحتجون بتوسل تحقيق الأمن، خاصة أن حراكا بدأ يُرسل أريجه في دول أخرى كمصر وليبيا واليمن والجزائر. كانوا يقولون إن أي حراك ولو مؤطر يمكنه أن يُشعل نارا لا تنطفئ، وكان غالب حديثهم عن الاستثناء المغربي. أما مراد فقد بدا مترددا بحديثه، كان يرى صفاء شابة تقاربه العُمر، فكيف لها أن تُشبع عطشه الفكري وهي لم تضرب برجلها بعد بدروب الحركة وكواليسها كي تجيبه أجوبة شافية كافية، كان يتوقع أن يُحَدِّث أحد كوادر الحركة.

فَطِنتْ صفاء لما خالج فِكر مراد وما خاطه خياله بإبرة الشك على رُقعة التردد، كما أن قرع نعله الرتيب والعصبي على الزليج الأبيض يُحيل على أرضة بدأتْ تدِبُّ بحباله العصبية:

- أراك مترددا بحديثك معي... ربما لا تثق بي؟!
- لا... آسف... لكن...؟

حاول مراد أن ينفي لكنها تابعت بكل فخر وكبرياء:

- أظُنَّك لم تحضر قبلا لأي لقاء أو فعالية تنظمها الحركة، لذلك لم تعرفني... أنا صفاء الباكروري كما أسلفت... مستشارة جماعية بجماعتنا هذه، ورئيسة شبيبة الحركة فرع سيدي عثمان، وعضو بالحزب... كما أني شاعرة، فقد نُشر لي إلى حد الآن ثلاثة دواوين... طالبة باحثة بسلك الماجستير علوم سياسية، كما أني المسؤولة عن الإعلام والتواصل بهذا المقر المُشترك... يُمكنك ان تسأل ما تريد، فسأكون خير مُجيب.

خَجِل مراد بعض الشيء، لكنه ارتاح نسبيا غير أن جلوسه بهذا القاعة لوحدهما كان يُضايقه ولم يستسغه!

حدَّثها أن لديه استفهامات حول منهجهم بالحزب والحركة، وعن تداخل الحركة مع الحزب ومدى تأثير كل واحد على الآخر... كتبتْ صفاء شيئا بورقتها العذراء، ثم أجابت:

- نحن نتبنى مبدأ الفصل بين ما هو سياسي وما هو دعوي.

- إذن فالحزب علماني. وليس كما تروجون حول مرجعيته الإسلامية.

قالت صفاء في هدوء دون تشنج:

- مرجعيتنا هي مرجعية المملكة المغربية... إسلامية ديموقراطية.

ابتسم مراد، فقد تحسس ذكاءها، لكنه لم يبتلع الجواب، قال وهو يبتسم في مكر:

- معذرة لم آت هنا لأسمع لغة خشبية... أريد توضيحا أكثر!

- نحن حزب محافظ، نسعى لتمتين أعرافنا وتقاليدنا، مع الانفتاح على الحداثة وترسيخ النظام الديموقراطي.

- الأعراف والتقاليد؟... معذرة لم أفهم... فحتى التيارات السياسية الأخرى تسعى للجمع بين التقاليد والحداثة.

- نحن أقرب للشارع المغربي، ونفهم النفسية العامة لمجتمعنا... لدينا أساتذة متخصصون بالاجتماع والسياسة وغيرها... لدينا برنامج رزين وأهداف متينة... كما أننا الأقرب إلى حيازة مقعد رئاسة الحكومة من غيرنا.

- والحركة؟!... ما موقعها من كل هذا؟!

- للحركة أهداف دعوية ولا يجب أن نخلط بينها وبين السياسة!

- تريدين القول... الفصل بين السياسة والأخلاق.

كانت جملة مراد الأخيرة تحمل ثقلا استهزائيا لمبدأ الفصل التي كانت تتكلم عليه صفاء.

- عَمَلُنا السياسي أخلاقي سيد حبابي.

أجابتْ صفاء بكل حزم، لكن مراد كان يعلم أن المستنقع السياسي لن يدع حزبا نظيفا على العموم، ولا بد أن يُدنَّس ولو جزئيا!... علم أنه لن ينتزع مأربه، فأراد تلطيف الجو الذي بدأتْ شحناته تتعالى:

- آسف إن أخطأتُ التعبير.

- لا ضير أنا هنا لمساعدتك.

- ما موقف الحركة من الحراك التونسي؟

- موقفنا مُعلن بشكل رسمي... يُمكنك مراجعته بموقع الحزب.

- أنا أتكلم عن الحركة... لقد راجعتُ موقعها الإلكتروني، ومنتدياتها الرسمية لكن لم أجد شيئا.

- الحركة تابعة للحزب في موقفه من المظاهرات التونسية.

كانت ابتسامة مراد هذه المرة أظهر... رفع عينيه حتى لامس مقلتيها وقال:

- ألم تقولي إنكم تعتمدون مبدأ الفصل بين الدعوي والسياسي؟
- تكلمتُ آنذاك عما هو سياسي بحت.

أرادتْ صفاء الاستدراك، لكن مراد قاطعها قائلا:

- فما هو موقفكم من الحراك التونسي؟
- نحن ندعم اختيارات الشعوب.
- حتى ولو خالفتْ الشريعة؟
- الشعوب ستختار دائما الدين.
- وهل ستضعون الدين محل اختبار أمام إرادة الشعوب؟
- قلتُ لك إننا نعلم الاختيار مسبقا!

كان كلام صفاء عن الحزب والحركة مغايرا لما طرحه المفكر زيد، قال مراد وهو يُصيغ آخر استفساراته:

- هل موقف الدكتور زيد مخالف لتوجه الحركة؟
- نحن ديموقراطيون داخل حزبنا وحركتنا... الفرد ملزم باختيارات الجماعة لكن له أن يُصرِّح برأيه الشخصي حيثما يريد.
- نعم فهمت... سأغادر الآن.
- أتمنى أنني أجبتُ عن تساؤلاتك؟
- نعم... شكرا.

قام مراد متوجها نحو باب القاعة، تبعته صفاء، وعند خروجه من الباب الألمنيومي خاطبته قائلة:

- سيد حبابي... أنت مرحبٌ بك بأي وقت بالحركة... هناك سلفيون كثيرون هنا، بل منهم من يتقلد مناصب مهمة.

أومأ مراد لها برأسه وبابتسامة خافتة... ثم أضافت:

- ننتظر انضمامك.

ثم مدَّتْ يدها كي تصافحه... وجه نظره نحو الكف الأبيض الممدود نحوه، ثم عرج به نحو صفاء... ابتسم حتى بدَتْ أسنانه وقال:

- أعتقد أنكم حركة إسلامية؟

فَهِمَتْ مَقْصَدَه، فهو سلفي، والسلفيون لا يصافحون النساء!...

ابتسمتْ ولملمتْ كفها قائلة:

- معذرة نسيتُ أنكم لا تسلمون... أتعلم؟، يجب أن تُغيِّروا زاوية نظركم... فأنتم لا ترون إلا من جهة واحدة.

- بل لا أصافح... ثم لا أعلم من تقصدين بأنتم... أعانكم الله.

أكمل مراد مسيره إلى أن خرج من المقر. كان يعرف أن أغلب الحركيين كأغلب السلفيين، لا يتقبلون الحوار أو النقد... تذكر كيف عانى أحد علماء الشريعة المنتمين لهم، عندما ألف كتابا في نقد تصحيحي للحركة، كان يهدف الإصلاح فما وجد إلا الهجوم من إخوان الأمس، حتى أنهم خَوَّنوه واتهموه بالعمالة للمخزن... آنذاك كانوا بالمعارضة السياسية، أما الآن فقد ارتموا بأحضان المخزن طمعا في الفوز بالاستئزار!... كما تذكر كيف وجد بكتاب أحد كوادرهم أن المقصر الثياب المُعفي للحيته هو غالٍ في دينه!... لقد غالى الكاتب بدوره عندما تعنت لرأيه الفقهي... هم والسلفيون سواء، يرون من زاوية ضيقة ويدعون أنهم أحاطوا بكل

شيء علما، بل ويتهمون الآخر بالقصور الفقهي!... تداعتْ على دماغه مواقف عديدة... حواره مع بعض أعضاء الجماعة المحضورة ذات التوجه الصوفي، ومع السلفيين بمختلف تياراتهم والحركيين وغيرهم... كان الكل ينسف قول المخالف ولا يستسيغه، فتتراوح الأصابع المشيرة له بين رامٍ ببدعة أو زندقة أو تشدد... كل بما لديه فرح مسرور، ديدنهم إني لا أريكم إلا ما أرى!

أرسل زفرة حارقة على واقع التيارات الإسلامية المؤلم... ردَّدَ الآية الكريمة بصوت مسموع مرتفع كأنه يريد تذكير من حوله بها:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

بغرفته الضيقة بالمنزل كان يكتب شيئا على حاسوبه الشخصي.

- 4 -

كلمة سواء (مقال)

إن كانت الدعوة موجهة إلى أهل الكتاب، فهي موجهة لكل من جرى مجراهم وسار على غرزهم في «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ "، وهذا للأسف حال أمة الإسلام من تشرذم وتمزق، بل ما يُدمي القلب هو أن التفرق قد شمل الجماعات والتيارات الإسلامية التي تقتسم هَم صلاح وإصلاح الأمة بل وطلب السبل إلى رفعتها!

فكانت هاته التيارات أحوج أكثر من غيرها إلى الأخذ بقوة بآية الدعوة إلى الكلمة السواء، فإن كان الهدف من هاته الأيام المعدودات

التي لنا بالحياة الدنيا هو العبادة ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ فلم الاختلاف والتناحر في أمر مجمع حوله؟ إذ لا يختلف اثنان في أن الجماعات الإسلامية عامة لها مقصد إصلاحي يتمثل بالأساس في إعادة تنزيل الإسلام النظري أو التنظيري على الواقع الأخلاقي المزري للأمة، والهدف الأساسي المجمع عليه هو إعادة التحاكم للأمر الإلهي عوض القوانين الوضعية التي نشرت أذرعها الأخطبوطية بجيوب الدولة الإسلامية، وذاك وفق منظومة أخلاقية تُرخي بظلالها على المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، بل والرياضي أيضا. سواء سميناه شورى أو ديموقراطية أو أي مسمى آخر. لكن النظرة الوسَلِية لبلوغ الغاية المُرادة قد تعددت وتنوعت مما أفرز اتهامات متبادلة بين الأطياف العاملة بالساحة الإسلامية، كانت تتنوع بين اتهامات بالعمالة والغلو والضلال والتقوقع والتحجر بل تعدتها لإخراج تيار لتيار آخر من الملة!

وأنا هنا لا أريد سرد تصريحات هؤلاء أو هؤلاء في طعن الآخر وتضليله وتكفيره، فهذا معلوم ونقرة بالشبكة الإلكترونية ستحيلك على المهارشة والمراشقة بين مختلف التيارات الإسلامية. بل ما أطمح له هو تجميع هاته التيارات والطوائف تحت كلمة سواء وبيرق ﴿**أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾، فالاعتصام الاعتصام بحبل الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا**﴾ لكن للأسف نجد كل جماعة قد تقوقعت وبنت لها حصنا يحمي أفكارها ومسلماتها من الغزو الفكري الإسلامي الآخر! وما شمل حضن تربيتها إلا مريديها، بل يُنتزع الدفء التربوي عند كل صدام مع الآخر المنتمي للطائفة أو الجماعة الأخرى! فإن كان أرباب

الجماعة يشملون بتأييدهم ونصرتهم مريديهم، فهم يسحبونها من مخالفيهم وإن وقعوا في منازعة أو مقارعة مع عدو مشترك! وإن هذا لهو الضلال المبين، فقد خلعوا عن مخالفيهم لباس «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ» فما كان بينهم إلا الظلم والخذلان والتحقير ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَا**﴾، والله المستعان!

وأدى هذا إلى عزوف الكثير عن تلك التنظيمات والجماعات والأفكار، بل من الشباب المتقِد نشاطا للانخراط بالإصلاح الاجتماعي، وبعد رؤيته لحال الحركات الإسلامية من تطاحن وتهارش ورمي بالبدعية والكفر والتحجر والعمالة، من اتجه إلى معسكر العَلمانية المتطرفة أو الاشتراكية الراديكالية بل والإلحاد الكامل في الخالق سبحانه، والأمثلة كثيرة غزيرة على ذلك.

ومن أهم الأسباب التي دفعت الساحة الإسلامية لهذا التناحر هو عدم تمسكهم بـ ﴿**وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾فوقعوا فيما وقع به النصارى واليهود الذين اتخذوا رهبانهم أربابا يشرعون لهم من دون الله سبحانه وتعالى، فكل جماعة قد حملت مشعلا قد سُطر به أنه لا قول إلا قول إمامنا، وأي منازع أو مخالف فهو قابع بالضلال المبين! فما كان جزاء كل ناصح أو ناقد إلا الإعراض والرمي بالضلال أو العمالة، مما زاد في الفجوات وزاد في النعرات، فأضحيت لا تجد لصوت العقل مكانا بينهم، ولا للحكمة قوسا تنطلق منه.

نحن نحتاج أكثر من أي زمن فات إلى لملمة شتات التقسيمات الموروثة، وتضميد جراح التطاحن بين التيارات لمواجهة المد الدهراني

عموما والعَلماني المتطرف خصوصا، وذلك بخلق أرضية مشتركة بين جميع الطوائف والأطياف، وهذا لن يتم إلا أن تُجِيد تياراتنا الإنصات للآخر، والسعي إلى ترقيع ما شاب ثوب الأمة من تمزيق.

والأوضح والله أعلم،

أن تقوم القيادات الإسلامية من كل الطوائف والمشارب الإيديولوجية بالتوافق والتناغم، وذاك بالجلوس على طاولة واحدة وعرض أهداف وغايات كل مشرب تَمَّ الاتفاق على وضع مسائل مُتفقة قد أجمعوا عليها، بل ويَلزمهم أن يستعينوا في مشاوراتهم بل قل في بنائهم الجديد للتصور الحركي بجمهور من المتخصصين الاجتماعيين والسياسيين والاقتصاديين والمفكرين والفلاسفة وغيرهم من النخب الحاملين لنفس الهدف والطامحين في إرساء أرضية أخلاقية إسلامية صلبة، تكون مُنطلقا للملمة التصدع، فأنتم من علمتمونا أن نطلب التوافق وليس تتبع المخالف والترصد لهفواته، كما قال الجخ:

ألستم من تعلمنا على يدكم بأن الثعلبَ المكارَ منتظِرٌ سيأكل نعجةَ الحمقى إذا للنوم ما خَلَدُوا؟

ألستم من تعلمنا على يدكم بأن العودَ محميٌّ بحزمته ضعيفٌ حين ينفرد؟

ثم لا يجب أن نغفل عن مشكل كبير في إشعال هاته النعرات، وهو غبش التعريفات الاصطلاحية عند هاته الطوائف، فتجد أن كل بمنبره يوظف مصطلحات يمكن أن تعادل الكفر عند الآخر، فلا يتحمل الأول شرح مراده ولا يتمهل الآخر في رمي الكفر به، فأي حوار أو تلاقح

فكر يستلزم أرضية اصطلاحية واحدة، لذا وجب تأصيل التعريفات والاصطلاحات قبل الخوض في أي حوار... وهذا ما انفلت من قوس الردود بين مختلف التيارات والتوجهات الإسلامية... فسادت الجعجعة الفارغة والعقيمة مما زاد من التفرقة التعساء!

فالله الله في أمتكم، وكفاكم تشرذما، فو الله ما المؤامرات المحاكة حولكم، والتي تُلصقوها بالغرب، ما اشتدت ونجعت إلا بعقول قاصرة وجهت ألسنتها وحرابها نحو إخوانكم.

اجلسوا إلى طاولة الحوار ولا تستعلوا، واطلبوا الجنة بصدق تجنون إنكار الذات في سبيل تماسك الأمة، فكل فصيل منكم له علماؤه وعقلاؤه، فليجلسوا وليؤسسوا تلك الأرضية المشتركة، ثم ليستعينوا بحسن النية، ولتنصتوا لبعضكم فقد أجهدتمونا بردودكم، وسئمنا تشرذمكم، وما هذه التفرقة إلا نتاج واضح لهاته الفُرقة.

فتعالوا ﴿**إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾

وَقَّعَ مراد ورقته بعدما أكملها بـ: غريب. ثم نشرها بثلاثة منتديات... الأول ذو طابع سلفي، أما الثاني فحركي، والثالث كان ذا توجه أشعري صوفي.

داعب فأرة حاسوبه ثم أظهرتِ الشاشة أبياتا شعرية أخد يقرأها بصوت مُرتَفع، وقد أرخَتْ مقلتاه دمعَهَا وتأسَّفَ فؤاده حتى كاد ينفطر:

غِبْ يا هلالْ

واطلعْ علينا حين يبتسم الزَّمَنْ

وتموتُ نيرانُ الفِتَنْ

اطلعْ علينا

حين يُورقُ بابتسامتنا المساءْ

ويذوبُ في طرقاتنا ثَلْجُ الشِّتاءْ

اطلع علينا بالشذى

بالعز بالنصر المبينْ

اطلع علينا بالتئام الشَّملِ

بين المسلمينْ

هذا هو العيد السعيدْ

وسواهُ

ليس لنا بِعيدْ

غِبْ يا هلالْ

حتى ترى رايات أمتنا ترفرفُ في شَمَمْ

فهناكَ عيدٌ

أيُّ عيدْ

وهناك يبتسم الشقيُّ مع السعيدْ[1]

---

(1) من قصيدة: غِبْ يَا هِلاَل، للشاعر عبد الرحمن العشماوي.

تحت أحذية الشرطة

- 1 -

قبل أربعة أيام من الآن: يوم الجمعة.

اللهم اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب فضلك.

وضع مراد رجله اليسرى على صندله الجلدي ثم أخرج الأخرى من باب المسجد بصعوبة، كأنه يَسْتَلُّها من فم أفعى ضخمة. كان المسجد مكتظا بالناس، فما إن أدار خطيب الجمعة رأسه يمينا مُسَلِّما ومُعلنا عن نهاية الصلاة، حتى اندفع جموع المصلين مهرولين نحو باب المسجد الوحيد. أيهم سيصل أولا. كأنهم بمسابقة ما سيحصدون جوائزها المحدودة فور عبورهم الباب... بل كَسَيْل عرمرم يحصد اليابس والأخضر.

انزلق مراد بسرعة من أمام المسجد كي لا يصبح عرضة لحصد لكمات ورفس الخارجين. رفع نظره بعدما أحس بالأمان وتخلص من السيل البشري، فاصطدم مع شخص اختار الوقوف أمام المسجد عوض الانتشار وطلب الرزق. حتى أنه حجب عنه أشعة شمس الزوال المحترقة. شاب عشريني يضع نظارات سميكة تُخفي بريق عينيه المتقدتين. يلبس سروال جينز أزرق قد أنهكته يد الأم من كثرة الغسل حتى استحال لونه أصفر. أما قميصه فقد أَسْبَلَت عليه الشمس أشعتها فكَشِف وبلي. كث اللحية وشعر الشارب. ما كادت عيناه تقعان على مراد حتى التقطت يده

ورقة من عشرات الأوراق المكدسة على يده الأخرى ودسها قسرا بكَفِّ مراد دون تحية ولا سلام. فعل مع شخص آخر نفس الشيء. ليكررها مع آخرين دون ملل أو كلل، كنحلة مزعجة تُلقح زهورها غصبا.

أمسك مراد بالورقة في غير اكتراث. تجنب لهيب الشمس متوسلا زُلال الظلال، ثم تفقدها. كانت منشورا تحريضيا من جماعة الجماعة، تدعو لاعتصام أمام القبة البرلمانية المغربية بمدينة الرباط. عَلَّل المنشور ذلك بالتضييق الذي يتعرض له مجموعة من خطباء المنابر، خاصة التوقيفات التي طالت بعض الأئمة مؤخرا. ربط مراد، بسرعة، بين هذا المنشور وبين ما أبداه مجموعة من الأشخاص بالمجتمع الافتراضي الأزرق من حملة واسعة ضد توقيف أحد خطباء الجماعة من طرف وزارة الأوقاف لمخالفته المنحى العام المُسطر منها، وتطرقه لأمور تهدد الاستقرار العام على حد زعمهم.

طوى مراد المنشور ودسه بجيب قميصه الحجازي ثم تابع سيره، فطريق طويل يحتاجه كي يصل إلى المعهد الهندسي عساه أن يجد بعضا من الكسكس الرديء الذي تقدمه الداخلية يوم الجمعة. فوجبة الغداء الرسمية قد انقضى وقتها منذ زمن. كأنهم يخيرونهم بين صلاة الجمعة ووجبة الغداء. الاثنان بوقت واحد!... قصد بمشيته وأسرع، فمسيرة نصف ساعة تفصله عن وجبته.

كان يتحسس بعد كل بضع خطوات جيبه...

كان يتأكد من ثبات الورقة بمكانها!

- 2 -

الآن: يوم الثلاثاء.

يُمكنك أن تسمع وقع طرق قلبه السريع والمُلِح... فصوته بلغ آلافا من الأمتار إن لم يكن قد وصل القمر ورَجَّه. كان الطَّرْق على فؤاده قد مازج بين اللهفة والتردد، بين الخوف والفرح... تفلتت منه مشاعره، فما عاد فؤاده يعي حرفا من حروف الأحاسيس.

أيرسم ملامح الفرح أم يَتَوجَّس خيفة؟!...

كانت المرة الأولى التي يخرج فيها مراد بمظاهرة أو وقفة خارج جدران مؤسسته. كان سيل الاحتجاجات الجارف يُلاطم قلبه ويعصف بفؤاده فيحدث تصدعات بقشرة التوجس والتردد المتلبدة، فتنخر أخاديد تُظهر بعضا من بسالة مُضمرة، تمخضت فأرسلت جرعات من الثقة حرَّكت لسانه لتتناغم مع الأصوات المرتفعة الصارخة هنا وهناك.

بدأ صوته هو الآخر يرتفع رويدا رويدا، ليستحيل سيلا لا تردد فيه، جارفا يريد أن يخالف قوانين الطبيعة، يتوسل قمم الجبال عوض الانجذاب نحو السفح. كان يتخلص بصراخه من رواسب الفتاوى التي شدَّته وأفتتْ بحرمة النضال والخروج بالمظاهرات... كان يصيح ويصيح... ربما كي يُلقي أثقالا من الخوف المُقنَّع بموقف ديني، لم يقتنع به قبلا!

لم يتصور أبدا أن يكون وسط متظاهرين، بله جماعة الجماعة!... تلك الجماعة التي ما كان يرى بها سوى البدعة والحيد عن غرز رسول الله ﷺ... لكنه الآن أضحى يدرك أن ما وُجد تيار قد جانب الصواب كلية، أو أصاب الحق كله. بل كلٌّ يؤخذ منه ويُرد... وكل يُعان على الخير الذي عنده.

- 3 -

قبل يومين: يوم الأحد زوالا.

ناقش مراد محمود الشينوي حول الخروج بالمظاهرة التي أثثت لها جماعة الجماعة، وحول حكم التظاهرات عامة، والتي تقام بين أحضان المبتدعة كما سماهم الشينوي. أخبر هذا الأخير مرادا أنه قد رآه يأخذ المنشور من الشخص الذي كان يوزع تلك التُرَّهات أمام المسجد يوم الجمعة. فقد شَدَّ هو وبعض أصدقائه رِحَالَهُم نحو المسجد المعروف بخطيبه المُفوه، طالب العلم الذي زكاه الشيخ المُخرجي!

- لقد رأيتك تقرأ تلك الورقة... كنتُ هناك، عند السي عبد الغفور. جئتُ والأخ أبا طلحة وآخرين.

- لم أرك هناك؟

- نعم فقد كانوا مستعجلين، فلم أستطع بلوغك والسلام عليك.

كان الشينوي يتحدث بصوت بطيء خافت، لكن انسيابه وصبيبه لا ينقطع.

كان مراد يلج حَيَّه حين لاقاه الشينوي برأس الدرب، وعانقه كعادة السلفيين. كان مراد يتابع كلام محمود بعينين نائمتين تقاومان النعاس. تابع الشينوي كلامه دون اعتبار لمراد الذي حاول إظهار انشغاله. لكن محمودا اختار الحديث كأن بلسانه ثقلا لكلمات يريد إلقاءها كي يستريح... قال محمود وهو يُعدِّل قلنسوته:

- لقد أراد ذاك المبتدع أن يعطيني ورقتهم الصفراء فَنَظَّفْتُ أذنيه وعاتبته بشدة وغلظة.

ابتسم الشينوي كأنه عاقر إنجازا يُدخله إلى خانة من خانات رواد الحضارة الإنسانية، ثم أضاف:

- كيف لهم أن ينشروا ضلالاتهم أمام بيت الله؟

كان مراد لا يجيب إلا بابتسامات خافتة. لكن لسانه ما عاد يستسيغ الخمول، فقال بتراخ:

- ما تراه أنت ضلال وبدعة، هم يرونه حقا وصوابا.

فاجأ مراد الشينوي بكلماته، غير أن هذا الأخير لم يستزد إلا شدة وعزة.

- إنهم مبتدعة، يخالفون هدي النبي ويبتدعون ما لم يقم به رسول الله.

- هم يرون أن ما يقومون به هو عين الهدي.

- بيننا وبينهم حديث رسول الله.

- وهم أيضا يأخذون فقههم من حديث رسول الله... فالفهم الإنساني المتنوع عن رسول الله هو ما أنتج الاختلاف.

- السلفية هي الفرقة الناجية التي تتبع هدي السلف، بفهمهم هم دون سواهم.

- هم أيضا يقولون ذلك.

- ماذا تقول يا مراد؟

بدأ سهم صبر الشينوي يفارق قوسه. أما مراد فقد حافظ على هدوئه وثباته قائلا:

- ذاك ما سمعت!

بدأ وجه الشينوي يتضخم ويحتقن بدماء الغضب... بدأ فكره ينسج أفكارا تقذف مراد بالبدعية، بل بدأ يقتنع أن فكر مراد مائل زائغ، لا يدري وجهته، فقد تاه بالضلال...

آثر محمود إكمال جداله، كان متيقنا أنه سيُفحمه، ويُغلق فمه... فقال متصنعا العلم متفاخرا بحروفه:

- أليس شيخهم المُقدَّس يدعو إلى القبورية، ويَدَّعي الولاية الزائفة لكثير من الزنادقة... أوليس ما هم فيه شرك وضلال؟

- لن أناقشك فيما تدعي، خاصة أن الجماعة قد تبرأت مما يُنسب إليها.

- يا أخي ذاك مكتوب مخطوط عندهم كما قلتُ.

بدأ الشينوي يقتنع أنه على طريق إفحام مراد... لكن هذا الأخير قال في حدة ممزوجة بابتسامة ثقة:

- هل قرأت كتبهم؟

جانبتْ عينا الشينوي الثبات قبل أن يستجمع كلامه قائلا:

- لقد حدثنا بها الشيخ العماري بدروس العقيدة.

صمت هنيهة ثم أضاف بمكر، فقد تَذَكَّر خاطرة تائهة:

- أم أنك أضحيت تتنكر له؟... نعم تذكرتُ، لم أعد أراك بدروسه!

ألقى محمود كلماته المتهكمة... ثم ما فتئ ينتظر كلمات مراد التي ستكون دليلا لا محالة على معاقرته الابتداع وسكره على ضفاف الغي والضلال.

ابتسم مراد قائلا:

- ألم تقل إن إمامكم المخرجي قد صنف الشيخ العماري بخانة الإخوان والقطبية، وأن لا علم ولا فقه له؟

- لقد أخرج الإمام العلامة عبد السميع المخرجي بيانا آخر يقول فيه إن الشيخ العماري تقي نقي وأنه على غرز السلف.

لم يستطع مراد كبح الضحك، فأرسل قهقهة عالية... ثم قال مقاوما ما تفلَّت من بين شدقيه:

- المهم... أنا لم أنضم لهم بعد... لكن سأشارك بوقفتهم أمام البرلمان.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ضرب الشينوي كفا بكف، ثم أضاف متحسرا:

- أتعلم أن ذاك سبيل الخوارج؟

- خوارج؟!...

علا صوت مراد المتفاجئ... ثم أضاف:

- ربما ما أنتم به هو الخروج الحق!... خروج على إخوانكم بالتبديع والتفسيق... خروج على دائرة السنة التي تريدون الاستئثار بها... لكم وحدكم... وفق رُؤاكم ومواقفكم... كل شيء لونتموه بما بدا لإمامكم حتى أضحيتم لا ترون إلا دائرتكم الضيقة، ولا تسمعون إلا منابركم. وكل من حاد عن سبيلكم تخرجونه من وسم السنة وتلحقونه بالبدعة... نعم أخي أنتم خوارج هذا العصر... بل قطاع طرقه!

ارتفع صوت مراد وبدا انتفاخ أوداجه، ففزَّ بعض الشباب المختفين بظل حائط مبنى مهجور. كانوا يعاقرون سيجارة من الحشيش قد تناوبت عليها أَكُفُّهم المتسخة.

نظر أحدهم إلى السلفيَّيْن الواقفَيْن قريبا منهم بعينين محمرَّتين تتوسلان النعاس، ثم أطلق ابتسامة عبيطة. التفتَ نحو أحد أصحابه الذي أرسل دخانا ساما من أنفه، ثم قال بلسان متثاقل:

- احذر أن يُذهب هؤلاء السلفيين ما عدَّلت به مزاجك... وأن يطردوا خمر العقل فترَى الواقع المُر.

ابتسم الآخر حتى بدت أسنانه السوداء، وأجاب:

- يتبعوننا حتى في انتشائنا... مصيبة هم...

ثم أعطى سيجارته القاتلة لشخص بجانبه ووضع منديلا متسخا بأنفه، يدفع ريح الكحول المخدر إلى جوفه كي لا يترك للزمن فرصة في كشح تخديره ومزاجه المضطرب.

افترق المتحاوران... انسحب الشينوي وقد قطب حاجبيه وعزم ألا مناص في التعامل مع مراد من هجرانه...

نعم قد وُجب هجران المبتدعة.

- 4 -

الآن: الثلاثاء ليلا.

كان مراد يجر رجليه التعبتين وسط زقاق حيه... كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلا. لم يُرِد الرجوع إلى المعهد فاضطر للذهاب إلى شقته بحي مسعودية. كان أحد الشباب المخَدَّرين جالسا يرمق مراد بتمعن رغم جفنيه الذابلين.

اختفت ملامح مراد خلف ندبات زرقاء وخضراء وحمراء عَلَت تضاريسها على قسماته حتى أخفتْ أنفه الأخنس. كما أن لحيته قد أخفت بعض سوادها تحت حِجابٍ من نجيع أحمر مُلَبَّد. أحس بآلام تنتشر بجسمه كله، لكن إبَرَها السامة قد غُرست بمفاصله خاصة، وفقرات عموده الفقري.

أرخى كوفيته على رأسه لتمنع أشعة مصابيح الزنقة الصفراء أن تعانق ملامحه، فتختفي القسمات المنهكة تحت الظلال. كان يجر رجليه قسرا، فتَجُرّ معها جسمه المُخدَّر... ومن ثَمَّ يَجُرُّ سَلَاسِل من الأسى والأنين، عُقد بها قلبه. زَلَّتْ قدمه، فكاد أن يسقط. ثم انتشر سم الألم بين ثنايا عظمه وعضله. كانت هراوات الشرطة قد قبَّلتْ جميع بدنه، كما أعانتها أحذيتهم الصلبة في رسم ضحكاتها المستهزئة على أضلعه الدقيقة وصولا إلى رئتيه وأحشائه الحيوية. بل إن نخاعه الشوكي قد انفطر ألما من وقع الأذى فما أضحى يُرسل إلا الأنين بأعصاب مراد.

رفسوا، ضربوا، شتموا، بصقوا بلعابهم العَطِن على وجهه ووجه المتظاهرين. تعالى صراخ التنديد أولا ثم استحال صراخا من الألم والتوجع ضجَّتْ له السماء. لكن أهل الأرض ما سمعوا شيئا...

فأهل الأرض من الأحياء لا يسمعون الأموات!...

كان بعض الناس يقفون بعيدا عن الحدث، يُصَوِّر بعضهم تدخل الشرطة على استحياء... رأى مراد أحدهم، فتمنى أن تُنشر الصور أو الفيديوهات على الشبكة العنكبوتية... ثم قال لنفسه بألم:

- وما عساها تفعل وقد داست الأحذية على وجوهنا.

وصل مراد إلى باب منزل شقته، ثم بدأ يحمل رجليه مقاوما ما ترتب عن صعود الدرج من ألم زائد...

ومن الآلام التي عاشها هذا اليوم، اسم استقر بعقله، وما فتئ يردده كيانه. اسم شرطي كان يضربه، كأنه مفترس ما انصاعت له فريسته فبدأ يمارس عليها شتى أنواع التعذيب الجسدي. كاد أن يقتله. أحس أنه

يستمتع بما يفعل به. يسمع ضحكاته الساخرة وكلماته الشاتمة البذيئة... فلولا أن جره أحد زملائه من الشرطة بقوة لأطفأ حياته، وأرسل روحه إلى بارئها... كان زميله يناديه بإدريس تارة والشرقاوي تارة أخرى....

كان اسمه إدريس الشرقاوي...

اسم لن ينساه ما وقعت قدماه على هذه البسيطة.

وصل بشق الأنفس إلى باب الشقة. أخرج مفتاحه ثم فتح الباب في تؤدة كي لا يضج نوم أسرته. كان يعلم أن والديه نائمان، وأخته ستكون لا محالة أمام حاسوبها تشاهد فلما أو مسرحية، تسمع حوارها عبر سماعات الأذن... أقفل الباب، ثم اتجه إلى غرفته، وما كاد يلجها حتى اشتعل ضوء المطبخ القريب من غرفته. أدار وجهه خائفا ليجد أمه مقابلة له وقد احتقن وجهها من شدة الغضب المشوب بفجأة بادية... لم ينبس بكلمة، فبادرته بسؤال استنكاري:

- لماذا جئت إلى المنزل بهذا الساعة؟

- كنت مع أحد أصدقائي بمنزله القريب من هنا، فآثرت المبيت بالبيت.

حاول أن يشيح بوجهه عن نظر الأم التي كانت تحاول قنص ملامحه... ثم وقع بصرها على ملابسه المتسخة، لتتحرك نحوه وتديره قسرا نحوها. فَوَقَع قلبها وارتج مما حاكته أيادي وأرجل رجال الشرطة:

- يا ويلتي... وجهك مخضب بالدماء!... وملابسك متسخة!

ظل مراد صامتا لا يجيب، كان يبحث عن منجى لما وقع بقلب الأم. كان يصيغ كذبة يواري بها سبب اللوحة التجريدية التي أضحت تنشر صباغتها على وجهه.

- تكلم أو سأوقظ أباك.

ظل صامتا... لم يُجب، أرادت أن تتركه وتتجه نحو غرفة النوم لتخبر الأب بالفاجعة، لكنه أوقفها... كان ينظر إليها بعينين متوسلتين طالبتين عدم الإقدام على ما تبغي.

- أمي... سأخبرك لاحقا... أريد أن أنام الآن... جسمي يتألم.

سقط منطق الأم ولم تعد تعرف ما يجب فعله... خالجت عينيها دمعة يتيمة، ثم قالت:

- سأخبر والدك غدا... سأخبره أن مرادا أصبح يتشاجر بالخارج ولا يرجع إلا بمنتصف الليل... سأخبره غدا لا محالة.

أدارت جذعها ذاهبة، لكنها بعد خطوة توقفت وهي تقول في همس:

- خُذ حماما دافئا كي تُزل ما بك من دماء... واقصد الثلاجة فبها بعض الطعام المعد سَلَفا... سخن الخبز المجمد... غدا ستخبرني بالأمر... تصبح على خير.

ثم أكملت مسيرها.

خرج مراد باكرا من المنزل متوجها إلى المعهد... لم ينم تلك الليلة من كثرة الألم... ليس الألم الجسدي، بل ما خلفه ذاك الشرطي من ألم دفين بقلبه...

فما بال ذاك الشخص يحمل كل هذا الحقد والكراهية لبني البشر؟!

أما أمه فلم تخبر أحد بما رأت بابنها تلك الليلة.

الملثمون

– 1 –

تزايدت الصدامات يوما بعد يوم... كما أن موجات من الغضب بدأت تجتاح الجامعات المغربية بين الطلبة وتنظيماتهم الإيديولوجية. أخذت هذه المظاهرات والصدامات بادئ الأمر شكل تنديدات حقوقية اتجاه السياسة الحكومية... غير أن يدا خفية، معلومة لدى اللبيب، أدارت دفتها اتجاه نعرات عرقية وإيديولوجية بين المتظاهرين، فأضحت صدامات بين التيارات الإيديولوجية والعرقية، ولم يعد للمطالب الاجتماعية أي موطئ قدم بلافتاتها وشعاراتها. مشارب فكرية كانت متحدة ملتحمة اتجاه مطلب واحد واضح، لتنقلب بين ليلة وضحاها إلى تراشق لفظي بين التيارات المحتجة، ليستحيل كل ذلك إلى تراشق صلب دام!

كان الصدام الصلب المُتَفَلِّت من بين الحشود قد سَبَّب تكاثرَ المصابين بين الفرق المتناحرة. كان قطبا الصراع، كالعادة، التيار اليساري الشيوعي والتيار الإسلامي المتمثل في جماعة الجماعة والتمثيلية الطلابية لحركة النهج والإصلاح. تمادى الصراع في تأجيج الصدام بين الفريقين، وبلغ تراشق التُّهَم مداه، بين ظلاميةٍ ورجعيةٍ نحو معسكر الإسلاميين، وإلحادٍ وزندقةٍ نحو المعسكر الشيوعي. ثم بَدَأَ التلويح بالملفات القديمة، وضلوع كل تيار في قتل رجال التيار الآخر...

كان المتظاهرون شبابا لم يتجاوز أغلبهم شتلات العشرينات... لكن الحقد الحركي الذي دَسَّه العجائز بكل تيار بدأ يشتعل مع أول مواجهة!

وسقط قتيل من التيار اليساري الشيوعي بجامعة ابن زهر بأغادير.

كان القتيل من معسكر اليسار، ينتمي لإحدى الجماعات العرقية الأمازيغية. شرارة أخرى قد اشتعل عود ثقابها ببحيرة بنزين تتلاطم فيها أمواج المتظاهرين. الْتَهَبَ لهبُ الصدام فحرق اليابس والأخضر بين التيارين. اختفى صوت العقل وسط الصياح، وانكشح الفكر السديد، وانبرى الرصاص والحديد!... انخرط اليسار بكل أطيافه بالمعسكر الشيوعي، اصطف المعتدل مع الراديكالي في مواجهة الظلامية كما يزعمون. واشرأبتْ أعناق أقلام صحافييهم ومنابرهم الإعلامية في تقليب الرأي العام نحو التيار السياسي الإسلامي عامة، وجماعة الجماعة خاصة، التي وجدتْ نفسها وحيدة بعدما انسحبت الحركة من معسكرها، واختارت هي وبقية التيارات الإسلامية السكوت، بل وتلفيق التهمة لإخوانهم!

وجدتْ نفسها وحيدة بين كر وفر أمام المنابر اليسارية المتكالبة، ومنابر إسلامية متقاعسة... تُدَافِع في شدة عن نفسها وتُنْكِر ضلوعها بتلك الجريمة، متهمةً اليد الآثمة، التي تعرفونها طبعا، في ارتكابها...

كان الخنجر الذي غرسته الحركة بانسحابها بظهر الجماعة أشد ألما...

لكن صراحةً، كان ذاك ديدن التيارين. فالتاريخ بينهما لا يُسطر غالبا إلا الخيانات العديدة والمتكررة، والتياران لم ينسيا بعد، انقلاب أفراد الجماعة على إخوانهم بالحركة بمحطات عديدة. وما ألحقته الحركة أيضا من خيانة واتهامات كاذبة للجماعة!

كانت سارة وسط جموع شبيبة حزب القوى التقدمية الشيوعية المحظور. تصيح بملء فمها هاتفة بمختلف الشعارات والتنديدات بشارع الحسن الثاني بالدار البيضاء. كانت المسيرة الحمراء لا تتجاوز العشرين فردا من الشباب الشيوعي. يحملون رايات حمراء ضمت وسط حُدودها الأربعة صورا سوداء لغيفارا والأمير عبد الكريم الخطابي. وآخرون يحملون لافتات تتهم المخزن والظلاميين المتواطئين على قتل الطالب اليساري، ويضعون صور القتيل بجانبها.

سار المتظاهرون من جوار درب غلف وصولا إلى ساحة النصر، مرورا بشارع عبد المومن وشارع الزرقطوني. أوقفوا القطار الحضري (الترامواي) مرتين قسرا، لكن الشرطة لم تتدخل ولم تقم بأي ردة فعل.

وصلت المسيرة الحمراء إلى ساحة النصر أو كما يسميها البيضاويون بساحة الحمام. امتزجت شرارات السماء المرسلة من شفقها الأحمر مع ألوان أعلامهم، فزاد المسيرة لهيبا وشرارة. لُوِّحت على إثرها الرايات بقوة متناغمة مع علو الهتافات. وما كاد الصريم يستقر، حتى أشعلوا شموعا عديدة وُضعت بمحيط النافورة الضخمة، فتلألأت ذرات مياهها وتلاعب انعكاسها كنجوم حالمة تتبختر في خيلاء. ترنَّم بريقها على حدود حبيبين من ماء، يرتفع الأول فيهوي في شوق نحو الثاني، يعانقان بعضهما دون استحياء.

سكت المتظاهرون دقيقة صمت على روح الفقيد، كأنهم يتلون تراتيل صامتة. بعد لحظة قصيرة لوح أحد قياديي المسيرة ببيرقه الأحمر، وما كاد يفتح فمه حتى سُمع صوت اخترق الجموع من الخلف:

- آمين... صدق الله العظيم.

الْتَفَتَ المتظاهرون الحُمر نحو مصدر الصوت... وجدوا أن الناس قد تجمهرت خلفهم. كانوا من المارين أو المستجمين هناك. عندما علموا سبب المُظَاهَرَة وإشعال الشموع، أبوا إلا أن يترحموا على القتيل. أطلق أحدهم مع انتهاء دقيقة الحداد لازمة متلازمة مع هذه المواقف، وهي إعلان انتهاء الترحم بإعلان انقضاء آيات سورة الفاتحة السبعة.

كاد أحد المتظاهرين الشيوعيين أن ينهال بسبابه على من ألقى جملته. أمسكته سارة من كتفه وضغطت عليه بقوة. عرج بنظره المُحمَّر غضبا نحوها وقال:

- إنهم من أبناء الجماعة... هؤلاء الرجعيون سألقنهم درسا.

أعادت سارة ضغط ذراع رفيقها، كما ضغطت على أسنانها قائلة:

- إنهم من العامة... يكفي أنهم يروننا كشياطين لقناعاتنا الأيدولوجية... هل تريد أن تزيد الطين بلة؟

ثم رفعت صوتها بالهتاف مناغمة صداه مع صدى الهاتفين الآخرين... ارتفعت الأصوات وكثرت بعدما انضم بعض المارة لهم.

كان أحد الوافدين الجدد راخيا للحيته، حافا لشاربه، تعلو جبهته آثارٌ سوداء من كثرة السجود.

بدأت كاميرات القنوات التلفازية واليوتوبية تتقاطر على ساحة النصر، متزامنة مع وصول بعض الوجوه اليسارية المعروفة.

مصادفة؟...

نعم إنها مصادفة... يا لَسُخفِ سُؤالك!

فهؤلاء الوافدون الجدد هم النخبة...

هم من يحملون همَّ الشعب...

بل ربما هم الشعب!

انتهت الوقفة...

انتشرت الفيديوهات بالقنوات المرئية والمنابر المكتوبة والمسموعة...

صورة واحدة تكررت...

وجوه مألوفة تدلي بآرائها باسم الشعب...

إحدى المتظاهرات بالخلفية كانت تنظر إليهم في خنق وغضب!

- 2 -

تَنْظُر للحيتان الصغيرة تسابق السفينة دون كلل أو ملل، تُرشد البحارة إلى مسالك البحار الآمنة، وتدلهم على أضمن طريق بحري نحو سبتة. إنها متجهة نحو الحاضرة الموحدية، التي أذعنت للدولة الناشئة بعد حصار طويل... إنها متجهة نحو حاضرة العلم والعلماء، حيث عاش العارف بالله العلامة القاضي عياض رحمه الله.

تذكرت كيف وجدت أحد اليابريين بشلب. تذكرت كيف حملت الاقدار رجليها كي تلج ذاك الزقاق الضيق، وتفقد الوعي، لتجد نفسها ببيت اليابري. وجدها فاقدة الوعي متسخة الثياب تعلو وجهها البادي من بين خِمارِها قسمات القهر والتعب والحزن. عرفها على الفور، وحملها نحو بيته كي تُطَبِّبها زوجه، التي كانت تعرف بعض أسرار الطب النبوي. أقامت عندهم خمسة وعشرين يوما ثم قررت متابعة سفرها نحو سبتة. أخبرتها مُطَبِّبتها أنها تريد أن تزوجها ابنها البكر، لكن عائشة اعتذرت عن ذلك، وشكرتها متعللة أن الطريق يناديها وأن الله سبحانه وتعالى قد قَدَّر

سبيلا لن تحيد عنه. رتب اليابري لها سفرا نحو سبتة. أخبرها أن الأوضاع غير مستقرة بَعْدُ بالحاضرة الموحدية، فالبيرق المرابطي مازال بقلوب بعض المقاومين هناك. والسبتيون مازالوا يثورون بين الفينة والأخرى على الوالي الموحدي. نصحها بالحيطة والحذر وتجنب الغرباء قدر الإمكان. كما تحسس اليابري كلمات وحكايات أقرانه عند كلامهم عن البحارة المجاهدين الذين يُغيرون على المراسي الصليبية. كانت أخبارهم وبطولاتهم تتناقلها الأفئدة قبل أن تتهامسها الألسنة. عَلِمَ في مجلس سَمَرٍ مع بعض الصيادين أن المجاهدين البحريين يتخذون إحدى جزر بحر الروم المهجورة مقرا لهم وقاعدة ينطلقون منها. كما تَلَقَّفَ من أحدهم أن المجاهدين يتخذون أحد تلاميذ العارف بالله العلامة القاضي عياض رحمه الله، مُفْتيا لهم مرجعا لنوازلهم. أخبرها أنه سمع من أحدهم أن العالم محمد بن حمادة على علم بشخص مرجعهم، إن لم يكن هو نفسه... يعللون ذلك أنه ينتقل بين حواضر الأندلس، ولا يلج سبتة إلا لماما، وربما متخفيًّا. وإن كان كل هذا مما شاع بين القوم دون دليل، لكن الدخان دليل النار، والبَلَل دليل المطر.

– بسبتة ستجدين جوابا لا محالة تتقاذفه ألسنة البحارة والصيادين في همس.

هذا ما قاله اليابري لعائشة، كما أخبرها أنه يوجد بسبتة بعض اليابريين، ستجدهم بتخوم المدينة، سيساعدونها لا محالة.

كان العلامة محمد بن حمادة السبتي فقيها ومؤرخا وأديبا. حرك اسمه، عندما تَلَقَّفَتْه من فم اليابري، حنينا بقلبها، وإحساسا حزينا بصدرها.

تذكرت آنذاك إحدى حلقات السيرة بمسجد يابرة العامر. داعب مخيلتها لسان الفقيه وهو يلقنهم كتاب الشفا قائلا في فخر:

- حدثني شيخي العلامة الفقيه السبتي محمد بن حمادة عن الإمام الحافظ وقاضي قضاة سبتة أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي...

كما أن أبياته مازالت تنشر أريج نظمها بأُذُنَي عائشة. أبياتا طالما أنشدتها بكل فخر وحماسة، وبكل أنفة ومجد... كان الفقيه يستشهد بها كثيرا حتى امتزجت بدمائها. أحب أبوها إلقاءها الشعر، كما أحب هذه الأبيات خاصة... بدأت عائشة تنشدها وقد اختلطت عبراتها مع تراتيلها الشعرية:

فَكُلُّ جَبَّار إذَا مَا طَغَى وَكَانَ مِنْ طُغْيَانِهِ يُسْرِفُ

أرسَلَه الله إلى سَبْتَة فَكُلُّ جَبَّار بِها يُقْصَفُ

- لقد ضيعتم يا سارة أمجادنا... فرطتم بالأندلس ثم بسبتة حاضرة العلم والعلماء.

كاد قلب سارة أن ينفطر. أرادت أن تقول لعائشة إنها ليست السبب. لكن يدا مجهولة أمسكت لسانها. همست لها أننا السبب... كل المغاربة السبب... كل المسلمين السبب!

أما عائشة فقد ظلت ترسم ناسيةً بريشتها أمجادا لن ترجع ولو بعد حين... كانت ترى بعين أملها جموع الصليب تنهار وترجع الأندلس ويابرة إلى حضن الأمة الإسلامية...

كانت تتحسس بين الفينة والأخرى مفتاحا حديديا ضخما وضعته بين ثيابها... تتحسس مفتاح منزلها بيابرة.

لمسته من تحت إزارها، ثم رفعت رأسها تداعب الرياح بوجهها الطفولي.

– 3 –

السبت: الثامنة صباحا.

جلست سارة على مقعدها المخصص. كانت الفترة الصباحية بالمعهد الهندسي تعد بالكثير. امتحانان نهائيان بمادتين لا تطيقهما. ساعتان لكل امتحان. ساعتان من العذاب النفسي من وقع بياض الورقة الطاغي، وقصور القلم عن خط ما يريده الأستاذ. وضع أحد الحُرَّاس الامتحان أمام سارة بعدما وضع الأول ورقة التحرير. كان يرمي ببصره نحو القمَّطر والجيوب عساه أن يظفر بورقة غش هنا أو هناك، فيَظْفر بثناء من المدير أو المسؤول البيداغوجي. حدَّثت سارة نفسها أنها ستعيد الورقة بعد عشر دقائق. ثم حركت مقلتيها بين جموع الطلبة الممتحنين.

رأت مرادا مُمسكا برأسه، لا تعرف إن كان من جراء الندوب التي ظهرت فجأة عل وجهه بعد غيابه عن القسم الثلاثاء الماضي، أم من جراء صعوبة وضبابية أسئلة الامتحان. وجدتْ نفسها قد غاب كيانها قليلا وهي ترمقه، فعقفتْ رأسها بسرعة إلى الاتجاه الآخر.

ثم أطلقتْ ابتسامة خبيثة... فقد رأت أحدهم يستبدل ورقة التحرير الفارغة بواحدة ممتلئة سلفا.

– اللعين... كان يعرف سلفا ما سنُمتحن به.

أخبرتها كوثر، قبل ولوجهم إلى الامتحان، أن بعض الطلبة لديهم ثلاثة امتحانات سابقة، يتوقعون أن الأستاذ سيختار واحدا منها. فقد كان ذلك ديدنه منذ عشرين سنة.

– فساد بين الطلبة المهندسين، بله فسادهم بعد ولوجهم لسوق العمل!

نظرتْ إلى الورقة مرة أخرى بعدما رماها أحد الحراس بنظرة اتهام. أمالت شفتها السفلى في تمعض. ثم أحست بخيوط سوداء بدأت تنساب بين ثنايا روحها، لتسقط على الورقة البيضاء وتنشر صريمها. لقد اعتادت هذا الإحساس. اعتادت إحساس فؤاد عائشة عندما ينتفض، ويتوسل مكانا بصدرها. ثم اختفى الواقع كبرق مُنكشح خلف الغيوم، لتَظْهَر ساعة نحاسية ضخمة تتمايل بالفراغ الأسود. يمنة ويسرة، متناغمة مع تحرك عقاربها المتتابع.

ثم بدأ الصريم ينشر ضبابا شديدا ملأ المكان. كما تسلط وتجبر على بُعد الزمان الرابع. تحركت قدما سارة تطوي الأرض المستترة كعفيفة وَقَرَت بخدرها. بعد بضع خطوات وجدت نفسها بدهليز ضيق. ولجته بتحفظ، ثم بدأ نظرها يستبين بعض الأشياء، يُميِّز ملامح المكان وأثاثه. كانت غرفة صغيرة الأركان وليست دهليزا... أدارت رأسها الذي بدأ يتثاقل إلى الخلف لكنها لم تجد بابا ولا ممرا. كانت الغرفة الخشبية لا تضم بين أكنافها إلا سريرا ضيقا، ولحافا مرميا بعشوائية على الأرض.

هي من رمته قبل قليل.

أحست بذلك.

لقد نهضت عائشة من هذا السرير قبل قليل، وقد تثاقل رأسها وانتشر ضباب لعين ببصرها!

ظهر باب خشبي صغير أمامها، كأنه بزغ من العدم. أرادت أن تَصِلَه، لكن دوارا مَنَعَها من التوازن فألقى بجسمها نحو الأرض. تحاملت على

نفسها وجَرَّت قدمها بصعوبة. ثم مالت الأرض بها ومادت تحت قدمها من وقع الألم، فأُلْقِي جسدها لمعانقة الأرض مرة أخرى. وقفتْ بصعوبة، ثم أسندت كفها إلى جدار الغرفة. شعرت بألم ينخر رأسها. وضعت كفها الآخر متحسسة مكان الألم. وجدت عصابة أحاطت برأسها. مرَّرت راحتها فأحست برطوبة تشمله. إنه دم، مازال الجرح جديدا قريب الشجِّ!

تلقى سمعها صياحا بعيدا لمجموعة من الأشخاص خلف الباب. لم تُميز أصواتهم ولا كلماتهم. بل ولا لغتهم... الضربة التي استوطنت رأسها هي السبب.

لكن سؤالا واحد قد قذف بها لقعر سحيق...

أين هي الآن؟....

وما هذا المكان؟...

– 4 –

كان ميلان الأرض شديدا. عَلِمتْ عائشة أن الضباب الذي غشي بصرها، والألم الذي تشعر به برأسها، لا دخل لهما بهذا الميد. لقد كانت على ظهر سفينة. تفقدتْ سارة المكان من خلال مُقلَتَي عائشة. اكتشفت أن المكان لا يشبه السفينة التي كانت مُتَّجِهة نحو سبتة، ولا الغرفة تشبه الغرفة التي كانت مخصصة لها آنذاك!... أين هي إذن؟!... دبَّ بعض الرعب إلى فؤاد سارة، فناغمه قلب عائشة. لكن الخوف لم يعق حركتها نحو الباب. روَّضت الدوار الذي كان يتضخم شيئا فشيئا، فرضخ لها وانكشح بعض الشيء. وصلت للباب الخشبي. تفقدت مزلاجه الضخم فانصاع لها بسهولة. ولجتْ ممرا ضيقا مظلما غير بعض الأشعة التي تنفذ من بين

شقوقٍ عُلويَّةٍ. وصلت لسلم خشبي. صعدت أدراجه. بعد مقاومة للألم والميلان الشديد، وصلت إلى نهايته. كانت هناك فَتْحةٌ مُربَّعةٌ قد أُقْفِلَت بإحكام بغطاء خشبي سميك. دفعته بقوة محاولة فتحه، لكنه لم يَنْصَع. وضعت كلتي راحتيها على باطن الغطاء وجمعت كل طاقتها. ضغطت على قدميها بقوة. قاومت الترنح والأرض التي تميد تحت رجليها. تحرك بعض الشيء. دفعة أخرى، فاستجاب وانفتح، لتنقشع الظلمة وتُرسل الشمس أشعتها المضيئة التي أعمت عينيها.

اخترقت أشعة الشمس مقلتيها. انقبض جفناها، لتعاود فتحهما بتؤدة. عسى أن ترشف عيناها من معين الضياء رشفة رشفة وتعتاد البهاء بعدما فارقت الظلماء. رسم الزمن أمامها لوحة تجريدية تداخلتْ رسومها فما استطاعت استيعاب ما يجري. سيوف لامعة تتلاحم في قرع مُدوٍّ. أشخاص بأزياء مختلفة تتطاير شرارة العداء من بين أساريرهم. كان زي الجيش الأبورتي ظاهرا. أما أولئك الجنود من بني الأصفر، كما تدل سحناتهم، فَهُم جيش الإنجليز دون شك. فلباسهم الحريري ورمزهم المخطوط عليه لا يحيل إلا على سكان الشمال. كان الجيشان يتقاتلان متحالفين مع عدو مشترك. كان الطرف الآخر يستعمل سيوفا يَمَنِيَّة ويلبس تروسا جلدية، ملثمو الوجوه، لا تظهر إلا أعينُهم السوداء كثيفةُ الحواجب. كانت مُقلهم ترسل أشعة تباري الشمس في ضيائها، والبحر في هيجانه. كانت ترسم على قلب الرائي مزيجا من الرهبة والطمأنينة.

عرجتْ سارة، أو عائشة فقد كان القلبان يخفقان معا، ببصرهما إلى جنبات السفينة المتوسطة الضخامة.

لا أثر لليابسة!... إنهما ببطن البحر!

ثلاث سفن متجاورة بعرض البحر. ثلاث ساحات لقرع السيوف. الأولى تحمل بيرقا أبيض يتوسطه صليب أزرق متساوي الضلعين، مزيَّن بأسهم دقيقة على حدود الصليب الأربعة. كان ذاك رمزهم الذي لن تنساه ما حَيِيَتْ. رمز البورتوغاليين الذين غزوا مدينتها وهجَّروا أهلها. أما سفينة الإنجليز فتحمل بيرقا أحمر يحتوي على نفس الرمز المُطَرَّز على زي جنودها. ثلاثة حيوانات صفراء رديئة الرسم، يُمْكِنُك أن تميز بالكاد أنها أسُود. كان ذلك شعار جيش هنري الثاني ملك إنجلترا.

كان الجيشان من بني الأصفر يلبسان دروعا حديدية يحتميان بها من نصل السيوف العربية الخفيفة والحادة. لكنها أعاقت حركتهم مما سمح لعدوهم من إثخان رجالهم بالجراح. كان الملثمون ينسابون بين جنبات بني الأصفر بسلاسة كمياه تتوسل السفح.

رفعت سارة رأسها نحو بيرق السفينة التي تكتنفها. كان أبيض تتخلله كلمة التوحيد بالأسود:

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

اتسعتْ عينا سارة وجحظت في ذهول... إنه علم الدولة المرابطية البائدة!... ماذا يفعلون هنا؟... لقد انتهتْ دولتهم!

ثم بدأ ضباب أسود يتسلل إلى بصرها. حُجِبت عنها الرؤية. زاد الألم وتناغم مع دوار شديد برأسها. أُغمِي عليها، ثم عمَّ الظلام. كانت تُحس أن يدا قد أمسكت بها قبل أن تقع من أعلى الدرج.

- سارة... سارة... سارة؟!

أحسَّت بيد باردة على كتفها. أدارت سارة رأسها متوجهة ببصرها المرعوب نحو الصوت الهامس... كانت كوثر تقف بجانبها... ابتسمتْ هذه الأخيرة قائلة:

- سأنتظرك خارجا.

أعادتْ سارة نظرها إلى الورقة... لقد فقدتْ الورقة الفارغة عذريتها، وأضحى اللون الأزرق طاغيا على بياضها!

كيف كتبتْ كل هذا؟... لم تتذكر شيئا!

قامتْ من مكانها.

أرسلتْ نظرة خاطفة نحو مراد... كانت ورقته فارغة عذراء!

وضعتْ ورقة تحريرها التي أضحتْ ممتلئة. ثم تبعتْ صديقتها كوثر.

بكاء ونحيب

- 1 -

صارحت نعيمة حسون زوجها بظهور ابنتهما بإحدى المسيرات التي نظمها اليسار الراديكالي على شاشة التلفاز. رسمتها ريشة الكاميرا التلفازية بخلفية أحد المتدخلين اليساريين. نتج عن هذا صدام عنيف بين الأب وابنته وتهارش كلامي كان لسارة حظ الأسد به. حقيقة لم تكن تراه كأب. فهو طالما تنكر لبيته واتخذ اللهو والترف خليلين دون زوجه وأهل بيته. لم يلق بالا لما يُحِيكه عقلها وما ينسجه فكرها. لم ينظر إلى ما تعتقده قبل هذا، والأهم عنده أن تتجنَّبَ الإسلاميين. ما مارس دور الأب الحق، إلا محاولات سلطوية حاول إرساءها بعد فوات الأوان.

لم تكمل سارة حديثها مع أبيها نعمان. ففي خضم المشادة الكلامية، وبعدما أضحى الزبد يتفلتُ من فم الصنباطي، تركته سارة وعرجت إلى الدرج وصولا إلى غرفتها. أقفلت عليها الباب بسخط واضح، ثم أشعلت موسيقى الهارد الروك الصاخبة. فحجب دوي صوت مجموعة كورن صياح الأب وحوقلة الأم.

- 2 -

اعتاد سكان الحي الشعبي المتاخم لشارع رافاييل سماع الأصوات المرتفعة الناتجة عن نقاش شباب الحزب الشيوعي. كان شباب الحزب المحظور يجتمعون بشقة أحد قياديي الحزب، وأحد الوجوه الصحفية

اليسارية المعروفة. لكن الأصوات قد علتْ على سابقاتها وبلغت عنان السماء... كان نقاشا حادا أرخى سلطته على المحاورين واستبد بألسنتهم. فيكفي أن تقف جانب الإقامة السكنية التي تَكتَنِف الشقة حتى تتمكن من تمييز الحوار بين أفراده. على غير عادتهم في نقاشهم حول تنظيم وقفة أو مسيرة ما، كانت الألسنة تتقارع بشدة وتتجاذب التهم فيما بينها.

انتفخت أوداج سارة الدقيقة بارزة بجانب عنقها الأهيف. كانت تتكلم بشدة وتوتر.

قبل قليل ولجتْ الشقة الضيقة ورفقاء الحزب. كان الاجتماع يهدف إلى تنظيم وقفة أخرى أمام السفارة التونسية تضامنا مع القتلى من الشعب التونسي. كان أحد شباب الحزب يُبدي حماسته للخروج بمسيرات منظمة واستغلال الحراك التونسي الذي أطاح ببن علي، والبوادر التي بدأت تظهر بالساحة المصرية. كانوا يناقشون طبيعة المطالب التي سيسطرونها بلافتاتهم، وطريقة تعبئة جموع الشعب كي تقف معهم. حاولوا أن يضعوا استراتيجية محددة ومحكمة. أشار أحدهم أن ينسقوا مع كوادر الحزب والنخبة المثقفة. قَطَّبت سارة حاجبيها وقالت:

- تتكلم عن أولئك القردة الذين رأيناهم يتقافزون على مسيرتنا سابقا؟... نسانيس تريد أن تظهر بالواجهة على شاشة الكاميرات.

قاطعها أحدهم قائلا:

- أنت لا تقصدين نخبتنا؟

- بلى يا صديقي... فأنا أتكلم عن تلك الوجوه الكالحة التي ركبت على موجة المسيرة وظهرت فجأة مدعية الصدارة والحديث باسم الشعب!

- هم من يسَّروا لنا المسيرة والوقفات التي تخللتها... لولاهم لما تمكنا من فعل شيء يُذكر!

- نعم صدقت... كنا كعرائس الحاوي... لعبتْ بنا أيديهم كما أرادوا.

- تلك رموزنا ونُخبنا.

- بل أولئك عُبَّاد الشهرة والسمعة.

قاطعها مسؤول الشبيبة رافعا صوته:

- هل تعقلين ما تتفوهين به؟

وقال الآخر في حدة مناغما علو صوت صاحبه:

- أيتها الرفيقة...

لكن سارة قاطعتهم وقد تقطعت حبالها الصوتية من وقع كلماتها المدوِّي:

- لست برفيقتكم...

بلعت بعضا من ريقها عسى أن يُرَطِّب حلقومها، وأضافت:

- حسبتكم مثقفين أصحاب وعي وحكمة. لكن للأسف تقدسون الأشخاص.

حاول بعض الرفاق مقاطعتها لكنها أكملت غير عابئة بهم:

- ننتقد السُدَّج في تقديسهم للغيبيات... لكنكم تقدسون الأشخاص... تعبدونهم... لا تتكلمون إلا بجمل منمقة بلوازمهم... لا تتحركون إلا وفق أجندتهم... إنكم ظلاميون أكثر من الإسلاميين.

قاطعها صوت مبحوح خافت آت من جهة باب الشقة:

– لا أسمح لك... من أنت حتى تنتقدين تيارنا؟... بل تحاولين نقض جمعنا.

قفل الرجل الأربعيني الباب، ثم سار بخطوات متثاقلة نحو سارة. كان طويلا نحيفا، ذا أنف ضخم يُخفي قسمات وجهه. الرفيق العشتايدي أحد القياديين ممن ظهروا فجأة بوقفة ساحة النصر... عقف جذعه حتى لامست أنفاسه وجنتي سارة، ثم قال:

– مستجدة تنتقد الرفاق.

أجابت سارة متهكمة، وقد قطبت حاجبيها، وثبتت نظرها بعينيه حتى كاد أن يخترقهما:

– رفاق يدَّعون العفة ويجلسون على كراسٍ مهمة بالدولة. يوالون من يدَّعُون عداءهم ويركبون على أمواج أي حراك!... كما ركبتم على جريمة قتل الرفيق الأمازيغي سابقا!

أعاد الرجل جسمه لقيامه ثم أرسل قهقهة مستهزئة. نظر نحو المسؤول على الشبيبة سائلا بتهكم:

– من هذه؟

سكت قليلا ثم أضاف في خُبث وهو ينظر اتجاه سارة:

– آه عرفتك... أنت تلك البورجوازية الجديدة بيننا.

نظر نحو أعضاء الشبيبة وقال:

– البورجوازيون متكبرون... يحسبون أنفسهم فوق الكل... لا أظن أن هذه الفتاة قد تنكرت لبورجوازيتها؟

خفضتْ سارة عينيها. قالتْ قبل أن ينبس أحدهم بكلمة أخرى:

- أنا أنسحب.

ثم خرجتْ من الشقة. كان ذاك آخر عهدها مع الحزب وشبيبته.

- 3 -

ركنت سارة سيارتها الميني كوبر بمرأب السيارات الشاسع جانب البناء الروماني الذي يتوسط بستان فيلا نعمان الصنباطي. ولجت صالون المنزل عبر البوابة العشتارية الزرقاء الضخمة. كان نعمان يجلس بعيدا عن المدخل بقعر الطابق الأرضي، بصالون صغير مخصص لاجتماع الأسرة. كان يشاهد التلفاز. ألقى نظرة خاطفة بعد سماعه فتح الباب. وقعت عيناه بعينيها. أرجع بصره نحو الشاشة الضخمة دون اكتراث.

تحركت نحو الدرج حتى جاورته، ثم ألقت تحية مقتضبة مختنقة، قوبلت ببرودة من طرف نعمان. حركت شفتيها الذابلتين وهي تدافع دموعا أثقلت معين عبراتها. قالت:

- لقد تركتُ الحزب والشبيبة.

ثم انفجر سد العين فتدفقت دمعاتها على وجنتيها البارزتين. ما أدركت سبب إخبار أبيها بقرارها؟

بل... ما سببُ بكائها؟

انفجرت الدموع دون سابق إنذار. أضحت تنتحب بصوت عال كرضيع حال الفطام. تصرخ باكية من ألم غير بادٍ. ظل نعمان مشدوها لحال ابنته التي انهارت تماما أمامه. ابنته الصلبة القوية. التي ثَقُل همها فأذاب الجليد الذي كان يحيط بها.

خرجت نعيمة مسرعة من غرفة صغيرة مقابلة لصالون الجلوس.

كانت مرعوبة من وقع بكاء سارة. تفلَّتَ قلبها وارتجَّ، فحملت رجليها تجري نحو ابنتها على غير هدى. أسرعت نحو سارة وعانقتها بقوة. ضمَّتها إلى صدرها ضاغطة عليها كي تستكين. عانقتها طويلا. اختفت قيمة الزمن أمام الدموع التي بللت ملابس الأم. فواست الأخيرة ابنتها بزخات دامعة.

كانت سارة تئن... تئن من تكالب الأحداث عليها... الحادثة... عائشة... غزو يابرة... خيانة مسلمة... أصدقاؤها... الحزب...

الكل خائن...

الكل كان ومازال خائنا...

إلا صدر أمها.

- 4 -

مرت أيام قليلة على الحادثة... لم تذهب بها إلى المعهد. قدَّمت شهادة طبية. أقفلت الهاتف. كانت القراءة نشاطا أساسيا لها... اختارت العزلة عن كل صديقاتها، لعلها ترتب ما اختلت موازينه بقلبها.

بعد أيام معدودة من العُزلة، فتحت متصفح الأنترنيت. لم تلج الفايسبوك منذ مدة. تفقدت الإشعارات والرسائل. أما طلبات الصداقة فقد رفضتها كلها، إلا واحدا. كان يحمل اسم مراد حبابي.

تفقدت المتواجدين. كوثر مُتَّصلة. بادرتها الحديث عبر خدمة الرسائل الفورية لموقع التواصل الاجتماعي. كان اسمها الافتراضي يحمل وَسْم روح متمردة (Rebellious Spirit):

Rebellious Spirit (روح متمردة)

- مرحبا... كيف الحال (أيقونة مبتسمة)

K'Awsar (كوثر)

- بخير.
- أين انت؟
- اختفيت منذ زمن، وهاتفك لا يرد.

روح متمردة:

- كنت متوعكة بعض الشيء.

كوثر:

- قصدتُ منزلك قبل يومين... أخبرتني الخادمة أنك غير موجودة! (أيقونة متسائلة)

روح متمردة:

- لقد أخبرتها أن تَرُدَّ كل زائر (أيقونة مجنونة)

كوثر:

- لقد رأيتك سابقا بالتلفاز... بإحدى مسيرات حزبك؟

روح متمردة:

- لقد تركتُ الحزب والشبيبة نهائيا.
- إنهم مجموعة من المنافقين... الظلاميين.

كوثر:

- منافقون؟!... ظلاميون ؟! (أيقونة متعجبة)
- ربما أراد أحدهم أن يتحرش بك. (أيقونة ضاحكة)

روح متمردة:

- لا... كانت شعاراتهم زائفة فحسب.

- أريد ان أُسِرَّ لك أمرا.

كوثر:

- (أيقونة متسائلة)

روح متمردة:

- لقد بدأ قلبي يلين للمذهب الرُبوبي... لقد حدَّثتك عنه سابقا.

كوثر:

- لا أذكر.

- فقد حدثتني عن الكثير من العقائد والأفكار. (أيقونة مجنونة)

روح متمردة:

- لقد آمنتُ أن للكون ربا وخالقا.

كوثر:

- أخيرا...

- أخيرا أسلمت. (أيقونة احتفال)

روح متمردة:

- ليس كما تظنين... فأنا أعتقد في رب ليس كرب المسلمين، ولا حتى النصارى.

كوثر:

- (أيقونة متسائلة)

روح متمردة:

- ربٌّ خلقنا وتركنا... ترك خلقه يحارب بعضه بعضا ويعيث بالأرض فسادا... ربٌّ أهمل خلقه.

- أراد قوم أن يصلوا إليه عن طريق ادعاء النبوات والرسالات... وآخرون عبر طقوس صوفية يزعمون أنهم يكلمون ربهم أثناء مزاولتها.

- ربما كان الرب هو أيضا نتاجا للتطور.

لم تعرف سارة لماذا امتلأتْ عيناها بالدموع، ثم بدأت تتقاطر على أزرار لوحة المفاتيح.

كوثر:

- أرى أن أفكارك مشوشة.

روح متمردة:

- ربما!... لكني أحس أن قلبي بدأ يتحسس النور.

كوثر:

- لقد سأل عنك؟

روح متمردة:

- من؟

كوثر:

- (أيقونة مستنكرة)

روح متمردة:

- من تقصدين؟

كوثر:

- لقد سأل عنك مراد. (أيقونة مجنونة + أيقونة قلب أحمر)

كانت سارة تقرأ رسالة أخرى على الخاص بعدما مسحت دموعها المتقاطرة. كان مراد يسألها عن سبب غيابها المفاجئ. لم تجبه. أقفلت الحاسوب، ثم استلقت على ظهرها. وذاب نظرها في الفراغ.

أشار تطبيق الرسائل الفورية أن رسالة مراد قد قُرئت. لكن سارة لم تجب. قفل مراد التطبيق، وفتح أحد المنتديات الفكرية. لا تعليق على مقاله الأخير، وعدد المشاهدات لا يتجاوز العشرين. ثم أقفل حاسوبه.

كانت المقالات التي تُغذِّي التفرقة تتجاوز مشاهداتها الآلاف!

بعد دقيقة أو اثنتين أشعل مراد حاسوبه مرة أخرى، ولج الفايسبوك، لا جواب من سارة. كرر العملية مرارا وتكرارا!...

كانت هي الأخرى تلج الرسائل مرة بعد مرة تعيد قراءة ما خَطَّ مراد بأزرار حاسوبه. كانت تقرأها كما لو أن كلمات غير مرئية تخللت سطورها. أحست برعشة بقلبها ودبيب نمل جميل يخطو على ظهرها.

أقفلت الحاسوب، ثم أعادت استلقاءها... كانت تبتسم في عذوبة... ابتسامة ذاقت حلاوتها لأول مرة.

الشمبانزي

– 1 –

بدأت المظاهرات تأخذ خطا تصاعديا وتنتشر بعدة مدن.

امتلأت شوارع القاهرة وضجَّ ميدان التحرير من وقع المتظاهرين. قبل أسبوع من الآن قاد الحراك التونسي رئيسه إلى الهروب والنجاة بجلده وجلد عائلته وزبانيته نحو المملكة العربية السعودية عبر طائرة خاصة. شجع هذا بعض الجمعيات الحقوقية إلى تعبئة شاملة للشارع المصري، وتنظيم مظاهرات ممنهجة مُرَتِّبة لمظاهرات أكبر خرج بها كل أطياف الشعب قصد إصلاح حكومي شامل. اكتسحت هذه المظاهرات الحديد الشائك للحدود العربية، محمولة عبر الأثير، وصولا إلى المغرب. كان مراد كعادته متابعا نهما للأحداث العربية المشتعلة.

– أواخر يناير من السنة الحادية عشرة وألفين، وبالخامس والعشرين منه اهتزت مصر على وقع ثورة شعبية عارمة زحفت لتشمل باقي المدن المصرية. كانت القنوات تُركز صورتها على المسلم الذي ثار مع النصراني يُلقيان حجارتهما نحو أذناب الداخلية. اجتمعت الرموز الدينية بمختلف أديانها مع الرموز السياسية بمختلف توجهاتها، صفا واحدا ضد النظام. لكن مرادا كان ينتظر شيوخا بعينيهم، شيوخا طالما غصت الفضائيات بهم داعين القوم إلى القيام من نوم الانحطاط وصناعة الرجال وبناء تاريخ جديد للأمة

وتأجيج نار الحماسة بالقلوب، ثم هم يغيبون من أهم حدث شهدته بلادهم، إلا قليلا منهم خرجوا ووقفوا بجانب الشعب. كان أحد الدعاة الذي فضل عدم الظهور لخمسة أيام، قد خرج من مخبئه وأظهر سوأته على شاشة موالية للنظام، حثَّ فيها الناس على الرجوع إلى منازلهم وَأْدًا للفتنة، قال إنها نائمة، ملعون من أيقظها. تفل مراد على شماله ثلاثا وقال في نفسه متهكما:

– أعوذ بالله من خنزب... شيطان عَطِب... ذو عقل خرِب... من الشهرة قد طرِب... نَتَنُه قد أزِب.

سمعه حسن فأطلق ضحكة ضجَّت منها مقهى الداخلية... ضمَّ مراد شفتيه ثم أرخاهما مبتسما... قال لصاحبه في حسرة، إنهم قوم لا يُحسنون إلا الجعجعة. أعاد نظره نحو الشاشة المُعلَّقة. رشف قليلا من القهوة السوداء، وقال دون أن تفارق عيناه الشاشة:

– مصر هي قلب العالم العربي والإسلامي... وما سيطرأ بها من أحداث سينعكس على أطراف الأمة الأخرى.

كان حسن يُداعب هاتفه الذكي، فمقهى المعهد تُقدِّم خدمة واي فاي مجانية للطلبة... كان يدردش مع أحدهم عبر التطبيق الجديد الذي اشتعل العالم بتحميله واستعماله. تطبيق الواتس آب. لم يرفع عينيه هو الآخر عن شاشته وقال:

– يقول بعضهم إن هذه الثورات العربية محبوكة السيناريو والأحداث من طرف الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الغربية.

ابتسم مراد قائلا في استنكار:

– شيطنة المتظاهرين؟!

- لا... هناك وثائق تقول إن بعض الحركات والرموز التي أشعلت الثورات التونسية، والثورة المصرية خاصة، تلقَّت تدريبا ببلاد العم سام!

- نعم ممكن... ربما تتقاطع مصالح الشعوب العربية مع المصالح الأمريكية لأول مرة... وربما أن الأمريكان هم من صفعوا البوعزيزي على وجهه وأشعلوا به النار بعدما سكبوا البنزين عليه؟!

قالها مراد وهو يرسم رسما كاريكاتوريا بخياله لأفعى كبيرة تأكل فأرا كان يعيش في الزرع فسادا.

- 2 -

انتشرت الفتاوى المحذرة من الخروج إلى المظاهرات السلمية. أُلْحِقَت صفة الخوارج بكل من وطئ مظاهرة أو وقفة، حتى أن أحد الشيوخ الكبار أفتى بجواز قتل المتظاهرين من طرف ولي الأمر لأنهم خوارج، ولو كانوا نساء أو أطفالا!... كما ركن كثير من المربين والدعاة إلى الصمت والسكوت بحجة اجتناب الفتنة، وهم من كانوا يعيثون بالساحة الإسلامية تحريضا.

انقسمت التيارات الإسلامية فيما بينها مرة أخرى اتجاه الحراك العربي. كانت هذه الرياح الربيعية مُلَقِّحة لبراعم المشارب العقدية والحركية المختلفة، مما أنتج تويجات جديدة بين النخب الإسلامية، انشقت على سابقاتها وأسست فكرا مستقلا. وأخرى تلقَّحت فانسلخت تماما من فتاوى الماضي تماشيا مع الموضة الثورية الجديدة، أو تناغما مع فتاوى مشايخهم الكبار. فتعزَّز ظهور ما أصطلح عليه بالسلفية الحركية التي لا ترى بأسا في خوض بحور التظاهر والتنديد السلمي، والمشاركة السياسية الديموقراطية، بعدما كانت تُحرِّمها قبل أيام قليلة، فامتزجت

أفكارها مع رؤى الجماعات الحركية المخالفة سابقا، المتوافقة حاليا.

كانت جماعة الجماعة من الحركات التي ركبت على الحراك العربي وأضحت تنظم مسيرات ووقفات مُنَظَّمة مُجَدْوَلة مع رَفْع سقف المطالب الاجتماعية عامة والسياسية خاصة. لكن ما خنق مرادا هو موقف حركة النهج والإصلاح وجناحها السياسي حزب الوحدة الحُرَّة الإسلامي. كان يُمنِّي نفسه أن تستفيق قياداته وأن تساهم في تغيير المناخ العام المحبط السائد بالبلاد. لكنها ركنت لخمولها، رغم التصريحات التي أطلقها قياديو الحزب والحركة حول رياح التغيير والحراك العربي الربيعي. بلغ مراد بعد ذلك أنهم منعوا شبيبتهم من الخروج يدا بيد مع جماعة الجماعة أو أي فصيل سياسي وحركي. أمروهم أن يركنوا إلى التقاعس، ومن أراد الخروج فلا يحمل شعار حركتهم ولا حزبهم، ومن فعل فمصيره الطرد!

– 3 –

مادة الاحتمالات... ساعتان من العذاب المتواصل بين مقاصل معادلات لا يستقيم فهمها، ومشانق تعريفات لا تجد بالعقل منفذا. كان الطلبة المهندسون تتخاطف أَلْيُهم على المقاعد الخلفية. يدخلون كفئران هائجة تهرب من بوادر زلزال مؤكد. كانوا يتوسلون طيِّ عقارب الزمن البطيء بين نوم، حديث هامس، ألعاب فكرية، أو أي نشاط يصلح لتصفح دقائق الساعتين سريعا. أنشطة كانت تتكاثر وتلد وتُفرِّخُ نشاطات أخرى داخل كثير من مواد السنة الأولى الرتيبة.

ولجت سارة وكوثر القسم بذيل ترتيب الطلبة... لن تجني طبعا هدية خشبية تجلس عليها بالخلف. تحسست الشابتان، بعيون متثاقلة من أثر

وجبة الغداء، المقاعد الفارغة. أشارت كوثر لمقعدين متجاورين فارغين. على كل حال ليس هناك خيار آخر. كانا قابعين بأقصى يمين الصف الثاني.

غمزت كوثر رفيقتها مع اقترابهما من المقعدين. فقد كان يجلس أمامهما. اهتز قلبه هو الآخر، وقد سرت بفؤاده طمأنينة افتقدها مع غيابها الطويل عن المعهد. كان وقع قدميها الصامت يعزف سمفونية عاطفية بأوتار أعصابه. كل الكون كان يسمع، كله كان يطرب معه، إلا بني الإنسان. وما أراد أن يسمعه أحد، وأن يشاركه طربه أحد، سواها... وحدها.

كان مراد يجلس بمقعد أمام المقعدين الشاغرين. لمحته سارة، أرادت أن تبدل المكان، لكن كوثر أبت إلا الجلوس هناك. فلا مكانا شاغرا بَيِّنا إلا ذاك!

علم أنها ستكون آخر من يلج، فترقب مكانا شاغرا أمام كرسيين فارغين. وجد مكانا مناسبا، بل لم يكن غيره. جلس به وانتظرها كي تدخل هي وصاحبتها. وها هي تضرب الأرض بنعلها، بل تضرب قلبه فتهتز له كل أوتاره. جلست خلفه، كانت نسمات أنفاسها تحتَكُّ بذرات الهواء فتحمل له رسائلها المُشفرة. ثم داعبت سمعه كلماتها كألحان خافتة جميلة تزهر الأرض لها وتغرد العنادل فرحا بسماعها. أخذته همساتها إلى بحور من الوجد، لم يعرفها ولا خالط ماءها قبلا، كأنه وُلِدَ من جديد، رضيع يكتشف العالم لأول مرة.

بعد دقائق لم تتجاوز الخمسة، دخل أستاذ المادة بدوره القسم، فاختفى الكلام وانكشح فلا تسمع إلا همسا شاردا هنا وهناك. اتجه نحو مكتب خشبي قابع بأعمق مكان بالقاعة على يسارها. وضع فوقه حقيبته الكستنائية

الضخمة، ثم جره بقوة فأحدث صريرا قويا ضجت له كل قاعات المعهد وأروقته. لم يساعده أحد، فقد عَنَّف قبل هذا طالبا حاول مساعدته، وأمره بالجلوس. كفَّ عندما توسط المكتب المكان. أخذ ورقة، طواها عدة مرات، ثم حشرها تحت إحدى أرجل المكتب كي يستقيم توازنه. كان رجلا خمسينيا حليق اللحية، احترق شاربه الضخم من كثرة التدخين. مُدَخِّن شره تتناوب مقعدته بين الكرسي وعتبة إسمنتية خارج القسم يُدخن عليها.

جلس ثم بدأ في سرد قصة الاحتمالات. نعم، قصة، فقد كان يُلقي الدرس كحاوٍ بجامع الفنا يحكي أزلياته المتكررة. زاد صبيب كلماته الرتيب تأثير جرعة مادة الصودا الزائدة بالأكل، فأضحت الأعين التي تراقبه لا تُدرك من أمور الدنيا إلا النوم!... حتى أن شخير بعض الطلبة كان يرتفع صداه من الخلف فيُلَوِّثُ الصمتَ، ويرسم مشهدا كوميديا بالأجواء.

لكن، لا يخلو مكان من خَوارق وكرامات. طلبة مُجِدُّون، أعينهم تتابع كل كلمة تخرج من شفتي الأستاذ، لا يدعون واردة إلا تلقفوها... لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة... إنهم الخارقون... أفتك من خارقي مارڤل.

مالت كوثر بعض الشيء اتجاه سارة، فاقتربت هي الأخرى من صديقتها. قالت كوثر في همس:

- قلتِ لي إنك أصبحت مؤمنة؟

ابتسمت سارة قائلة:

- بل ربوبية؟
- يعني مؤمنة بالرب؟
- نعم... لكن كما قلت ليس كما تعتقدين... الأمر أكثر تعقيدا مما

تتصورين... ثم أنا ما زلت أؤمن بالعلم، ولا شيء إلا العلم... والعلم يؤكد أننا تطورنا وارتقى جنسنا عبر مراحل.

ابتسمت كوثر ملء شدقيها وقالت:

- ما أجمل أن تؤمني إيمانا بسيطا... تعلمين؟... اكتشفتُ أن ديننا بسيط سهل، وعقيدتنا سهلة لِمَنْ تَوَسَّلَهَا.

غمزت سارة صديقتها، ونكزتها بمرفقها قائلة:

- لذلك يستغلكم تجار الدين بسياساتهم... ويُسيرونكم بقوة ناعمة دون وعي.

قطَّبت كوثر حاجبيها مستفهمة. فغالب حديث سارة لا ينفذ إلى عقلها. كانت كوثر مسلمة مؤمنة، تصلي وتصوم وتكثر الصدقات، رغم عدم التزامها الظاهر. من أسرة فاسية محافظة، ورثت عنهم إيمانهم البسيط كما ورثت الترنم على ألحان الطرب الأندلسي، وتبخير المنزل كل يوم جمعة بعود فاخر. كما كانت كثيرا ما تقوم الليالي بالصلاة والذكر خاصة قبل الامتحانات.

تابعت سارة حديثها:

- كَوْني ربوبية لا يعني أنني لا أؤمن بالعلم مثلكم... تُنكرون التطور وهو حقيقة علمية... بل أكثر من ذلك... أتدرين أن الآلهة هي أيضا نتاج للمادة الام؟

ضحكت كوثر بصوت مرتفع، ثم ألجمت فمها بعد نظرة صارمة من الأستاذ... انتظرت قليلا ثم قالت:

- هل تعتقدين أنت أيضا أننا قرود؟!

- بل أصل كل الأشياء بالكون مادة حية واحدة... كل شيء... حتى الرب!

صمتت سارة قليلا تتذكر شيئا، ثم أضافت:

- هل تعلمين أن جينات الشمبانزي تشبه جيناتنا بـ 98 في المائة؟

برزت عينا كوثر الخضراوان متلألئتين تحت ضوء النيون المشتعل... تمتمت:

- 98 في المائة؟!

هزت سارة رأسها بكل فخر كأنها حققت إنجازا غير مسبوق. ابتسمت. ثم اخترق حوارهما صوت هامس هتك ستر الأنفة التي روتها سارة بماء العلم كما زعمت:

- بل لا تتجاوز واحدا من ترليون في المائة.

اعتدلت جلسة سارة واستقام جذعها من وقع همس مراد. ربما أرعبها تدخله الذي لم تنتظره!

تابع مراد حديثه محاولا أن يُداري تأتأة اجتاحت لسانه ولَعْثَمَتْ قلبه:

- معذرة إن تدخلتُ بحديثكما دون إذن. لكن جينات الإنسان لا تشبه جينات الشمبانزي إلا بنسبة ضئيلة جدا.

كان يتكلم وهو يضع عينيه على الطاولة متحاشيا عيني سارة وصاحبتها. ابتسمت كوثر وألقت نظرة ماكرة نحو صويحبتها... لقد أخبرتها أن مرادا يستلطفها وإن لم يحدثها سابقا. كانت نظراته من خلف عينيه مفضوحة تفصح عن مكنون قلبه. أخبرت سارة سابقا لكنها نهرتها، وادعت أن الظلاميين لا يعرفون الحب. قالت لها كوثر إن الحب لا يفرق

بين سلفي وملحد. تكبرت وأقفلت الحوار. وهكذا كان فعلها كلما فاتحتها كوثر حول مراد.

كانت سارة تعي مشاعر مراد نحوها. كان لقاؤهما الأول كافيا كي تفصح كلماته عن مكنون جنانه. أحست به، أحست بنظراته المداعبة لفؤادها. قرأت ما كان يُرسله لها بين ثنايا الهواء، ربما كان يفصح للقمر ما ادلهم به، فيحمل مكنونات فؤاده كألحان تدغدغ سمعها وتنفث بَسْمَتَها بقلبها.

لكنه ظلامي رجعي، ذاك ما كان يسره عقلها، يناطح قلبها ويُهارشه، ربما سمعت صليل صارمي العقل والقلب، يتعاركان بساحة الحب.

- ماذا تقصد؟

استفهمت كوثر كي تكسر جسر الصمت الذي شيَّدته نظرات سارة، وغضُّ مراد لطرفه. لم تكن سارة عاجزة عن الرد بل شيء ألجم لسانها وكشح نبرتها. أخذ مراد دفتره، وفتحه على ورقة فارغة. أدار كرسيه كي يتمكن من الشرح وبدأ يخطُّ أرقاما وحروفا على بياض الكراسة... حاكى لسانه قلمه قائلا:

- لقد أشار باحثان غربيان... أظن أن اسميهما سيبلي و و و...

بدأ مراد يكرر حرف الواو يتذكر اسم الآخر، فقاطعته سارة مذكرة:

- سيبلي وألكوست.

ثم همست بخاطرها:

- لا يعرف اسمي العالمين ويريد مجادلتي... ظلامي لا يفقه شيئا!

لم يسمع مراد ما كانت تُتمتم به. ابتسم وحرك رأسه موافقا... ثم

أضاف وهو يداعب الورقة بقلمه الأزرق:

- قام سبلي وألكوست بدراسة ما بين ثلاثين وأربعين عينة بروتينية للشمبانزي.

رفع رأسه نحو سارة مستفهما عن مدى صحة معلومته. ضمَّت شفتيها وأمالتهما يسارا حتى زاحمت وجنتها، ثم أشارت بالإيجاب.

تابع مراد:

- الإشكالية في طرحك آنسة الصنباطي أن الدراسة غير شمولية. فالإنسان لديه مائة ألف بروتين.

- واااو... مائة ألف بروتين!

قالت كوثر وهي تُثَبِّتُ نظرها على الرقم المرسوم بالورقة.

- نعم... إذن وببساطة... كبساطة إيماننا (ابتسم مراد في مكر). إن كانت نسبة 98 في المائة متطابقة مع أربعين بروتينا فقط، فتعميمها على مائة ألف بروتين لن تُفرز دراسة إحصائية سوية، وهذا ما يُسميه علماء النفس بالعينة المُنحازة التي نختارها وفقَ هدفنا... إذن لا يُمكن بأي حال من الأحوال اعتبارها نموذجا حسابيا يصف لنا نسبة تطابق الجينات البروتينية... أراد بعض الباحثين أن يُعززوا من بحث سبلي وألكوست لكن أبحاثهم مُنِيَت بالفشل الذريع!

أدار مراد الورقة نحو الشابتين. تابع حديثه حول طرحه، وكتب بعض العلاقات الرياضية الإحصائية، وبعد المنطلقات العلمية التي لابد أن توضَّح قبل أي تجربة علمية قائمة على أنموذج إحصائي أو رياضي.

- أظن ألا إشكال عندك في فهم هذا... علوم رياضية، وأقسام

تحضيرية. (حدَّث مراد سارة)... ثم هل تعلمين أن جينات الشمبانزي هي أكبر من جيناتنا... إذن فلا تشابه بينها إطلاقا!

- نعم فهمتُ (قالت كوثر كأنها ظفرتْ بربح عقلي غالٍ)

- وهل تعلمين أن انطلاقا من نفس مبادئ دراسة سبلي وألكوست فنسبة تشابه جيناتنا مع الفأر هو 99 في المائة.

انفجرتْ كوثر ضحكا.

- سي حبابي... من فضلك خارجا.

عقف مراد رأسه نحو الأستاذ بتؤدة. وجد عينيه تنفث شررا وسبابته تشير نحو الباب. أرسل ابتسامة ممتعضة... همس خلفه:

- سارة... الحمد لله إنك بخير وعلى أتم صحة وعافية... لقد اشتاق لك المعهد.

اعتذر مراد للأستاذ على الإزعاج الذي أحدثه. ثم حمل كراسته وخرج من القاعة.

كان قلبه يخفق بشدة...

أما سارة فقد كانت مشدوهة متفاجئة... لقد سُرق قلبها منها.

وضعت كفها تتحسس مكانه خلف صدرها.

- 4 -

- سارة... سارة... سارة

تسلل اسمها همسا إلى وعيها فقد كانت تسبح ببحر هدأت أمواجه فجأة فسكنت روحها معه... حرَّكت شفتيها حالمة:

- نعم...

دفعت كوثر ورقة تركها مراد قبل أن يخرج من القاعة، أمسكتها سارة ومسحت أحرفها بعينيها. كانت تَحوي جملتين اثنتين. أولاهما مقولة لعراب الإلحاد الحديث، ستيفن هوكنج:

«الجنس البشري ليس إلا حثالة كيميائية على سطح متوسط الحجم»

ذيَّلها مراد بتعقيب بسيط:

هل نحن حثالة؟... ما هو موقع الأخلاق ومجابهة الشر بعقيدة كهذه؟... وهل هذه هي كونية الأخلاق التي كنتِ تقصدين؟

كَمُشَتِ الورقة براحة سارة بعد أن قبضتها وعصرتها بشدة. ثم مزقتها إلى قطع صغيرة ورمتها بقمَّطر الطاولة.

منورقة

– 1 –

بدأ الضباب يخبو من أمام عينيها، وأضحت الصورة تُظهر أحرفها وحوافها. كانت قسمات الشخص الذي أمامها تُرْسَم رويدا رويدا. أعين سوداء تعلوها حواجب كثيفة، أنف ضخم وشفتان مكتنزتان. لا تدلُّ سحنته على انتمائه لبني الأصفر، رغم التروس الحديدية التي كان يلبسها والصليب الأزرق الضخم الذي كان يتوسطها. رفعتْ يدها اليمنى بخفة وهوَتْ بخنجرها على صدره فتطاير الدم حتى أغرق وجهها. أزبتْ معه دمعة من عينها، فقد كان أول شخص تقتله بعد صديقها مسلمة.

كانت سارة تحرك بصرها عبر مقلتي عائشة يمينا وشمالا. لقد اختفت السفن ومياه البحر من حولها. كان هناك شاطئ يلوح بعيدا على مسافة ميل وأكثر. أرسلتْ عينيها اتجاه ملابس عائشة. رأت تروسا جلدية تغطيها، وسبائك حديدية تُخفي قدمها. كما اختفى ذراعها وجزء من كفها تحت نفس نوع السبائك، التي تحمل زخرفة نباتية. كما أرخت خمارها على رأسها، وحشرت أطرافه تحت ترسها الجلدي وشدَّته كي لا يُعيق حركتها. عرجت سارة بعينيها نحو الأشخاص الذين كانوا يُحيطون بها. إنها نفس السحنات التي كانت تتقاتل مع بني الأصفر بعرض البحر.

بدأ عقلها يعمل بسرعة ويرسم لها مشاهد لم تعشها ولم ترها قبلا من حياة عائشة.

رأت صورة رسمت ريشتُها جسدَ عائشة، مستلقية على سرير تُطَبِّبُها امرأة، وتُدير عصابة على رأسها. ثم مشهدا آخر لعائشة واقفة مع أفراد من الجيش المرابطي. بل إنهم المجاهدون البحريون، لقد اختاروا البيرق المرابطي كما علِمتْ، تَيَمُّنا بالدولة التي كانت تحتضن أغلبهم. عرفتْ أسماء بعينها، فقد كانوا من مشاهير دولهم قبل أفولها بسبب الموحدين. شخصيات اختفى خبرهم، لكنهم كانوا هنا. فذاك تاشفين بن إبراهيم بن تاشفين بن علي، ابن آخر حكام المرابطين، والآخر أحد كبار القادة الحماديين ممن لم يُعثر لهم على أثر بعد إسقاط حكمهم، وكثير من جنود الدول البائدة على يد الموحدين، من بني الورد وبني خرسان وبني زيري.

صورة أخرى تشكَّلتْ فوق سابقتها لجزيرة مهجورة تُخفي مرسى به سفينتان متوسطتا الحجم، يلوح بيرق المرابطين في أعلى ساريتيها. إنها جزيرة منورقة، وهي مركز المجاهدين البحريين ومنطلق عملياتهم.

مرَّت سنتان على إنقاذها من فكَّي قراصنة قشتاليين، كانوا يتعرضون السفن الموحدية التي لا حراسة بها وينهبون الأموال ويسبون النساء والأطفال، ولا يتركون رجلا إلا وجَزُّوا رقبتهم. أنقذ المجاهدون أغلب نساء وأطفال السفينة، لكنهم تأخروا فقُتِل الرجال كلهم. وجدوا عائشة غارقة في دمائها، أخبرتهم بعض النسوة أنها عضَّت رقبة أحد القشتاليين وخربشت بأظافرها وجهه، فهوى أحدهم بِنَبُّوتِه على رأسها كي تكُفَّ. وما أنقذها إلا اجتماع بعضهن حولها فحملنها إلى مكان قصي. أوصل المجاهدون النساء والأطفال بعد إنقاذهم إلى ميناء سبتة. اختارت عائشة أن تبقى معهم. حَدَّثتهم عن موطنها وسبب رحلتها، فوافق أميرهم الحسين

بن علي الزيري أخو أبي الحسن بن علي آخر ملوك مملكة بنو زيري. وبطريقهم إلى جزيرة منورقة، داهمهم جنود أبورتو والإنجليز. كانت عائشة مازالت تعاني من تبعات النَّبُّوت. كانت نائمة بغرفة خُصِّصت لها. أفاقت، تحاملت على نفسها حتى صعدت للسطح، لكنها سرعان ما غابت عن الوعي بفعل الدماء التي تفجَّرت مرَّة أخرى بجرحها.

كان هذا المشهد هو ما رأت سارة آنفا، لكن لم تفقه معناه!

قضت شهورها الاولى مع نساء المجاهدين. لكنها كانت تريد أن تخرج للجهاد. كانت صفوف المقاتلين لا تضُمُّ إلا ثلاث نسوة، تمتهن الطبَّ ولا يُحسِنْن القتال. حاولت إقناع أمير المجاهدين أن يسمح لها في الخروج إلى القتال بجانبهم، لكنه لم يستجب. فأُلحِقتْ بصفوف النساء الثلاثة، وأضحتْ تُطَبِّب الجرحى هي الأخرى.

لكنها كانت تتدرب سرًّا على استعمال السيوف اليمنية والأطاس والمخالي[1]. أتقنت فنَّها، وأضحت حركاتها شيئا فشيئا أكثر انسيابية وأمتن في الضرب. رَجَت الأمير الحسين مرة أخرى، وتوسَّلت تَوَسُّط زوجه. لكنه رفض ثانية.

في يوم من الأيام، وبتشابك مع جنود أرغون بحاضرة بلنسية، كان تاشفين ابن إبراهيم بن تاشفين قد اختل توازنه وكاد الصليبي أن يقتله. غرس سيفه أولا بفخذه ثم أثخن ذراعه بالجراح. أنقذته عائشة بعدما تهالكت طاقته واستسلم للقتل.

---

(1) الأطاس: الخناجر المعقوفة
المخالي: المقاليع

وَثَبَتْ كلبؤة هائجة، وصدَّت سيف الأرغوني المُصَوَّب اتجاه قلب المجاهد. وبحركة سريعة دوَّى بها وقع سيفها الذي احتك مع سيفه، أزاحت حسامه، مما أدَّى إلى اختلال توازنه، ثم نزعت خنجرا معقوفا من حزامها بيدها الخالية، وطَسَّته بقلب الصليبي.

كان أول شخص تقتله بعد حادثة مسلمة.

تسلَّل ضباب أسود إلى المشهد، ثم ساد الظلام مرة أخرى.

– 2 –

ظهر وجه سارة أمامكَ فجأة، كأن مصباح نيون شديد التوتر، أُضيءَ مصوبا أشعته مباشرة نحوها. تحرَّك وجهها إلى الخلف، بل كانت كاميرا المشهد هي من تتحرك حتى شَمِلَتْ عدستها جسد سارة وهي واقفة أمام ساعة نحاسية ضخمة. أخذت بعد ذلك تَلْتَفُّ حولها شيئا فشيئا وترتفع، في مسار لولبي حتى أحاطتْ لَكَ بالمشهد كله.

سارة تقف أمام الساعة، متوسطةً شاشة أسطوانية ضخمة تظهر بها مشاهد قتال عديدة. مشاهد لعائشة تقاتل جيش أرغون تارة والقشتاليين تارة أخرى. لقد أصَمَّكَ قرع السيوف ووقع سنابك الخيول، كما داعب سمعكَ صوت التكبير هنا وهناك. بدأتَ ترى طيفا يتشكل شيئا فشيئا أمام سارة، حتى استحال جسدا.

أضحت عائشة تقف أمام سارة، تبعد عنها بنحو أربعة أمتار. ثم بدأتْ تتحدَّث:

– لقد أقنعتُ الأمير الحسين بن علي الزيري بتفوقي بالقتال، وبملكتي في حمل السيف واستعمال الأطاس والمخالي... أصبحتُ

أشارك المجاهدين قتالهم. قمنا بمناوشات بحرية وبرية. نُغِير على سفن عَدُوِّنا وعلى ثكناته العسكرية الساحلية. نقوم بعمليات داخل حواضرهم. لكن قلبي ما استكان بعد، فلم أشارك بأي عملية تهدف النيل من البورتوغاليين.

بدأت الشاشة الأسطوانية ترسم مشهدا آخر. يمكنك أن ترى من هنا، خاصة أن الكاميرا قد وَضَعَتِ المشهد بإطارها، ثكنة عسكرية بجانب مصب نهر تاجة بأشبونة. خَفَتَ المشهد لترى عائشة وهي تمتطي حصانا أسود يعدو بسهل واسع. بعد حين ولج غابة كثيفة. ربِطته بإحدى الأشجار بعيدا عن الثكنة، ثم اقتربت من تجمُّع عَسَس الأبورتيين. لمحتْ عسكريا يحمل رمحا طويل يحرس الخيمة الضخمة. تسللتْ وراء شجرة قريبة منه ثم قالت في تدلل بلغة البورتوغاليين:

- أيها العسكري الفاتن.

ألقى البورتوغالي ببصره نحو منبع الصوت.

- من؟ (قال في ارتباك)

أظهرت نفسها، ثم أعادتْ جملتها في غنج.

- من أنتِ؟ (أعاد تساؤله في هلع)

لم يكن يرى إلا جسدا أسود، امرأة تُغلِّفها الظلال.

- أنا؟ (أطلقت ضحكة)... أنا عائشة القديسة روح تتمثل للفرسان الشجعان أمثالك.

صمتت قليلا، ثم أضافت:

- تعال... إنني أنتظرك.

ثم توارت مرة ثانية خلف الشجر... التفتَ البورتوغالي يمنة ويسرة ثم قصد بخطوات مسرعة مكان ظهور القديسة... توقف جانب الشجرة يتحسس المكان.

فجأة... وقعت رأسه أمام جسده... ثم تبعته الجثة بعد ثانية واحدة.

ظهرت عائشة تُمسك بسيف يقطر دما... قتلت حرَّاسا آخرين كانوا ينتشرون بجانب المعسكر. تسلَّلت إلى النار المشتعلة ونَكَّسَت لهيبها، كان الوقت يقارب الغروب. ثمَّ سُمعت أصواتٌ مكتومة وراء جدار الخيمة... لم يكن هناك إلا عسكري واحد... كان قائدهم... تركته وراءها ميتا مُمسكا بخمارها بيده بعدما جَرَّه أثناء مقاومته لها.

استقلَّتْ حصانها الأسود، ثم بدأ يمشي بخطوات متثاقلة متناغمة كأنه باستعراض عسكري. نظرت إلى يدها الملطَّخة بالدماء، ثم أطلقت ابتسامة رضى. أرخت رأسها للخلف وأرخت يديها الدقيقتين على جانبي جذعها بعدما أرجعت سيفها إلى غمده وحشرته بسرج الحصان. كانت يداها تهتزان مع وقعات حوافر حصانها المتناغمة ذهابا وإيابا... ثم أغمضت عينيها السوداوين، فهي تعرف أن حصانها يعي جيدا وجهته وهدفه... غطى شعرها الكثيف والسميك جل ظهرها حتى لامس السرج المزركش بألوان خضراء وحمراء تمازجت في خليط متجانس بهي...

قطعت زهاء النصف ميل وما حركت ساكنا... كانت ترتاح في فراغ خيالها الذي نُكست ذكرياته المؤلمة قبل هذا بقليل، رفعت يديها في تكلف واضح، واضعة إياها أمام عينيها اللتين ما فتئتا تتفتحان رويدا رويدا... ثم نظرت إلى كفيها المتلطخين بالدماء... نجيع مثقل بذكريات يابرة التي

كانت تهجر خيالها مع كل قطرة نجيع ساخن تسقط!... لكن رغم هذه الملحمة لن تنسى سكان يابرة ما حَيِيَت!

مازال اللون الأحمر فاتحا والدم مائعا... مازال ذاك الابن البار لانتقامها حيا طريا تتلاعب به أناملها... حرَّكَتْها في تثاقل وتلاعب كأنها تحاول فهم إحساس الدم... أو قل كانت تتحسس إحساس صاحبه المقتول... ذاقتْ لُزوجته بفرك إبهامها مع السبابة، ثم ابتسمتْ في رضى... هذا نجيع البورتوغاليين ودمهم المسكوب على نصلها اللامع... نصلها الذي ما زال يأبى الرجوع إلى غمده.

قرَّبَته أكثر إلى وجهها الصافي، ثم سقطت قطرة فوق جبهتها البارزة، انتظرت قليلا لترسل ضحكة هستيرية ضجَّ لها سكون الغاب وصمت الغروب...

رجَعتْ تتأمل فيه كطفلة أهديت لها لعبة طال انتظارها، كانت سعادتها واضحة... بل همت أن تداعبه بلسانها، لكن ساديتها الكاملة لم تستيقظ بعد... بعد دقيقة من التأمل الدموي أعادت كفها إلى مستقره، ورأسها إلى استوائه...

تابعت ابتسامتها لتقترن مع تشنج مقتضب بين حاجبيها الدقيقين... فهي لم تعد تعرف نفسها، ولم تستطع فهم غرائزها المتفجرة...

قد نسيت ذلك بل قل تناسته، ولا تذكر إلا تلك الشهوة في سفك الدماء.

بعد حين وجدت نفسها وسط مرج فسيح، قد غطى احمرار المغيب قسماته وتفاصيله... أوقفت الرفيق الأسود وأخذت تتأمل في الشفق الذي بدأ يعانق الأفق البعيد... ثم رفعت يديها مرة أخرى، وأخذت تجاور الكفين الدقيقين المخضبين بالدماء شيئا فشيئا أمام مُحيَّاها، إلى أن

توسطهما الشفق... لتصيح بأقوى ما تملك من قوة... صيحة هربت منها الطيور الجاثمة على زرع متناثر أو ثمرة شاردة...

أرسلت من قدميها العاريتين إشارة لرفيقها أن أعدو وسارع الريح... فانطلق وسط السهل الواسع ليسابق صدى صوتها الذي مازالت تردده الأعشاب والأحجار من حولها...

بعد حين بدأ الليل يرخي بأسداله وحلكته... ليخالط شَعْرَاهُما اللاهثان سواد الديجور الدامس، ويعطيا ميلاد ليل جديد تمازج مع صريم السماء ليزيدها سحرا وغموضا!

قبل ساعة... ووسط الغابة الساكنة...

بدأت ملحمتها الأبدية...

هناك وبجانب ثكنتهم، ووسط جمعهم قد قرعت جرس الانتقام!

لقد أعلنت الحرب على البورتوغاليين...

ستنتقم منهم واحدا واحدا...

وتقطع أعناقهم وريدا وريدا...

الآن والآن فقط قد صاغت عنوانا فريدا لحقبة جديدة...

عنوان مجلجل يَهُزُّ الآفاق ويُكسِيها بنجيع الدم...

الآن قد أعلنت أسطورتها وبداية قصتها التي ستمتد أناملها عبر القرون...

لقد أعلنتها أسـطـورة سـرمـديـة...

كان اسمها...

عـــــايـــــشـــــه القديسة

- 3 -

انتشر خبر القديسة عائشة بين الأبورتيين، وكثرت الإشاعات حولها... كما كثر ضحاياها وقتلاها... كانت تسحرهم بحديثها الناعم، فتسحر عقولهم ويتبعون مصدره، وما إن يقتربوا حتى تُقطع رؤوسهم وتقذف بالهواء. تتبعها ضحكة جنونية سرعان ما تخفُت وتتوارى بالسماء.

كانت بعض الأخبار تقول إنها روح من أرواح الموتى الأندلسيين، جاءت تنتقم من الغزاة الصليبيين. وآخرون قالوا إنها قديسة نصرانية تُقيم الحدَّ على الجيش البورتوغالي، لأن البورتوغاليين لم يتَّبِعوا تعاليم يسوع وحادوا عن صراطه، وأنها ستبدأ في قتل القساوسة بعدما تُكمل إقامة حدِّها على العسكر. كما انتشر اسمها بين سكان سبتة والحواضر الموحدية. وقد أسَّر بعضهم لبعض أنها ستُخرِج الموحدين من سبتة مرة أخرى.

استقرَّت عائشة بحاضرة غير بعيدة عن سبتة، ترتاد صومعة شيَّدتها كي تخلو بنفسها بضع أيام متباعدات عساها ترمي بظلام الانتقام من قلبها. أحست أن فؤادها بدأ يُظلم شيئا فشيئا، فباعدت بين عملياتها الفردية ضد البورتوغاليين، وقَلَّصت مرات خروجها مع المجاهدين البحريين. أخبرت الحسين أنها تحتاج لاعتكاف تُزكي به فؤادها. سمح لها، وخيَّرها إن أرادت المغادرة. لكنها رفضت، وأبت إلا أن ترجع إلى الجزيرة مرة بعد مرة. سألها عن عملياتها اتجاه البورتوغاليين، فأجابته إنها لم تزل عطشى، وستروي ظمأها عمَّا قريب.

اشتهرت بين الناس بسبتة والضواحي بلالا عائشة. كانت طالبة علم تجلس بين يدي العلماء، خاصة العلامة محمد بن حمادة السبتي. كانت

تتردد عليه كثيرا، تحمل له أخبار الجهاد، وتجلس لطلب العلم، ثم تختفي. إنها بصومعتها، معتكفة تعبد ربها، ذلك ما كان يتكلم به الناس. أو تجوب القرى والدور تعين المساكين والفقراء وتوزع بينهم ثروتها... فقد حُبِّبَت لها السياحة.

- إنها غنية، لديها كنوز عديدة بصومعتها.

قال أحدهم لصاحبه، فأجابه الأخير:

- إن الله يُنزِّل ذهبا من السماء على صومعتها كل ليلة.

كانت كلما رجعت إلى معتكفها، وجدتْ أناسا يتبركون حوله. تنهرهم بلطف وتحثهم على الذهاب، والتوجه إلى الله وحده بالدعاء... كانوا يذهبون، ثم يرجعون مرة أخرى. وتعاود المرة تلو المرة.

– 4 –

اختفى المشهد، ثم صوَّرت الكاميرا رؤيا علوية للفضاء التي ما زالت تقف به سارة أمام عائشة... تابعت هذه الأخيرة كلامها:

- لقد قتلتُ خلقا كثيرا من الأبورتيين، صرتُ كابوسا يُهدِّدهم، ويؤرق مضجعهم. وضع ألفونسو على رأسي مكافأة سخية، لكنهم لم يستطيعوا أن يفتكوا بي. ثم عزمتُ على قتل ألفونسو ملك البرتغال بعملية جهادية. لقد شاركني المجاهدون بها.

توارت المشاهد خلف الظلام...

ثم عَمَّ السواد الدامس مرة أخرى...

– 5 –

أقفلت سارة الكتاب الذي أمامها واتجهت إلى المرآة الضخمة بغرفة نومها. نظرت إلى ملامحها تتحسسها تبحثُ عن أثر آخر رافقها من حياتها الأخرى. ثم قطع تأملها صوت مُمَيَّزٌ آت من حاسوبها. إنها رسالة إلكترونية من أحدهم عبر الفايسبوك. حملت حاسوبها وجلست على السرير، ثم فتحته، ولجت برنامج الرسائل الخاصة. كانت رسالة من مراد... يقول فيها:

- هل قرأتِ الكتاب؟

أجابته بسرعة:

- نعم... هل لديك كتاب آخر؟

كان الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات باللغة الإنجليزية لباحثين غربيين حول التطور. كانت الأبحاث تُمثل خطًّا آخر لفهم أصل الإنسان. أعطاه مراد لها قبل يومين، وأخبرها أنه يشمل أبحاثا علمية تمنعها اللوبيات الإلحادية عن أكثر الجامعات العلمية الغربية والعربية، خاصة أنه يعارض بشدة المنحى التطوري الذي يتبنونه.

- سأرسل لك رابطَ عدة مجلات علمية غربية، ستجدين بها مقالات جديدة حول التطور.

ثم أرسل لها مجموعة من الروابط الإلكترونية.

كانت علاقة مراد وسارة الإلكترونية قد تطورت كثيرا. أضحى يحادثها عبر الرسائل الخاصة الكتابية كلما سنحت له الفرصة. كان يخادع نفسه أن كلامه معها لا يتجاوز هدف هدايتها، وأن مشروعيته الدينية ظاهرة، لأن هدفه نبيل. كان يخادع نفسه بهذا، ونفسه تعلم خداعَه، وتصدقه!

يُحدثها فينتظر أجوبتها على أحر من الجمر. كأن كلماتها المَرْقُونَة

تُفرز كلاما لطيفا يدغدغ قلبه فتهتز له مشاعره. جُملها تحمل أريجا لطيفا تُرسله فور ظهورها فيثمل العقل من وقع عطره ونشوة نسيمه.

كان يُحدِّثها بالأساس عن منحاها الإيديولوجي، ومعتقدها الفكري. كلَّمها عن إشكالية الشر، وقد كان أول نقاش إلكتروني بينهما، فالورقة التي تركها بعد طرده من أستاذ الاحتمالات أشعلتْ أعصابها غضبا. خرجت آنذاك باحثة عنه. لكنه لم يظهر. وصلت إلى منزلها، ثم توجهت مباشرة إلى حاسوبها الشخصي، وتركت رسالة غاضبة على الخاص:

- هل تراني داعرة لا أخلاق لي؟
- هل الملاحدة لا أخلاق لهم؟

انتظرت تلك الليلة، لكنه لم يُجب. كانت نار غضبها تخفتُ شيئا فشيئا مع مرور الوقت. ففكرها قد بدأ يرسم خرائط ذهنية لما قرأته سابقا حول الأخلاق، وما سمعته من عرَّابي الإلحاد. كانت سابقا تُؤيِّد فكرة أن الأصلح للأبقى فذاك أصل صراع بقاء العنصر المُنتَخَب طبيعيا، أما بعدما تعرَّفت على قلبها الثاني، الذي ما كَلَّ في خطفها من هذا العالم إلى عالم آخر، فقد تغَيَّرت نظرتها رأسا على عقب، حتَّى أنها ما أضحت تعرف قناعاتها المُتجَدِّدة.

كما تذكرت كلاما كثيرا حول حتمية الفتك بالجنس الإنساني الأدنى، كي يعيش الأصلح. ذاك الأدنى الذي لا يُدير عجلة الزمن، لا يُساهم في الحداثة. من يعيش وسط الأوبئة والمجاعة. أما الأصلح فهو الغربي بلا منازع، مع بعض الآسيويين الذين ارتفعتْ أسهمهم مؤخرا.

نسجت وشاحا من الأفكار المتضاربة آنذاك حول عقلها. فبدأت ترى فعلا ان معضلة الشر من صنع الملاحدة، ومن سار على غرزهم. والمجازر التي ارتكبت باسم الشيوعية الملحدة غير بعيدة.

الشيوعية... لقد كانت قبل أيام معهم...

بَلَغ سمعها وهي تائهة بين دروب الفكر صوت استقبال رسالة فايسبوكية... أسرعت إلى الحاسوب وفتحته. فوجدتْ جوابه في ثلاث نقط:

- لا بل لهم أخلاق... وكثير منهم يمشي وفقها... لكنها أخلاق فطرية فينا، يتوسلها كل تجمع بشري لإرساء كيانه... فمن يا ترى وضعها بنا وَوَجَّهَنَا إليها؟

- فإن أخذنا مثلا مسألة الإجهاض... فإن مشروعيتها تتضارب بين حق خاص للحامل يسانده الداعون له، وبين حق أخلاقي حول قتل نفس حية يسانده المخالفون... فأي أخلاق سنتبنى؟، وما هو الفيصل الحق في ذلك إن كان بني البشر قد تنازعوا بمشروعيته؟

- وهل الأخلاق الكونية هي أخلاق ديفيد هيوم الذي يُعلن بها تفوق العِرق الأبيض ويرى أن جميع الأعراق البشرية الأخرى، أقل شأنا منه. أم أخلاق الفيلسوف الأخلاقي إيمانويل كانط الذي سار على درب هيوم وأعلى من وجهة نظر أستاذه، حتى أنه برَّرَ تسلط الإنجليز على سكان أمريكا الأصليين ووسمهم بأنهم عاجزون عن خلق أي ثقافة، فأنزل مرتبتهم تحت كل الأعراق الأخرى!، إذن فأي كونية هذه التي تعتمد على الفلسفات الإنسانية القاصرة؟

ثم توالت نقاشاتهما عبر الفايسبوك، وتلاحق حديثهما.

عرجا على كل درب فكري وتكلما عن كل شيء...

لكنهما أهملا شيئا واحدا...

شيئا مهما...

أن يتحدثا عما يخالج قلبيهما!

القلعة

- 1 -

غَصَّت القاعة عن آخرها بشباب وشابات في مقتبل العمر. كان تنوع المشارب الفكرية ظاهرا بملابسهم. أقمصة حجازية وجلابيب قصيرة، كوفيات فلسطينية، أقمصة فوقية تحمل شعارات يسارية وثورية. دخل المحاضرون بخطوات متثاقلة إلى المنصة من باب جانبي مُخَصَّص لهم. جلسوا بأعين تعلوها قترة، ثم تَلَقف أحدهم اللاقط. أخذ في التكلم والحديث حول المؤسسة التي نظمت الندوة، ثم عرج إلى الحديث عن وضعية المنطقة والأوضاع التي تتخبط بها. لم يتجاوز المتكلم كونه منشطا قد أوكل له أمر تنظيم اللقاء. بعد بضع جمل ركيكة التركيب اللغوي، عرج إلى التعريف بالمشاركين بين دكتور فلان وأستاذ علان.

كان مراد جالسا بصف خلفي يتابع وجوه المشاركين. ابتسم عندما قُدِّم أحدهم بالأستاذ المفكر، كان مراد يعرف أن المُقَدَّم لم يتجاوز التعليم الثانوي، وأفكاره لا تعدو تصريحات جريئة اتجاه الدين بالأساس، ومُخجلة اتجاه الأوضاع السياسية والاجتماعية، كان في دواليب الحكومة يصول، فلا طاقة له على مصدر رزقه.

كان المشاركون خمسة، ذاك الأستاذ المفكر، وأحد الرموز الدينية المثيرة للجدل، ودكتور مغربي ذو توجه عرقي أمازيغي عُرف بأفكاره

الإلحادية، وإحدى مناضلات اليسار الراديكالي التي وَسَمتْ الساحة السياسية بتصريحاتها الجريئة بين الفينة والأخرى، وأستاذ جامعي مُتَخصِّص بالجماعات الإسلامية. لم يستسغ مراد وجود هؤلاء، فهو لا يعترف بهم كمفكرين، خاصة أنهم لا يكتبون وليست لديهم أي تصانيف، امتازوا بِشَعْبَوِيَّة مقيتة. لكن هذا حال قوم لا يقرؤون، ولا يرفعون من قيمة المثقف الحق، بل لا يتكلم فيهم إلا الرويبضة، من تَفُه قوله، لكن العامة تصدقه!

اتفق كلهم على الحديث حول الاستثناء المغربي، وأن البلد تعيش وضعا مغايرا للمنطقة ككل. كان خطابهم خشبيا بامتياز، يترنمون بنفس المقام، كأنهم يعزفون لحنا واحدا غير أن كل واحد منهم له آلة موسيقية تخالف الآخر.

تلقَّف الداعية الديني اللاقط ثم بدأ يُضفي صفة القداسة الدينية على الحكم بالبلاد. ابتسم مراد في استهزاء من فعل الجالسين بالمنصة، فقد كانوا يهزُّون رؤوسهم في إقرار وهم طالما جعجعوا بمنابرهم أنه لا سلطة لدين ببناء الدولة الحديثة!

- تدخلات هؤلاء وكلامهم سيجعلك تثور عوض أن تركن وتستكين.

همس حسن لصديقه وهو يقهقه بصوت خافت. نظر مراد نحو صديقه مبادلا الضحك. ثم سُمع صراخ بالصفوف الأمامية... كان الصوت نسويا:

- هل تضحكون على ذقوننا... مسرحياتكم مكشوفة... تدَّعون ألا مشاكل بالبلد، وأننا نُشكل استثناء... أنتم تخونون البلد بمسرحيتكم المكشوفة هذه.

كانت سارة تصيح بالمشاركين واقفة أمام المنصة وقد بدَتْ أوداجها من بعيد... أمسكها أحدهم بقوة من كتفها كي يُسكتَها فصفعته... ثم ولج القاعة حراس المؤتمر الأمنيين... اتجهوا نحوها كي يُخرجوها قسرا. لكن اعترضهم شابان في مقتبل العمر، كان أحدهما يلبس سروالا من الثوب لا يتجاوز كعبه وقميص فوقي أسود تختفي طيَّاته تحت كوفية فلسطينية، والآخر يرتدي لباسا رياضيا أزرق. قال مراد للحارسين إنه سيتكفل بإخراجها، بينما اتجه حسن نحو سارة، يحاول تهدئتها. ثم أتاها همسٌ من جانبها الآخر:

- سارة... علينا الخروج.

نظرتْ خلفها فوجدت مراد، أرسلت من قوس نظرها نظرة غاضبة، ثم اتجهت نحو الباب بخطوات متسارعة إلى أن توارتْ خلفه... جرى مراد خلفها، خرج من القاعة ثم من مقر المؤسسة، لكنه وجد سيارة مني كوبر تَبرح مرأب السيارات مسرعة. حتى اختفتْ بعد حين.

- 2 -

حاول مراد بعد ذلك التواصل معها هاتفيا لكنها لم تُجِبْهُ... أخذ رقم كوثر من صديقه حسن، ثم اتصل بها. أخبرها بالحادثة، وعن تخوفه لقيادة سارة. لكن كوثر طمأنته وأخبرته أن صديقتها قد اتجهتْ مباشرة عندها، وهي الآن تَغُطُّ في نوم عميق... لكنها لم تُخف عنه تخوفها من الحديث الذي تُلقيه سارة عند نومها. كانت تهذي بكلمات غير عربية، ثم تتبعها ضحكات... وما فهمت سوى لفظة انتقام ودم بكلامها!

- 3 -

كانت عائشة تُثخن الاغتيال في جيش الأبورتيين... وكانت رؤوسهم تتساقط تباعا... لكنها اخذت مؤخرا منحى آخر، وهو قتل بعض القساوسة ممن حامت حولهم إشاعات أن أيديهم قد تلطخت بدماء المسلمين بمحاكم التفتيش. أصبح بعض المسلمين الأندلسيين الذين يُخفون انتماءهم، يُلصقون أوراقا قد حملت أسماء المتورطين من القساوسة، فتلحقهم يد عائشة القديسة وتجزُّ رؤوسهم، ثم تعلقها على أبواب المدن. آخرهم كان قسا بيابرة، اسمه جبرائيل. وآخر بأشبونة.

اضطرب ألفونسو، فقد وصلتِ القديسة القاتلة إلى عتبات قصره، فالقس المقتول كان ضمن مجموعة من القساوسة الذين يعملون ببلاطه... إنها رسالة تهديد مباشرة إليه شخصياً. شَدَّدَ الحراسة عليه، ونشرَ جيشه بمحاذاة قصره الجديد بأشبونة إذ بات يُفكر في اتخاذها قاعدة لبلاده.

أما عائشة فقد حَضَّرت كل شيء لغزو أشبونة وفتحها من جديد. لقد وضع أمير المجاهدين البحريين الحسين بن علي الزيري خُطَّة لشن هجمة بحرية محكمة على مرسى أشبونة، واستغلال الاضطراب الذي سيقع لتسلل مجموعتهم الجهادية إلى القصر وقتل ألفونسو. كان الحسين قد عارض وجود عائشة ضن المجموعة الفدائية المكلَّفة، خاصة أن مصيرهم المحتمل هو القتل. لكنَّها أصرَّتْ، فلا حياة لها إن هي لم تكن ضمنهم وإن لم تقتل بيديها ملك الأبورتيين. أذعن لها بالأخير. اتفقوا ورسموا خطَّتهم، وقد أَزِفَ موعد ملحمتهم.

- 4 -

كانت سفينة الإنجليز تقترب من مرفئ أشبونة. أخبر الجندي المكلف بالمراقبة سيدَّه، فأنكر هذا الأخير معرفته خبرا حول زيارتهم، خاصة أن الشمس قد لامست المغيب. لكنه أمر الجندي أن يدعهم يُرسون سفينتهم بالمرسى حتى تأتي الأوامر من القلعة...

وقد كان.

توقفت السفينة بمحاذاة الرصيف الخشبي، ظهر منها أحد الإنجليز يُلَوِّح بيده. أنزلوا سلالمهم، فصعد ثلاثة جنود قصد تفقد السفينة الوافدة. تحركوا على سطحها، لكن لا حياة تدب. أشاروا إلى الجندي الإنجليزي ففتح لهم باب قُمرته، ولجوها، وما كادوا يتوارون خلف الباب حتى ولج ثلاثة مجاهدين الغرفة، وطعنوا البورتوغاليين بأطاسهم من الخلف، كما غرسوا أطاسا أخرى برقابهم بسرعة. كانت عملية اغتيالهم سريعة، لم تترك للأبورتيين متسعا للصياح أو الحشجرة!

انتظر الجنود الآخرين رفاقهم، لكنهم تأخروا. صاح أحدهم بالإنجليزي الذي أخذ مكانا بجانب السفينة. أشار لهم أنهم نزلوا تحت سطح السفينة ليتفقدوا وسطها. بنفس الوقت كانت المجموعة الجهادية المتكونة من ثلاثة أفراد تستقل حبالا من جانب السفينة الآخر، وتهبط نحو المياه، ثم غطس أفراد المجموعة بمياه المحيط. اتجهوا بتؤدة عبر مياه مصب نهر تاجة، نحو الغابة المتاخمة له. وحين سُمع صفير قوي، قادم من بعيد، ظهر المجاهدون فجأة، فقد كان إشارةً لهم أن المجموعة قد تاخمت الشاطئ. قفزوا من السفينة نحو الجنود المنتظرين، فقتلوهم فورا.

اتجهوا إلى ثكنة عسكرية مُقامة هناك، وأثخنوا في العساكر القتل. إذ أن البورتوغاليين تفاجؤوا ولم يتمكنوا حتى من لمس أسلحتهم.

وصل خبر هجوم الملثمين على المرفأ الأشبوني إلى مستشار الملك الحربي فأرشدهم إلى كتم الامر، خاصة أن الملك قد دخل في نوبة خوف. وأمر بإرسال فيلق متمرس كي يصدَّهم. كان مستشار الملك أندلسيا قد تنصر واقترب من حكُّام البورتوغاليين حتى ارتقى إلى هذا المنصب. فدرايته باللغة العربية واللاتينية ومعرفته الجيدة بأحوال المسلمين، وبمسالك وطرق الأندلس، وما أبانه من شجاعة قتالية وبطولة اتجاه إخوان الأمس، جعله محبوبا عند الملك ألفونسو فقربه منه ومَكَّنَه من منصب مستشار حربي.

كان القتال قد بلغ أشدَّه بين الفريقين، مات مجموعة من المجاهدين، لكن الآخرين قاوموا رغم عددهم القليل. كانت تكبيراتهم تصل إلى الغابة الكثيفة المتاخمة للقلعة، فتسمعها مجموعة الثلاثة وترخي بقلوبهم شجاعة وبسالة. كانوا يقطفون حياة الأبورتيين بنصل من حديد. فرغم مجموعات الحراسة البورتوغالية التي كانت تفوق الأربعة جنود بكل مجموعة... كان المجاهدون الملثمون الثلاثة ينفذون بينهم بسلاسة ويَجْنُونَ حياتهم كحبات ناضجة تَذبُل فور قطافها.

وصلت المجموعة إلى الحائط الشرقي للقلعة. كان صوت تكبيرات إخوانهم وقرع سيوفهم قد اختفى. همس تاشفين قائلا للمجاهدين الآخرين:

- الظاهر أن إخواننا انسحبوا... سنتسلل إلى القلعة عبر...

لم يكمل كلامه حتى وجد عائشة قد تسلقت شجرة عملاقة بسرعة. وصلت قمَّتها، انتظرت قليلا ثم نزلتْ... نظرت إلى المجاهدَيْن الآخرين بعينين فرحتين قائلة:

– لا توجد حراسة هنا كما توقعت... فهذا الجانب بعيد عن النهر والبحر، والحراسة به ضعيفة... إنه مكان مخصص بالأساس للطبخ وسُكنة الخدم.

رسمت عيون الملثمين ابتسامة، وتبعا عائشة لتسلق الدوحة. ألقوا حبالا رُبطت أطرافها بعقاقيب معقوفة. نشب عقاب تاشفين بحافة الجدار العلوية ثم قفز من الشجرة باتجاه القلعة، مدَّ رجليه حتى اقترب من الجدار ثم ثنى ركبتيه قليلا كي تمتص وقع صدمته. وما كاد يَثْبُتُ من اهتزاز جسمه عند وصوله، حتى بدأ يتسلق رويدا رويدا حتى بلغ السطح. نظر يمنة ويسرة ثم ضغط على راحتيه وقفز لتصبح قدماه فوق سطح حصن القلعة. أمسك بعقابي عائشة وصاحبه، وثبتهما بالجدار، ليجد المجاهدون أنفسهم بعد حين وسط القلعة.

– 5 –

أدارت سارة مقلتيها بالجدران من حولها، ثم تحاملت على نفسها وجلست. فَرَكَتْ عينيها وضغطت على وجهها براحتيها...

– أين أنا؟

خاطبت نفسها بصوت مسموع، ليأتيها الرد من خلف الباب الذي شارف على الانفتاح:

– أنت بمنزلي... هل نسيت؟

- معذرة كوثر... ربما أنا هنا من مدة طويلة... كم الساعة الآن؟

ابتسمت كوثر ووضعت كأس شوكولاتة بجانب السرير. رشفت رشفة من آخر كانت تمسكه بيدها الأخرى... ثم قالت:

- لقد جئتِ منذ ربع ساعة لا غير.

- يااااه... لقد أحسستُ أن دهرا قد مر وأنا نائمة هنا.

أمسكت سارة الكأس وأرسلت جرعة ساخنة إلى جوفها... ثم لمحتْ بعيني كوثر بعض التساؤل... وضعت الكأس مرة أخرى، وعاودت الاستلقاء. وجهت نظرها نحو كوثر وقالت:

- معذرة لم أخبرك بسبب مجيئي... أخذتني الغفوة فور ملامستي للسرير.

- لقد أخبرني مراد بالسبب.

أزاحت نظرها عن كوثر مرسلة مقلتيها نحو السقف... صمتت قليلا ثم قالت:

- حقيقة بدأتُ أعجب به.

نهضتْ كوثر متجهة إلى حاسوبها الرابض فوق مكتب خشبي، ثم جلست أمامه... ضغطت زر إشعاله وقالت مبتسمة:

- بل أنت تُحبينه يا سارة.

الأمل

– 1 –

كانت المظاهرات تزداد ساعة بعد أخرى. خرجت مسيرات عديدة متوسِّلة تسوية الأوضاع الاجتماعية عامة والسياسية خاصة. شَكَّلَتْ بعض الجماعات والأحزاب تكتلات واحدة معتمدة على تنظيم واحد وحملة تسويقية قوية لأفكارها. خلقت شبيبة جماعة الجماعة تنظيما جديدا مندمجة مع شبيبة حزب القوى التقدمية الشيوعية، وأسمته حركة الثورة المغربية. اعتمدت الكتلتان المندمجتان سياسة تسويقية واحدة كي تُعبِّئا الرأي العام. كانت بنود التنظيم الجديد واضحة، كالحراك السلمي، والمطالبة بإصلاح دستوري، والرفع من جودة الوضعية الاجتماعية وقطاعي الصحة والتعليم، إضافة للمطالبة باستقلالية القضاء، وإرساء نواة دولة مدنية حديثة.

بلغ التنظيم الآفاق، وجذب مجموعة من التيارات الأخرى التي تكتلت معه. غير أن حركة النهج والإصلاح اختارتْ عدم المشاركة والإصرار على تجنب كل حراك من شأنه أن يقود البلاد إلى فتنة لا مرجع منها. شهدت القنوات التلفازية عدت لقاءات بين تنظيم الثورة والحركات المعارضة للخروج. كانت هذه الأخيرة تدعي أن الانتخابات التشريعية القادمة ستُسجل تغييرا يَسِمُه الشعب وذاك هو التغيير المنتظر، أما المظاهرات فلن توصل إلا إلى ممر مُلَطَّخ بالدماء.

كان مراد يتابع لقاء تلفازيا يضمُّ أحد كوادر جماعة الجماعة، والمسؤول الوطني على شبيبة الحزب الشيوعي المحظور، إضافة إلى إحدى الوجوه الشبابية داخل حركة النهج وحزب الوحدة الحُرَّة. كانت صفاء ترسم بشفتيها وضعية المغرب الاستثنائية وتُزَيِّنُ جملها بكلمات حول نظام الحكم الموروث والذي ساهم منذ زمن في استقرار الوضعية المغربية مقارنة بالمشارقة.

مال مراد بجسمه جانبا اتجاه صديقه حسن الذي كان يجلس بجانبه، ثم أشار إلى الشاشة التي رسمت محيًّا صفاء بحاجبيه.

- صفاء الباكروري... إنها هي من وجدت بمقر الحركة في المرة السابقة.

- لو كنتُ مكانك لالتحقتُ بالحركة من أجلها.

غمز حسن صديقه، وتابع النقاش الذي بدأ يستحيل إلى اتهامات متبادلة. فالتنظيم الجديد يتهم الأحزاب الصامتة كلها بالخيانة، وصفاء تتهم التنظيم بعمالته للخارج واتباعه لأجندة خارجية، ولو لم يكن عن قصد.

كانت صفاء تتحدث موجهة كلماتها إلى عضو جماعة الجماعة:

- لقد خوَّنتم كل من خالفكم وســـ....

- والكرة طويلة اتجاه الجانب الأيسر من الملعب و...

اختفتْ فجأة صورة صفاء لتحتل مكانها على الشاشة رقعة ملعب برنابِيُو الخضراء، بدَّل أحدهم القناة دون استشارة أحد... وما كاد مراد أن يلقي تنديده نحو المكلف بمقهى الداخلية، حتى خاطبه حسن ضاحكا:

- خيرا فعلوا... أن تشاهد مباراة كرة قدم، خير من ألف لقاء يثير أعصابك.

نظر مراد اتجاه حسن قائلا:

- سأقوم كي أرجع اللقاء.

أمسك حسن بذراع مراد قائلا:

- أنت وحدك هنا من تتابع هذه السخافات... فأولئك المتناظرون لا يفقهون إلا تخوين بعضهم البعض... ولا تنس أن المكان قد ضجَّ بعشاق البطولة الإسبانية، وهذا موعد أهم لقاء بهذه الدورة.

حوقل مراد ثم نهض واتجه نحو باب المقهى. بعد قليل سمع حسن طرطقة قوية لكرات السنوكر... أدار عنقه ليجد مراد يمسك بعصا طويلة ويضرب كرة بيضاء بشدة.

- 2 -

اشتعل الفايسبوك بالإعلانات التسويقية للتنظيم الثوري الجديد، وانتشرت فيديوهات تعريفية به. كما نُشِرَتْ جدولتهم التي تُسَطِّر تحركاتهم ومسيراتهم ووقفاتهم المقبلة. تابع مراد وسارة التنظيم وكل حركة يقوم بها، لكنهما لم يقتنعا بالانتماء إليه. كان مراد يَحْضُر اجتماعات التنظيم الرئيسية منذ تكوينه. وجد بعد مدة أن أعضاء مكتب التنظيم لا يتخطون توجيهات قياداته العليا، ويتبعون كل ما يُملى عليهم ولو خالف منهج التنظيم وأهدافه. أما ما يُطالِب به الأعضاء وما يقترحون باجتماعاتهم الكثيرة، فقد كان يُسجل ويُحفظ، على أن يُعرض على القيادات الكبرى ويَبُتُوا فيه، لكن دائما ما كانت المُقترحات تُهمَل. كما أن أحد أعضاء الشبيبة الحزبية الشيوعية، أخبر سارة بنفس ما فَقِهَه مراد، مما كان سببا في انشقاقه عنهم. تكلم مراد مع سارة حول الأمر فوجدها تحمل نفس فكرته

= الخروج في مجموعات لا منتمية، ويكتفون بالمساهمة فيما تقاطعت فيها قناعاتهم مع دعوات التنظيم، أو أي مجموعة تهدف إلى إرساء العدل والحريات العامة، فيما لا يخالف الشرع كما كان يقول مراد دائما.

- 3 -

تحرَّكتْ عائشة وسط مجموعة من نساء المطبخ الملكي نحو قاعة الطعام الملكية كي يُشرفوا على طعام العشاء المُقَدَّم للملك وحاشيته. كانت تلبس لباسهن الذي يُشبه لباس راهبات الكنيسة الكاثوليكية، جلابيب وخِمَارَات بيضاء غَطَّت جسمهن من أسفل القدم إلى قمة الرأس، وقد طُبع صليب صغير أزرق بالجانب الأيسر لصدر الجلابيب. كُنَّ يحملن صينيات نحاسية ضَمَّت أشكالا مختلفة من الطعام، وواحدة حملت كثيرا من الأثواب البيضاء قصد تنظيف الأيدي وتتبع بقايا الأكل. هي وتسعة أخريات، لا يعرفنها طبعا فقد جاءهم خبر أندلسية جديدة قد عُيِّنت حديثا، وأُلْحِقَتْ بالجناح المخصص للمطبخ مساءً، بعدما أُسِرَت بغارة بورتوغالية بقرية قرب شلب. لكن الاندلسية الحقيقية قد قُتِلَت منذ قليل على يد عائشة، خنقتها ورمتْ بجثتها خارج أسوار القلعة. لن يجدوا الجثة إلا بعد فوات الأوان. أما المجاهدان الآخران فلا تعلم أينهما الآن.

عَبَرَتْ عائشة مع المجموعة النسوية ممرا طويلا حتى وصلن إلى باب ضخم، طرقت المكلفة الباب ففتح لها جنديان ضخمان. دخلن القاعة الضخمة وأحطن بالطاولة المستطيلة، كل واحدة تقف جانب كرسي من كراسي الطاولة الضخمة. كانت سارة ترمي بنظر عائشة إلى الجنود الذين أحاطوا بالقاعة وانتشروا بجانب حيطانها الأربعة. كانت القاعة عالية السقف،

تتراخى وسطها ثرَيَّا كريستالية ضخمة، تتناثر حولها ثريَّات أصغر ككواكب ذرية تتراقص بجانب القمر. وزخارف نباتية عديدة تتوشح بها الجدران، تَمَكَّنَ نظرها من تمييز بعض الآيات القرآنية المطموسة، والزخارف العربية المُحَرَّفة. دخل سبعة أشخاص تصطبغ سحناتهم بالوجاهة. الظاهر أنهم حاشية الملك المُقرَّبة من مستشاريه وعائلته. ثم دخل الملك ألفونسو في ثوبه الطويل الذي كان يعيق حركته، وذَهَبُه الذي زَيَّن كل ثنية من جسمه، من سبائك أحاطت بحذائه، مرورا بخواتيم ودمالج أثقلت يده، وصولا إلى تاجه المرصع بالأحجار الكريمة. كانت عائشة تقف بالجانب الآخر من مكان جلوسه، لكن قفزة واحدة بلحظة مناسبة ستخطف بها سكينا من على الطاولة، كافية لأن تخطف حياته وتقطف روحه بها.

جلس الملك... ثم ألقى ببصره نحو كرسيين مازالا فارغين... كان أحدهما بجانب عائشة، والآخر على بعد كرسيين من جانب الملك الأيمن. قطب ألفونسو حاجبيه وقال في غضب:

- أين هو الموريسكي، وَلودريغو.

أجاب أحد الجالسين بجانبه، وكان شيخا طاعنا في السن، تُحيل ملابسه المزركشة وقبعته الطويلة على طبيعة عمله... فقد كان منجم الملك:

- قائد الجيش لودريغو، والموريسكي على وصول.

قبل أن يكمل حديثه ولج القاعة شاب في مقتبل العمر، تعلو وجهه قسمات جافة قاسية، كأنها لرجل كهل خَبِر من دروب الحياة كثيرا. كان يلبس ترسا جلديا منمقا بعلامات صليبية زرقاء عديدة. وما كاد يصل إلى الطاولة حتى خاطب ألفونسو:

- مولاي أعتذر عن تأخري... لقد وجدنا مُتَسَللين من الموركسيين بالقلعة. إنهم من القراصنة البحريين الذين هاجمونا اليوم وهزمناهم.

جحظت عينا ألفونسو وعائشة معا، لكن هذه الأخيرة حاولت أن تُخفي اضطرابها.

قال ملك البورتوغاليين في هلع:

- هل هاجمنا القراصنة؟

أجاب لودريغو:

- نعم مولاي... لم يرد الموريسكي، مستشارك الحربي، أن يُخبرك، فآثرنا الكتمان...لا تخف مولاي فلقد ألحقنا بهم شر هزيمة وانسحبوا خاسئين.

- وهذان المتسللان؟

- لقد أمسك بهما الجند بعدما كانا مختفيين بإحدى الأروقة... وزيادة في الحيطة، هناك فرقة كاملة تمسح القلعة ركنا ركنا كي نتأكد ألا قرصان هنا إلا هما.

أشار الملك للودريغو بالجلوس.

ثم فُتح الباب مرة أخرى...كان مستشار الملك الحربي، الموريسكي، كما يُكنَّى بينهم، يلج القاعة.

أقفل الباب واتجه إلى الكرسي الفارغ بجانب عائشة. كانت خطواته متثاقلة، مسك بقِبِّه يريد أن يرسله من على رأسه. وَقَعتْ عيناه على الخادمة بجانب كرسيه. ثم وضع كفه الأيمن على صدره كأنه يتحسس موضع قلبه وأرسل سهام نظره من الخلف نحو عائشة، سهام حارقة تحمل شررا كاد أن يتفلَّتَ ويحرقها قبل أن يصل إليها.

- 4 -

اشتعلت المظاهرات بالعاصمة الاقتصادية الدار البيضاء، وانقسمت المسيرات إلى ثلاث مجموعات. مجموعة جعلت وجهتها ساحة النصر بشارع الحسن الثاني، وقد كانت تضم فصائل من تنظيم الثورة يحملون راياتهم السوداء، وأخرى تحمل رايات حزبية، تمثل شبيبة بعض الأحزاب التي سمحت لشبابها بالخروج بالمظاهرات. أما الثانية فقد اجتمعت بوقفة أمام المقر الرئيسي للحزب الحاكم، قصد التنديد بحصيلته الحكومية الضعيفة، وقد كانت تضم بالأساس شباب الأحزاب والنقابات المغربية المعارضة، يحملون لافتات تنديدية تضم بجانبها رمز أحزابهم أو نقاباتهم. أما ثالثتهم فقد دُفعت إلى مديرية الأمن الوطني بشارع الزرقطوني، وقد كانت تضم بالأساس الحركات اللامنتمية المشاركة، التي كانت تهدف من المظاهرة، التنديد بممارسات الشرطة اتجاه المتظاهرين السلميين، خاصة ما شملتْ مظاهرتي الأساتذة والأطباء المتدربين الأخيرة من تدخل عنيف آخر من الشرطة. انفصلت المجموعة التي سلكت شارع الزرقطوني عن مجموعة شارع الحسن الثاني، وتوجهت إلى مقر الأمن الوطني.

كان مراد وسارة بالصف الأمامي جنبا إلى جنب بهذه المجموعة، يهتفان ضد الشرطة، وتدخلها القوي اتجاه أساتذة التعليم العمومي الذين احتجوا على وضعيتهم المتدهورة. كانت القوة أساس التدخل الأمني آنذاك، وسقط العديد من الجرحى بصفوف الأساتذة. حمل بعض المتظاهرين صورا تُظهر وحشية التدخل وآخرون لافتات تحتج وتشجب تعامل الداخلية مع أسمى وأنبل عمل بالبلاد. لم يكد المتظاهرون أن

يصلوا حتى وجدوا أمامهم قوة من الشرطة المكافحة للشغب تقف على عرض الشارع مانعة بلوغ المؤسسة الأمنية.

كان إدريس يرمق المتظاهرين من تحت حامية رأسه. فقبل شهر من هذا نَقَلته الشرطة من مقره الأول بالرباط إلى الدار البيضاء. كان قرارا تأديبيا يهدف إلى إرساله إلى مدينة على الحدود المغربية الجزائرية، لكن تدخلات معارفه جعلت من الدار البيضاء هي وجهة نفيه، وما أحلاها من وجهة!... كان يبتسم في مكر فقد جاءتهم أوامر أن يتدخلوا بعنف إذا تطاول المتظاهرون أو أبدوا رغبة في العنف. تهلَّلَت أساريره عندما وُضع بهذه المجموعة الأمنية، فالمجموعات التي ستشهد الوقفات والمظاهرات الأخرى لن تتدخل، ولها أوامر بحماية المتظاهرين فقط... لم يعرف سبب ذلك، غير أنه كان فرحا لوجدوه هنا!

تقابل المتظاهرون مع الشرطة وقد علتْ أصواتهم طالبة من رجال الداخلية أن يفسحوا الطريق كي يصلوا إلى مقر الأمن الوطني. لكن رجال الشرطة لم يُحَرِّكوا ساكنا. كانوا يلبسون ملابس سوداء سميكة ويحملون بأيديهم حاميات واقية من البلاستيك المتين وهراوات سوداء، كما يضعون خوذات حامية للرأس.

ثم قُذفتْ حجرة شاردة نحو رجال الشرطة، وما كادت تلامس حامية إدريس حتى انطلق هذا الأخير نحو المتظاهرين وهو يصيح ويضحك بجنون... تحرك رفاقه نحو المتظاهرين الذين دُفعوا نحو الشرطة ليلتحم الجمعان، كأمواج متلاطمة، تجتمع فتستحيل جبلا مائيا، لكنه من بشر.

اختلط المتظاهرون مع الشرطة وبدأت أصوات الاحتجاج تستحيل

صراخا مرعبا تختلط ترانيمه مع مقام الألم. تدافعت جموع المتظاهرين نحو اليسار واليمين يتوسلون مكانا يختبؤون به من هراوات الشرطة، وآخرون شرعوا في خرق الالتحام حَبْوًا كي يصلوا إلى ذيل المجموعة والفرار بجسدهم المتخن بالجراح.

كانت سارة قد ابتعدت عن مراد من وقع هول الموقف، لكنها تراءت له من بعيد...كانت تجلس بين أرجل المتظاهرين والشرطة، تُمسِكُ بساقيها، ترتجف في خوف... كانت المرة الأولى التي ترى فيها تدخلا عنيفا كهذا... فكم خاضت من مظاهرات مع شبيبة الحزب الشيوعي، لكن الشرطة كانت تحميهم آنذاك...

فلماذا الآن تتدخل بوحشية وعنف؟!....

كان جسمها يرتعش خوفا وعيناها تكادان تغادران محجريهما، وقد أضحتا حمراوين تملؤهما دموع تتوسل النزول بأي فرصة... ثم انفجرت شلالات معين عبراتها عندما سقط شخص أمامها يتلوَّى من وقع ضربة أحد رجال الشرطة، وقد انفجرت دماؤه من أحد خديه.

زادها ذلك رُعبا وهلعا، فزادت من شدة ضمها لساقيها، كأنها تتوسل حضنا دافئا ينعم عليها بحنان تحتاجه كثيرا بهذا الوقت.

تحتاج دفء أمها... بل لغضب أبيها أيضا... تحتاج لوالديها بشدة!

حاول مراد الوصول إليها، ثم فجأة بدأ يجري نحوها وهو يصيح مذعورا مُحَذِّرا:

- احذري....

لمحته ولمحت إشارته لكن صوته خفت أمام الصراخ المتواصل

بجانبها... وقفت كي تتمكن من سماع ما يقول، لكن فجأة سمعت صوت ارتطامٍ ودويٍّ برأسها. أدارت عنقها ببطء نحو منبعه لتجد شرطيا أمامها، لمحتْ ابتسامة على شفتيه، ثم أخرج لسانه كمجنون هرب من مشفاه حديثا... ثم ضربها بضربة من رجله على جانبها الأيمن أسفل الصدر، لتسقط أرضا، ويخفُتَ ضياء الشمس الساطعة أمام عينها...

كانت تتهادى وعيناها مثبتتان على الشمس التي آثرتْ أن تختبئ وراء سحب سوداء، عوض أن تشهد على سحقهم تحت أحذية الشرطة وعِصِيِّها... فاختار جفناها الذبول ومواربة مقلتيها العسليتين.

- 5 -

اقترب مستشار الملك من مكان جلوسه على الطاولة. كانت عائشة واقفة تنتظر أن ترى هذا الخائن الآخر الذي خان دينه وقومه، وباع نفسه إلى الشيطان البورتوغالي.

- أهلا بالموريسكي... أين كنت؟

قال منجم الملك بلسان متثاقل. لم يُجِبْ، حتى حاذى بجذعه عائشة التي كانت واقفة في خشوع... ثم حدَّثها بصوت مسموع بلغ الملك والجالسين، لكنه كان لفحيح الأفاعي الصحراوية أقرب:

- أهلا بك يا عائشة القديسة بيننا... أظنك تتذكرينني جيدا؟

جحظت عينا الملك والحضور نحو عائشة التي لم تعرف كيف كُشِفَ أمرها... لم يكن الصوت غريبا عنها... لكن وجود ذاك الشخص هنا من سابع المستحيلات.

استدارت بجسمها نحو المستشار.

- لا يمكن!... لقد قـ...

ثم أحسَّتْ بجسم بارد ينغرس بجانب بطنها، سَرَى معه شعور دافئ شمل كل جسدها. ثم تقلَّص فجأة، واستحال برودة مقيتة...

وقع بصرها على وجه المستشار الذي كان ينظر إليها في استهزاء ويبتسم في مكر. تابع حديثه:

- حَسِبتِ أنك قتلتني سابقا... أنا هنا حي أرزق... طَعْنَتك لم تقطف روحي.

كان مسلمة أبو حاتم المجريطي يقف أمام عائشة وهي تتهاوى وتسقط على الأرض، كانت تتابع حركات وجهه وشفتيه في رعب وحنين، ثم ارتطم جذعها بالأرض، لكنها لم تُزل بصرها عنه... ابتسم في مكر وقال:

- لدي ما أقوله لك قبل أن تقابلي والديك بالجحيم.

تحرَّك نحو كرسيه وجلس، ثم أضاف:

- أنا من قتلتُ والديك، بعدما فرَّ أبوك من جيش البورتوغاليين من أشبونة... كنتُ معه، فقد كنتُ واحدا من الثوار، وأنا من أرشد الجيش الفاتح لمقرهم.

ضحك حتى ضجَّت منه جدران القاعة وقال:

- بل أنا من قتلتُ أبي... البعثة التي أرسلها ذاك الحاكم الخَرِف إلى الموحدين قصد توسل معونتهم... لم أكن الناجي الوحيد... بل كنت قاتلهم.

تابع ضحكه... ثم حمل كأسا فضيا في يده وألقى بسائل أحمر في جوفه وأضاف:

- لقد ضيَّعتِ نعيما ما بعده نعيم لأمور تافهة، أمور اسمها دين ووطن.

كانت كلماته تبتعد شيئا فشيئا إلى أن عمَّ الظلام والسكون كل شيء... لكن نارا كانت ما تزال مشتعلة بقلبها لا تريد أن تنطفئ.

– 6 –

كان الشرطي يركل ويعفس برجليه على بطن سارة التي كانت تتألم في صمت، بل استحالتْ جثة هامدة... كانت دماؤها قد تفجرت من رأسها وزحفت على الإسفلت. قفز مراد على الشرطي وحاول خنقه. بدأ إدريس يُحرك جسمه بقوة وهو يحاول أن يصل بعصاه إلى المتظاهر الذي قفز عليه وبدأ يضرب ظهره بشدة، ثم أطلق الشرقاوي صرخة إثر عضِّ مراد لكتفه الأيمن، خاصة أنه اختار مكانا لا تُغطِّيه ملابسه الصفيقة.

لكن ضربة من شرطي آخر نزلت على رأس مراد أسقطته أرضا... لم يُغم عليه، لكن جسده رفض أن يطاوعه... ثم سحب الشرطي صديقه إدريس الذي شرع في سكب ركلاته وضرباته على جسد مراد أيضا... كان يطلب منه أن يكف فسيتسبب في قتل شخص ما... فانصاع هذا الأخير لرفيقه بصعوبة...

لقد سمع مراد اسمه...

كان اسمه إدريس الشرقاوي.

وقع بصره على أصابع سارة التي كانت تتحَرَّك، أدار جسمه وانقلب، جمع ذراعيه تحت صدره. ثم حبا بجهد مبالغ نحوها وهو يصارع الألم. بلغها بشق الأنفس، ثم تفلَّت منه اتزانه ووقع رأسه من وقع الألم، حتى ارتطم بالإسفلت وتطايرت ذرات دم سارة من تحته وخالطت وجهه. لقد سقط أمام وجهها بالضبط فالتمس محياه أنفاسها التي مازالت ترسل بريق حياتها.

- سارة... سارة...

ناداها بصوت متقطع يعتصره الألم... كرر اسمها حتى فتحت عينيها وأرسلت ابتسامة حنونة نحو مراد.

- لا تجزعي ستأتي الإسعاف حالا.

كان يسمع صوت سيارة إسعاف بعيد، اخْتَلَطَ ضجيجه مع ضجيج الصراخ ووقع أقدام المتظاهرين... أعادت سارة ابتسامتها ثم قالت بصوت سلس كأن جسدها لا يتألم:

- أتدري يا مراد؟

نظر إليها بعينين تضطربان بين خوف وحزن... تابعت بعدما أطلقت زفيرا حنونا كأنها تَرْبُتُ على شعر طفل صغير:

- يا لي من غبيَّة!... إني أُحِبّك.

- لا داعي للكلام الآن... سنتكلم لاحقا.

أجابها مراد وهو يقاوم دموعا تراصَّتْ على شفا سفح جفنيه تتوسل النزول. أدارت رأسها ببطء حتى لامست مقلتاها السماء المُلَبَّدة بالغيوم، ثم أضافت:

- السماء جميلة رغم أنها غائمة، بل إن لونها يبعث الأمل بوجداني... الله سيكون لا محالة أجمل... لقد سمعتُ قبلا أن من صفاته الجميل.

أغمضت عينيها مبتسمة وهي تُتَمتم بشيء ما... ثم أضافت بحروف متقطعة:

- لم أصَلِّ له قبلا... لكن شيئا بداخلي يقول لي إنه سيتقبل أوبتي.

تفجرت الدموع من عيني مراد فاختلطت بمخاطه ودمه ودم سارة، ثم تحامل على نفسه واقترب من وجهها أكثر، سمعها تردد الشهادة بلسان متثاقل...

بدأت تخبو كلماتها شيئا فشيئا... فما عادتْ تُبين.

ثم اختفت كلماتها، وما عاد لسانها يُرسل بيانه.

وضع راحته تحت رأسها وقرَّبَ أنفها من وجهه...

لم تعد أنفاسها تبلغ محياه...

نبضها توقف...

ثم اختفى كل شيء أمامها...

حتى وجه عائشة الذي غاص في بحر الدم والخيانة وقُتِلَتْ من أعز صديق كان لديها، قد اختفى من أمامها إلى الأبد.

ما عاد يُسمع إلا صراخ من الألم والأسى يخترق الضجيج الذي غلَّف المكان.

ثم بدأ المطر يهطل غزيرا عذب الملمس ناعما كأم تمرِّر يدها فوق رأس صغيرها كي يستكين... ربما نحيب مراد قد بلغ السماء فأرسلتْ مطرها تواسيه حبيبته... ثم انطلق صوتٌ من خلف زخات المطر يُنشد في همس دامع يشوبه دفء حانٍ:

قْلْتِ لُّو إِنْتَ مِنْ وَيْن قال لِّي مْنَ حْدُودِ السَّمَا

قْلْتِ لُّو جَايِ مِنْ وَيْن قال لِّي مِنْ بَيْتِ الجِّيرَانْ

قْلْتِ لُّو خَايْفْ مِنْ مِين قال لِّي مْنِ القَفَصْ هْرْبَانْ

قْلْتِ لُّو رِيشَاتَكْ وَيْن قال لِّي فَرْفَطْهَا الزَّمَانْ

عَصْفُورِ طَلّ مْنِ الشّبَّاكْ وقال لِّي يا نُونُو

خَبِّينِي عَنْدِكْ... خَبِّينِي دَخْلِكْ يَا نُونُو

قْلْتِ لُّو لَا تْخَاف إِطَّلَّع شوفِ الشَّمْسِ اللِّي رَحْ تِطْلَعْ

وِطَّلَّعْ عَلْ الغَابِه وْشَافْ أَمْواجِ الحْرِّيِّة بْتِلْمَعْ
شَافْ جْوَانِحْ عَمْ بِتْزَقْزِقْ مِنْ خَلْفِ بْوَابِ العْلِّيِّه
شَافْ الغَابِه عَمْ بِتْحَلِّقْ عَلَى جْوَانِحِ الحِرِّيَه
قْلْتِ لُّو إِنْتَ مِنْ وَيْن قال لِّي مْنَ حْدُودِ السَّمَا
قْلْتِ لُّو جَايِ مِنْ وَيْن قال لِّي مِنْ بَيْتِ الجِّيرَانْ
قْلْتِ لُّو خَايْفْ مِنْ مِين قال لِّي مْنِ القَفَصْ هْرْبَانْ
قْلْتِ لُّو رِيشَاتَكْ وَيْن قال لِّي فَرْفَطْهَا الزَّمَانْ(1)

(1) أغنية: عَصْفُورِ طَلِّ مْنِ الشّبَّاكْ، لأميمة الخليل.

مقامات الصرخة